

فلسطين في العالم

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

الأفيسال

الأفيسال

فتح عينيه

فوقه سقفا من البلاستيك الأبيض .
 تحسس بأصابعه ذلك الشيء الذي يرقد عليه . انه
 سرير أو لعله أريكة من الجلد الطرى ، ولمح بطرف عينه عن
 يمينه كوة زجاجية تطل على سماء . وسمع صوت رجل
 يغنى . سمع صوتا مرحا يردد كلمات غريبة بلغة لا يتبينها أو
 لا يعرفها ولا يفهمها . ولكن الصوت مرح لا شك في ذلك ،
 كأنه يفتح عينيه على صباح مشرق . الصوت المرح يدخل على
 نفسه سكونا لم يألها منذ زمن طويل . آه . آه . هل
 آن الآوان بعد كل هذه السنوات ، بعد كل هذا العذاب ، بعد
 أيام الشتاء والمرارة ليستريح . ولكن كيف يستريح وهذا
 الغناء المرح ينطلق بكلمات غير مفهومة تلزمه الحذر وتفرض
 عليه أن يحتاط .

لعل من الحكمة أن يستجمع ذاكرته قبل أن يقدم على حركة
 متسعة تدل على أنه استيقظ ، لابد أنه الآن طائر في السماء
 متجها الى ذلك المكان المجهول الذي سيقضى فيه أجازته . آه
 لو كان صحيحا أنها أجازة وأيام راحة . على أية حال هذه
 هي فرصته الأخيرة . لو ضاعت منه هذه الفرصة ، فلا يدري
 ماذا يكون .

الاحمال

لقد جازف وقبل المخاطرة ، ليس أمامه الا أن يقبل .
 وعندما سألوه اذا كان قد اتخذ قراره وقبل القيام بهذه
 الرحلة ، كانوا يطلبون منه شيئا لا يملكه ، فهو عاجز عن
 اتخاذ مثل هذا القرار حتى ولو أنه تظاهر بأنه يقرر ويقبل
 وهو في حقيقة الأمر ، يفر ويهرب ويستسلم لذلك المجهول
 الذي يخلصه من واقع يفتوسه ويفنك به .

ولقد اتخذوا احتياطات كثيرة ليتأكدوا أنه لن يعلم الى أين
 هو ذاهب ولكن من يدري ، لعله استيقظ قبل الاوان ، ربما لو
 اطل من الكوة الزجاجية يستطيع أن يتبين بعض المعالم
 الجغرافية التي تكشف له عن خط سيره أو تساعد على أن
 يخمن موقعه من خريطة العالم .

كان مولعا في أسفاره السابقة بمراقبة ما يراه تحقه من
 نافذة الطائرة وهو يذكر مشاهد ومعالج محفورة في ذاكرته ،
 جبال الألب ، كعب حذاء ايطاليا ، الطريق الأسفلت ، الشريط
 الأسود الطويل بحذاء شاطئ البحر يقطع الصحارى والجبال
 شمالي افريقيا ، غابات كندا ، كسابات التروبيج والسويد ،
 أحراش سيبيريا ، سهول الصين . جبال الروكي بأمريكا .
 ترى أين هو الآن . هل يستطيع حقا أن يعرف مكانه . ولو
 صدفة ، وتفسد المغامرة وينهار المشروع السياحي الكبير الذي
 تقوم عليه شهرة الشركة العالمية السياحية « دس » .
 لابد أنهم محتاطون لجميع الاحتمالات ، وأنهم يراقبونه ،

ولعلمهم عرفوا الآن أنه قد استيقظ ، ان السقف البلاستيك فوق رأسه تطل منه عيون زجاجية وأزرار ، ولن يدعشه أن تكون بأحدى هذه العيون آلة تصوير تسجل كل حركة أو سكتة تبدر منه ، وهم يعلمون الآن • أنه فتح عينيه واستيقظ ، وبدأ يفكر ويتذكر •

وهذا الصوت المرح الذي يغنى يؤكد له أن هناك من صاحبه في هذه الرحلة ، غالباً هو صوت أحد عمال الشركة كلفوه بمراقبته ومراقبته وحراسته • ترى هل يستطيع أن يرفع رأسه قليلاً ، أم أن المخدر مازال يشل قدرته على الحركة • ان ضوء النهار ينفذ من الكوة الزجاجية ، يتدفق غزيراً من شمس ساطعة ، وعملية التخدير تمت قبل الفجر ، وما هو يحرك أصابعه ، فهل يقدم على خطوة أخرى وينهض ، يعلن أنه استيقظ ، ويرى ذلك الرجل الذي يغنى ، حاول أن يرفع رأسه ، ولكنه لم يرفعها ، ولم يدعش أو يقلق لأنه لم يرفع رأسه ، كان يدرك أنه لو تحرك فستبدأ المغامرة ، وسيواجه المجهول الذي سعى إليه ، أو هرب إليه ، أو انساق إليه ، وهو يريد أن يؤجل لحظة المواجهة حتى يتذكر ما حدث له قبيل الفجر في حجرته بفندق « ترومبى » بزيورخ •

كان قد استيقظ على ألم حاد يمزق أمعاءه ويمتد الى كتفه الأيسر ويتركز في بؤرة في حجم قطعة نقود معدنية يخرقها مسمار من لهب ، تترنح متهاكاً الى الحمام الملحق بالحجرة ،

وهناك أصابه دوار ، ورأى وجهه في المرآة مصفراً ، عيناه تضيقان ، وحببات عرق على جبينه ، ورجفة باردة تسرى في جسده ، وتهاوى على البلاط ، وارتطمت رأسه بالحوض أثناء سقوطه ، وقال لنفسه هذا الدوار أمره هين ، واستطاع ان يقنع نفسه بما يقوله ، فافاق ونهض بصعوبة ، فرأى شريطاً من الدم يسيل من شفطيه وتترنح خارجاً من الحمام وقبل ان يصل الى السرير والتليفون سمع طرقة على الباب •

ولا يذكر اذا كان قد فتح هو الباب ، أو صاح بالطارق ان يدخل ، كل ما يذكره الآن هو الرجلان يدخلان عليه يقفان في الحجرة الضيقة التي يشغل نصفها السرير ، أمامه حوض نباتات خضراء ، فوقه رف عليه تليفزيون شاهد على شاشته قبل ان ينأى مباراة كرة سلة بين الاتحاد السوفيتى واسرائيل ويلتصق الجانب الأيسر للسرير بنافذة تطل على البحيرة ، وركن من الحديقة التي بها خيمة لفرقة مسرحية ، تقدم كل يوم ساعة الغروب رواية يقبل فاس كثيرون على مشاهدتها •

وكان قد قرر منذ يومين ان يدخل الحديقة ويشاهد المسرحية ، ولكنه توقف عند مدخل الخيمة عندما اكتشف ان التمثيل باللغة الألمانية ، وكانت هناك لوحة كبيرة معلقة على حامل سبورة مكتوب عليها اسم الرواية بكلمات لم يفهمها ولكنه استنتج انها كلمات ألمانية ، شعر بالضيق لأنه محروم من شيء يتمتع به الآخرون ، وكان الناس يقبلون في نشاط

لا يخلو من حماس ، تأملهم بعض الوقت ، عندما فوجيء
برجل وسيم طويل له وجه طفل وعينان زرقاوتان باسمتان
كان متجها الى مدخل الخيمة ، ثم استدار فجأة ، واتجه اليه ،
وفوجيء بالرجل يبادره قائلاً بالانجليزية :

- أنا سعيد بأن ألقاك هنا يا سيد يوسف منصور .. أنا
مندوب « د . س » التي عقدت معها الاتفاق .. ويسرني أن
أخبرك أن الرحلة سيبدأ تنفيذها بعد يومين .. هل أنت
مستعد .

قال ذاهلاً :

- نعم ..

وقبل أن يستفسر من الرجل عن معلومات خاصة بالرحلة ،
رآه يستأذن في الانصراف ليلحق بالمسرحية قبل رفع الستار
.. وابتعد الرجل الوسيم وهو يتمتم :

- سيبدأ الرحلة قبيل الفجر .. الوداع يا سيد يوسف
منصور .

رغم أنه سمع الرجل ، وفهم كل كلمة قالها ، إلا أنه لم
يصدق ، أو كأن هذا اللقاء غير حقيقي . صحيح أنه تعاقد
على القيام بالرحلة ، وأنه يحتفظ بالعقد في إحدى حقائبه
بحجرتة بالفندق ولكنه لم يشعر في لحظة ما أن هذه الرحلة
حقيقية ، حتى وهو يسلم صديقه مراد في القاهرة شنيكا
بألف جنيه لحساب الرحلة .

كان يذيل اليه أن مجرد التفكير في هذه المغامرة ، هو
العلاج المؤقت ، المخدر أو المسكن الذي يريحه بعض الوقت
بما يثيره في نفسه من أحلام وخيالات عن رحلة الى مكان
مجهول تبعد به عن المشاكل والأزمات التي تحاصره .

كان صوتاً في أعماقه يهمس أن صديقه مراد سوف يحتفظ
بالشيء لبعض الوقت ثم يعيده اليه ، ولما سافر الى زيورخ
ظن أنها نهاية المطاف ، وأن مؤسسة « د . س » تستخدم شعار
« الرحلة الى المجهول » كوسيلة حديثة وبارعة في الدعاية ،
اعتمدت فيها على خبراء في علم النفس درسوا فن جذب
الزبائن وتشويقهم الى السياحة عن طريق هذه المؤسسة .

ونفس الشعور لازمه وهو يوقع العقد . بعد أن قرأ شروطه
العجيبة ، عادت الى ذاكرته زيارته لمدينة « ديزني لاند »
في ولاية كاليفورنيا ، وركوبه صاروخ الى القمر . والشهادة
التي منحوه اياها لاثبات أنه واحد من رواد الفضاء .
تمثيلية مسلية تمت على الأرض ، قضى أثناءها بعض الوقت
تحيط به مؤثرات تشبه تلك التي يتعرض لها راكب الصاروخ
الحقيقي . ولما حصل على الشهادة بأختامها وتوقيعاتها
وما تسجله من أحداث وأوهام وخيالات . امقلاً زهواً
وفخراً . وقال لكل من يقابله بعد هذه المغامرة انه سافر
الى القمر ومعه شهادة تثبت ذلك .

انها لعبة ، لهو أطفال يستخدمه الكبار للترويح عن

النفس . ولقد فرح بالعقد الذي تتحمل بمقتضاه مؤسسة « د . س » أن تعد له رحلة الى مكان مجهول . كان يكفيته أن يقرأ العقد ليحلم ويأمل بأن يتخلص من كل مشاكله بهذه الرحلة العجيبة الى ذلك المكان الذي يجهله ولا يعلم عنه شيئاً .

والآن بعد أن حدد له الرجل الوسيم موعد السفر بعد يومين قبيل الفجر . مازال ينظر للأمر على أنه تمثيلية محبوبة ، وأن ظهور هذا الرجل في هذا المكان بالذات ، هو ضمن خطة يعدها خبراء النفس الذين تستشيرهم مؤسسة « د . س » ليقضى أثناء سياحته في « زيورخ » وقتاً مع أحلام تخرجه من مشاغله وهمومه ، وتمنحه راحة نفسية هو في أشد الحاجة اليها .

ولقد حدث بالفعل أن اجتاحته نوبة نشاط وحماس بعد لقائه بالرجل الوسيم ، فانطلق من الحديقة ، واخترق ميدان المحطة الى « بانهورف شتراس » الطريق الذي يضم على جانبيه أفخر فاترينات زيورخ ، وتأمل المعروضات . . وتأمل أجساد البنات والسيدات الواقفات أمام الواجهات ، ووقف برهة يستمع الى مجموعة من طالبات ينشدون على قارعة الطريق ، وحملة قدماء في نهاية الطريق الى البحيرة ، وسرحت عيناه مع المياه والزوارق والاشعة والسحاب وسفوح الجبال وقممها عند الأفق ، واتجه يساراً الى شاطئ

« المنظر الجميل » واختراق أكثر من مقهى ، وعبر جسراً ، ودخل المدينة القديمة بأسواقها وشوارعها الضيقة ، وعامراتها المتسكعات عند تقاطع الأزقة الضيقة ، وخيام الغجر بمعروضاتهم من النسيج المطرز والموشى والتماثيل الفجة ، والأمشاط والعقود ، وظل يسير حتى استوقفه عند جسر آخر جماعة ممثلين يقدمون مشاهد اسطورية على وجوههم اقنعة شياطين ورجل يضرب صفائح تحدث اصواتاً للبرق والرعد والرياح ، كان يقطع زيورخ بكل ما فيها ، كان متفتحاً لكل ما يراه ، كانت أعماقه رحيبة فسيحة ، خلت من كل ما كان يزحمها من الأهل والأصدقاء والمعارف بذكرياتهم ورواسبهم التي تكسبت وتعفنت في أعماقه .

لم يعد يذكر حياته الماضية ، حياته التي فشلت ، وتفتحت شهيقه لحياة جديدة ، يشعر بجوع ونهم اليها ، لقد تخلص من حصار الماضي . انتهت أيام زينب ، انقطعت صلته بحسن ، تحول التليفزيون بحلقاته ومسلسلاته وعقوده ومخرجيه الى انقراض وأشلاء ، انه اليوم قادر على ان يفكر في عمل جديد في علاقات جديدة ، بيت جديد وامرأة جديدة وعمل جديد والمستقبل يفتح له ذراعيه ويدعوه الى أحضانه ، كانه ولد من جديد . لقد ذهب الماضي ، فذهبت معه ، والى غير رجعة ، سنوات عمره التي صنعت كهولته .

التهم شريحة لحم في المطعم بجوار سوق الغجر ، وقد

اعتزم أن يحتفل بقضاء ليلته مع فتاة جميلة سيحبها حتما
هنا أو هناك وليسوف يتمتع بصحبتها كما لم يتمتع من قبل ،
عندما فرغ من فطيرة التفاح شعر بثقل في معدته ، ونعاس
يثقل جفونه ، فنهض وهو يلوم نفسه على اسرافه في الطعام ،
ولكن لا بأس ، الليلة يسرف في الطعام ، وغدا يسرف في
الرجولة ، ويكفيه الليلة أنه اتخذ قراراته الجديدة ، ولما
دخل فراشه كان التليفزيون يذيع مباراة كرة السلة ، وكان
شابا نحيفا يحاور عملاقا ضخما ، منظر مثير لولا ضغط
النعاس على جفنيه ، حتى استيقظ على الألم الحاد في أمعائه،
وسقوطه في الحمام ، وهما رجلا يقفان عند الجانب
الأيمن من السرير يتفحصان وجهه ، ولا بد أنهما يريان الدم
الذي يسيل من شفتيه .

وقال لهما بصوت ضعيف ، كأنه يخاطب نفسه :
- هل أنقما ..

ولم يكمل ، كانا قد أسرعتا يتلقفانه ، يمسك كل واحد منهما
بأحدى ذراعيه ، وقال الذي يمسك بيمينه :
- اطمئن .. سوف تستريح .
فهمس :

- نعم .. أريد أن أستريح ..
فقال الذي يمسك بيساره وهو يجذبه برفق الى الفراش :
- استرخ .. لا تشد عضلاتك .

وشرع الرجلان في خلع ملابسه ، حتى تعرى جسده
تماما . تذكر ليلة الغرام التي كان يسعى اليها ، هل أسرف
في التمنيات كما أسرف في الطعام ، وظهرت حقيقة في يد
أحدهما أخرج منها زجاجة وقطعة كبيرة من القطن بللها
بالماء الذي يسكب من الزجاجة ، ومسح بالقطن المبلل
وجهه وصدره ، فسرت برودة في أطرافه ، رحب بها بعد لهيب
الألم الذي كان يمزقه . وواصل الرجل عملية سكب الماء
على قطع أخرى من القطن ومسح كل جزء في جسمه . وشعر
أنه يفيق وأنه يسترد أنفاسه . وابتسم وفتح فمه ليسأل
الرجلين إذا كانا قد جاءا من أجل الرحلة . ولكن السؤال
جمد في حلقه عندما رأى حقيقة في يد الرجل الذي يمسك
بالحقيقة وقال الرجل باسمه وهو يتقدم منه :

- بعد قليل تبدأ الرحلة يا سيدي .
تمثم غير مصدق :
- أحقا ما تقوله ؟!

قال الرجل في هدوء :
- نحن ننفذ الاتفاق يا سيدي ..

فرفع يده ليمنع الحقنة من الاقتراب منه وسأل :
- ولكن الى أين أذهب ؟

قال الرجل :

- سوف تذهب الى هناك .. وتعود وقت ان تشاء دون ان تعرف الى أين ذهبت .. أو من أين عدت .
همس محتجا :

- ولكنى أريد أن أعرف اسم المكان .
قال الرجل :

- أنت تعلم يا سيدى شروط العقد الذى وقعت عليه ..
همس :

- ولكنى لا أريد ان اذهب الى مكان مجهول .
قال الرجل بوقار :

- هذا شأنك يا سيدى .. كلمة منك تلغى الاتفاق ..
دمدمت كلمات الرجل فى رأسه ، تلغى الاتفاق ، تلغى الإجازة . تلغى المغامرة ، تلغى الأمل ، تلغى الخلاص من الماضي ومشاكله وهمومه .

قالت عيناه للرجل انه لن يلغى الاتفاق ، ولا بد ان الرجل قد فهم ذلك ، لأنه تبادل النظرات مع زميله الذى تقدم وأمسك بذراعه ، ولف حول معصمه أسارا رقيقا من البلاستيك - وأمسك بقلم وكتب على الاسار : بحروف عربية « يوسف مقصور » .

وساله يوسف :

- لماذا نكتب اسمى ؟

همس الرجل :

- هذا اجراء معتاد فى هذه المناسبة .
قال يوسف باسم فى استسلام :
- لعلك تتوقع أن أضل طريقى .
فقال الرجل فى هدوء :

- منذ الآن نحن المسئولون عن الطريق .
وشعر بوخزة الابرّة فى ذراعه ، وأدرك أن المخدر قد سرى فى جسده . وأنه بعد قليل سوف يغيب عن الوعي ، وتبدأ الرحلة . فصاح فى قلق مفاجئ :

- ولكنى ما زلت قد اعدل عن رأيى .
قال الرجل وهو يعيد الحقنة الى الحقينة :
- فى اية لحظة تريد ان تعود .. سنعيدك الى حيث تريد .

ودمدمت مرة اخرى كلمات الرجل فى رأس يوسف :
سنعيدك الى حيث تريد . سنعيدك الى زوجتك زينب ، الى ابنتك حسن . الى مبنى القليفيون فى شارع ماسبيرو . الى محكمة الجنايات . الى تأليف الروايات . سنعيدك الى الذل والإهانة والفضل .. وانتفض جسده يوسف ، واندفعت خارجه من حلقه شهقة جامحة ، وغاب عن الوعي .

كان الصوت الذى يغنى ، الصوت المرح كأنه صباح مشرق ، يردد الآن كلمة تشبه « تود » أو لعلا « مود » ، أوضح ما فى

الخيال

مثل هذه الصحراء الفسيحة الممتدة الى نهاية الأفق في
سويسرا أو أى مكان في أوروبا .
ابتسم له القائد . . وقال له في مرج وهو يفتح الباب :
- هالوه . .

واستقبل القائد رجلا يصعد السلم . كان القادم قصيرا
بدينا ، رأسه مستدير ، عيناه واسعتان مستديرتان ، وله
شارب قصير مقصوص بعناية ، وصاح القادم مناديا عليه
بصوت آلى حاسم :

- تفضل يا سيد يوسف منصور .

تحرك ببطء ، نحو القائد ، ونحو القادم على السلم الذى
ينادى عليه فلما وصل الباب ، توقف عند حقائقه الثلاث ،
فطلب الرجل منه ألا يهتم بها . ولكن كيف لا يهتم بها فى هذه
اللحظة بالذات ، لو أخذوها منه ، لو ضاعت منه لأى سبب ،
لانتقطعت كل صلة بينه وبين العالم الذى جاء منه . زينب .
وحسن . والتليفزيون والرواية التى لم يستطع كتابتها ،
والأطباء والسيارة التى دفع قسطها الأول . تدفقت عليه صور
الماضى . كأنها تريد أن تنقزعه انقزاعا من هذا المكان .

وانتبه على صوت القائد الذى كان يغنى يقول له باسمما
بالانجليزية :

- مرحبا بك .

قال واجما :

الكلمة هو عينها ، حرف الواو الذى يتوسط الحرف الأول
والحرف الثالث والأخير .

واو ممطوطة أحيانا ، ساكنة أحيانا ، واختلط بالغناء
المرح صوت هدير المحركات ، نعم انه صوت محركات . ووجد
نفسه ينهض فجأة ، ليتبين أنه راقد وحده فى هليوكبتر
صغيرة . وان الذى يغنى هو قائد الهليوكبتر ، وأطل من الكوة
الزجاجية فرأى ثمة صحراء ممتدة بلا نهاية . والهليوكبتر
يهبط اليها ، ورأى حقائقه الثلاث عند باب الهليوكبتر ، وقطع
القائد غناؤه ، وقال دون أن يلتفت اليه :

- لقد وصلنا . . استعد للهبوط .

اعتدل فى جلسته ، فهذا هو كل ما يستطيع أن يفعله
ليستعد للهبوط . بدت الأشياء من حوله غير حقيقية ، يغلفها
طنين المحركات ، وبقايا الغناء عالقة بأذنيه ، وعاد يطل من
الكوة ، فرأى الصحراء تقترب ، وحاول أن يدقق النظر باحثا
عن شيء غير الصحراء ، فلما رأى سيارة سوداء واقفة
ولا أحد حولها ، كان قد بذل جهدا أرهاقه ، وارتطمت عجلات
الهليوكبتر برمال الصحراء برفق . وحاول أن يقف ، ولكنه
فضل أن يختبر ساقيه فى حذر ، وانتظر حتى هدأت المحركات
ليقف ، والتفت اليه القائد ، وفوجئ به أنه نفس الشاب
الوسيم الطويل الذى قابله خارج خيمة المسرح فى الحديقة
بزيورخ . أمازال فى مكان قريب من زيورخ ، ولكن هل توجد

- مرحبا بى أين ؟
قال القائد وقد اتسعت ابتسامته ملوحا بيده نحو الباب
والفضاء العريض من بعده :
- هنا ..

تفحص وجه القائد • لعله يجد فيه تفسيراً لمعنى هنا
وخرجت كلمات من فمه تسأل :
- لقد رايتك من قبل ؟!

قال القائد :
- نعم .. فى الحقيقة •
قال له :
- لم تقل لى انك ستقود الطائرة •

قال القائد مصححاً بسرعة :
- لا .. لم اتول قيادة الطائرة .. ان مهمتى انحصرت فى
قيادة الهليكوبتر بعد أن وصلت بك الطائرة •
فسأل القائد :

- انت تعلم اذن من أين جئنا ؟
قال القائد :
- طبعاً ..

فعاد يسأله بلهفة :
- وتعرف الى أين جئنا ؟

قال القائد فى مرح :
- طبعاً طبعاً .. فنحن هنا ..
فرفع صوته فى الحاج :
- ولابد انك تعرف الطريق بين المكان الذى كنا فيه ..
وهذا الذى وصلنا اليه ..

اجاب القائد وقد اضاف الى مرجه ابتسامة عريضة :
- صدقنى هذا هو الشيء الوحيد الذى لا اعرفه .. لقد
تركت زيورخ معك بنفس الطريقة ..
ولوح الرجل بيده كاشفاً عن معصمه وقد احاط به اسار من
البلاستيك وقال :
- انظر .. ها هو اسار عليه اسمى .. مثل الذى حول
معصمك .. كل ما فى الأمر انى استيقظت قبلك لاجد نفسى فى
محطة فى هذه الأرض الممتدة امامك وقد هبطنا من طائرة •
ورايتهم يحملونك الى الهليكوبتر التى توليت قيادتها •

صاح يوسف وقد تملكه الغضب :
- لا تسخر منى ..
قال القائد فى أدب وتحفظ :
- انا لا أسخر من أحد يا سيدى .. ولا أقول الا الصدق ..
صاح يوسف وهو يتبين ان الغضب ينهك قواه :
- انت لا تقول الا الكذب ..
فهمس الرجل محتفظاً بأدبه :

- لا داعى لهذه الاتهامات يا سيدى .. والأفضل أن تحترم توقيعك على شروط العقد .
نفث يوسف آخر ما تبقى لديه من طاقة بصوت متحشرج :
- وإذا أردت أن أعود ..
قال القائد بسرعة :
- فى أية لحظة تشاء ..
التفت يوسف الى الرجل القصير البدين الذى نادى عليه ،
وهو ينتظره الآن عند رأس السلم . وهمس :
- أريد أن أعود الآن ..
قال القائد وهو يتجه الى مقعد القيادة :
- حسنا يا سيدى .. سنبدأ فوراً ..
وتقدم الرجل القصير البدين ، وقال ليوسف بصوت كأنه صادر عن جهاز تسجيل :
- أرجو لك رحلة موفقة يا سيدى .
ثم قال بصوت حاسم مشيراً الى الأريكة التى كان راقدا عليها طوال الرحلة :
- تفضل يا سيدى واسترح . فلا بد من اتخاذ إجراءات سريعة .
كان الرجل يتحدث وهو يخرج من جيبه محفظة جلدية صغيرة . فتحتها وأخرج منها حقنة .
همس يوسف :

- أتعود الى حقنى بالمخدر ؟
قال الرجل بلا تردد :
- هذا أمر لا بد منه .. وهو منصوب على العقد الذى تفضلتم بتوقيعه .
قال يوسف وهو يتبين سخافة الموقف الذى وضع نفسه فيه :
- وتضيع هذه الرحلة هباء ..
ظل الرجل يرقبه صامتا ، كأنه لا يعنيه ما يفكر فيه يوسف . كل ما يعنيه هو أن يتخذ اجراءات العودة ، التى تبدأ بحقن يوسف بمخدر . فقد جاء الى هنا منوما . وسوف يعود الى حيث يريد منوما .
ورفع القائد صوته دون أن يلتفت الى يوسف :
- ستجد يا سيدى استمارة فى جيب خلف الأريكة .
تفضل بملء البيانات المطلوبة التى تحدد فيها المكان الذى ترغب فى العودة اليه .
قال يوسف فجأة :
- ربما يحسن أن أقضى ليلة هنا ..
ولم يتلق أى تعليق على أفكاره التى يعبر عنها بصوت مسموع . كان الرجل القصير البدين ينظر اليه وقد خلا وجهه السمين المستدير من أى تعبير .
واضطرب يوسف أن يسأله :

يتحمل حقولا وترعا وقرى ونهرا وصحارى وشطآن يجوس
خلالها ويعيش فى ربوعها وهو لا يعرف أن لها اسما هو
مصر



التزم السائق الصمت

بينما انشغل يوسف بالصحراء
الصامتة ، خيل اليه أن الرمال لو أنها غريب ،
ورفع رأسه الى السماء ، كانت بلا سحب والشمس عالية ،
ولكن ضوءها هادىء ناعم ، وضحك فى سره وسأل نفسه :
ما الذى جاء بى الى هذا المكان ؟ وعاد يحدق فى الشمس
متعجبا لأمرها ، وفجأة انطلق السؤال من فمه :

- أين نحن ..

وبدا أن السائق القصير البدين لم يسمعه أو يتظاهر بأنه
لم يسمعه .. وفكر فى أن يكرر السؤال ، ولكنه خشى أن
يسمع الاجابة التى يتوقعها . أن شروط العقد لا تسمح له أن
يعرف أين هو الآن . انه لموقف عجيب . ان وجوده فى المكان
لا يعنى أنه يعرفه . انه يحتاج الى كلمة . الى عنوان .
لا يكفى أن يرى ما يراه . وأن يتنفس الهواء المحيط به ، وأن
ينطلق فى سيارة فى هذه الأرض ، كل هذا لا يعوضه عن اسم
ليرتبط بما حوله ، انه لا يستطيع أن يتصور نفسه يسير فى
شوارع القاهرة ، ويدخل بيوتها ، ويتردد على أماكن عمله ،
دون أن ترتبط حركته بوعى دائم بالقاهرة ، لا يستطيع أن

عندما زار الصين • كان كل ما تقع عليه عيناه • يتحول
الى صيني • هذه سماء الصين وهذه هي مدنها • وبيوتها
وطرقاتها وناسها وحقولها ومصانعها • لو تجول في الصين
وهو لا يعرف لها اسما لأصابه الجنون • اننا نعيش بظرف
الزمان وظرف المكان وكليةما لا بد من فهمه بكلمه • باسم
نسميه به • فما هو اسم هذا المكان • ايكفى أن يقول انها
صحراء • انه يقضى هذه اللحظة صباحا في صحراء • اى
صباح • اية صحراء • انه على الاقل يعرف أن الامس كان
الخميس واليوم هو الجمعة • وخطر له خاطر مفزع • اوانق
هو أن اليوم هو الجمعة • وانه انتقل الى هذا المكان بعد أن
تم تخديره قبيل فجر اليوم • وصاح بالسائق :

— اليوم الجمعة • • اليس كذلك •
لم يكثرث السائق البدين القصير لما يسمعه • فرفع صوته
في عناد :

— اتسمعنى انى أخاطبك ؟
سمع السائق يقول بصوته الآلى دون أن يدير راسه :

— نعم انى اسمعك يا سيدى •
فصاح في قلق • فبدأ صوته أمرا :
— اليوم الجمعة • • اليس كذلك •
اجاب السائق بصوته المعدنى الرقيق كأنه صادر من جهاز
تسجيل :

— لا ابرى يا سيدى •

هتف منفعلا :

— ماذا • • لا تدري في أى يوم نحن •
اجاب السائق ببلادة ، أو لعلها صفاقة :
— نحن لا نعرف هنا أسماء للأيام يا سيدى •
صاح :

— مستحيل • هذا تضريف •
قال السائق يصمم الأمر :
— صدقنى • لا أسماء للأيام هنا •
فانفجر غاضبا :

— ولكنى أعلم أن اليوم هو الجمعة •
قال السائق محتفظا ببلادته أو صفاقته :
— اذن فهو الجمعة يا سيدى •
فعاجل السائق بالسؤال الذى يلح عليه :

— واين نحن ؟

اجاب السائق :

— نحن هنا •

فرفع صوته مهددا :

— ماذا تعنى بقولك هنا • • اليس لهذا المكان اسم • •
اجاب السائق :

لا اعرف أسماء يا سيدى • •

صاح هائجا :

— اية صحراء هذه ؟

فتمتم السائق :

- صحراء .. صحراء .. ماذا تعنى يا سيدى ؟
كاد يهجم على رقبة الرجل ويخنقه وهو يسأله بالحاح
امتزج بغيط شديد :
- لا قراوغ .. انها صحراء .
أجاب السائق بنفس البلادة أو الصفاقة :
- اذن هي صحراء يا سيدى .
صاح :

- أعلم أنك ممنوع من الاجابة على أسئلتى .. ولكنى
عرفت الكثير .. أنت تتكلم العربية .. وهذه هي صحراء ..
اذن نحن فى صحراء عربية .
قال السائق بلا تردد :
- حسنا يا سيدى . اذا كان هذا هو ما تريده .. فلتكن
صحراء عربية .

تهالك يوسف على مسند الظهر وقد بلغ به الارهاق غاية .
لا فائدة من مواصلة هذا الحوار المجنون . انه يعذب نفسه
بلا فائدة . وعليه أن يختار . اما أن يواصل الرحلة بلا أسئلة
أو يطلب العودة فورا . نعم عليه أن يختار وأن يقرر . انه
منذ سمع مراد يحدثه فى أمر هذه الرحلة . وهو يواجه قضية
الاختيار .

قال له مراد :

- فكر جيدا فيما أعرضه عليك يا يوسف . أنت تقول انك
تعيى . وأنت لم تعد قادرا على تحمل الظروف القاسية التى
تحيط بك .. وأن أفكارا سوداء تراودك لتتخلص من نفسك
التى لم تعد تستقبل الا الهموم والمصائب والأمراض . ما رأيك
فى أن تقبل ما أعرضه عليك .. رحلة الى مكان مجهول ..
تفصل فيها نفسك تماما من كل هذا الذى تعاني منه . تنقطع
صلتك بكل ما عرفتته كأنك ولدت من جديد . وتعطى نفسك
فرصة للتفكير الهادى المزن لتبدأ حياتك من جديد . مرحلة
جديدة تماما تتخلص فيها من كل مساوىء الماضى وعيوبه
ومضاره . تبقى مستقبلا مشرقا سعيدا .. أنصحك
يا يوسف .. لا تحرم نفسك من هذه الفرصة .

ومضى مراد يشرح له مزايا المشروع الذى يعرضه عليه .
ان الدراسات العلمية التمهيدية التى قامت بها مؤسسة
« د . س » السياحية . قد أثبتت أن هناك حاجة حقيقية لدى
الناس فى هذا العالم . لأن يفروا مما هم فيه من مشااكل
ومعاناة الى أماكن مجهولة لا يعلمها أحد . ولا يعلم موقعها
فى هذه الدنيا نفس الذين جاءوا اليها طالبين الراحة . أثبتت
الدراسات أن مثل هذا المشروع سيكون عليه اقبال غير عادى
بل ان بعض خبراء التسويق أكدوا فى تقاريرهم أنه يندر أو
يستحيل تصور وجود انسان على هذه الأرض لن يحتاج فى
وقت ما الى القيام بمثل هذه الرحلة فى مرحلة ما من حياته اذا

ما توافرت له امكاناتها • وهذا يعنى أن المشروع مضمون النجاح وسوف يحقق أرباحا خيالية • وسيكون صحيحة العصر في المشروعات المبتكرة التي يستقبل بها الناس القرن الواحد والعشرين • فإذا كان القرن العشرون قد فرض على البشرية حاجتها للاتصالات الهاتفية والصوتية والمرئية والانتقال من أى مكان الى أى مكان بالطائرات والصواريخ • فإن القرن الواحد والعشرين سوف يخلق حاجة أساسية للبشر • تتمثل في امكانية التواجد في أماكن مجهولة لبعض الوقت • تنقطع خلاله صلتهم بكل ما واجهوه ويواجهونه من مشاكل • لقد فشل مجتمع القرن العشرين في تحقيق الخلاص الحقيقي للإنسان • ولم تفلح المخدرات وعقاقير الهلوسة والحبوب المهدئة والمنومة في صنع الملجأ التي يحتضن بها الناس من هجمات الهموم والمصائب عليهم • ومن قبل لم تفلح الأفكار والمذاهب السياسية والاقتصادية في صنع المجتمع المريح المرفه الذي ينعم فيه البشر بالراحة • والإنسان الذي هو من لحم وعظم ودم • لم يعد قادرا على مواصلة تحمل ما يتعرض له من صعب تزداد تعقيدا وخطورة جيلا بعد جيل • لم يعد هناك مقر من سياحة الى المجهول • انها أروع اكتشاف وصلت اليه الانسانية وهي على مشارف القرن الجديد • انه الاكتشاف الذي يوازي ما سيتم من اكتشاف الكسواكب والمجرات في الفضاء اللانهائي •

استمع الى مراد وهو غير مصدق • ولكن مراد حسنين كان رجلا عمليا • لا يضيع وقته في الجري وراء الأوهام • كان زميلا له في ادارة التحقيقات بوزارة المعارف • وفجأة استقال وهاجر الى أمريكا الجنوبية • فلما قابله بعد سنوات في القاهرة • كان قد تحول من موظف في ادارة بالحكومة المصرية الى واحد من كبار الأثرياء في العالم • ولكن هذا التطور الذي طرأ على مراد لم يجعله يقطع صلته بيوسف • فقد ظل الذي يربط بينهما صامدا على مر الأيام • كانا قد أحبا شقيقتين توعم • أحب مراد مريم وأحب يوسف زينب • ثم كان ذلك الحادث الذي انقلبت فيه السيارة التي تقل الخطيبين والخطيبتين • وفقد مراد خطيبته مريم • وبقيت زينب لتتزوج يوسف • وليوقع مراد كشاهد على عقد زواجهما •

كانت عينا مراد تلمعان وهو يستمع الى شكوى يوسف مما انتهى اليه أمر زواجه بزينب • كأنه يقول لنفسه : لقد نجوت من هذا المصير • فنهاية علاقتي بمريم أكرم من هذا الذي تنتهي اليه علاقتك يا يوسف بزينب • ولكن أزمة زواج او طلاق ليست وحدها التي تدفع بالإنسان الى أن يفكر في الخلاص من نفسه • ان القوى التي تتصارع وتتفاعل داخل يوسف مركبة من عناصر كثيرة • لو جمعها لمالات كل هذا الفضاء من حوله • هذه الصحراء الفسيحة التي تنطلق فيها هذه السيارة السوداء لا تتسع لما في قلبه من احزان ومهانات •

الكذب في ثوب صدق • الخسة في رداء الشهرة والبطولة •
ذلك التزييف المستمر لأي معنى لاحترام النفس • ثم هذا الولد
من يوسف منصور • ابنه الذي لم يعد ابنه • كيف يخدم هذه
الأصوات ؟

لقد بدأ المغامرة وشعاره ليكن ما يكون • كان يقولها
يرددها • دون أن يحدد لها معنى واضحا يستقر عليه • اكتفى
بأن يندفع في المغامرة نحو هذا المجهول الذي هو بين أحضانها
الآن • وهو لا يصدق حتى آخر لحظة ما يقوله مراد •
كان واثقا أن مراد حسنين يشغله بما قد يتورط فيه بعض
الوقت لعله ينسى أفكاره « السوداء » فهكذا وصفها مراد وهو
يشجعه بابتسامة ولهجة واثقة : لماذا لا تقتلني يا يوسف
يا أخي من شراك هذه المصيدة • قل أنك موافق وسوف
تري العجب •

قال لمراد :

— أنا موافق •

قالها ساخرا • أو قالها يائسا • أو قالها لمجرد مواصلة
حديث أجوف لا معنى له • بعد أيام طلب منه مراد أن يزوره
في الفندق • جلسا يتناولان الإفطار في الشرفة المظلة على
التيل في جناح أجره مائة وعشرون جنيها في اليوم •
كان مراد يرتدي الروب دى شامبر يغطي به جسده العاري
وقد كشف صدره عن شعر رمادي يفضح سنه • وقد أمسك
بملقعة صغيرة يلتهم بها ثمرة مانجو في طبق من الكريستال

محاطة بالثلج • وقال مراد وقد أمثلاً فمه بلحم المانجو :
— اسمع يا يوسف • كل شيء معد • لقد أجريت اتصالاتي
• • وكل ما هو مطلوب منك أن تسافر الى زيورخ •
قال وهو لا يخفى دهشته التي لا تخلو من سخرية :
— أسافر • • هكذا • • بلا أي ترتيب أو استعداد ؟
صاح مراد بصوت مختنق بما في فمه :
— أي ترتيب • • قلت لك كل شيء معد •

فسأل محتجا :

— والنفقات ؟

قال مراد وهو يرشف القهوة :

— مسألة بسيطة •

ونظر اليه فاحصا قبل أن يكمل :

— ادفع الآن ألف جنيه • •

ولا بد أن مراد قد لاحظ أنه وجم لسماع الرقم • فأسرع

يقول :

— أستطيع أن أقرضك •

اجاب متحمدا :

— لا • • سأدفعها •

فصاح مراد :

— عظيم • •

وانطلق مراد يحدثه عن شعوره بالمسؤولية نحوه كصديق •
انت الوحيد يا يوسف الذي بقي من أصحابي بل ومن أهلي في

مصر • انا اعيش وهدى كما ترى • وحياتى ليس فيها مجال للمواطف • المال يمنحك النفوذ والسلطة • تستطيع ان تشترى به اى شيء • الا الصديق •• انت يا يوسف الانسان الوحيد الباقى على هذه الارض الذى يذكرنى بايام شبابى و •• ولوح مراد بيده فى الهواء وحول نظراته الى النيل حتى لا يذكر اسم مريم •

وعرف الجميع ان يوسف منصور مسافر الى سويسرا • واعتذرت زينب عن العمل فى الفندق ليلة سفره • بذلت جهدا رائعا لتقوم بدور الزوجة • الدور التقليدى الذى كرهته وتحررت منه • اعدت له طعام العشاء بنفسها • سـجـق ويطاطس محمر وسلطة خضراء • وآيس كريم • ولم تساله ان يغسل الصحون • وصنعت له فنجانا كبيرا من القهوة وتجنببت الحديث عن عملها • طلب منها ان تحدد ما تريد ان يشتريه لها من سويسرا •

وسالها اذا كانت تفضل ساعة يد او معطفا او عطورا • او كل هذا ، ابتسمت وقالت له بحنان او لعله فى الحقيقة اشفاق : انها تعرف ان الغلاء فى أوروبا شديد • وفى سويسرا بالذات • وهى تعلم من عملها فى الفندق ان الفرثكات السويسرية أصبحت بضاعة غالية فى سوق المال • ولا معنى لأن يضحى بنقوده من أجلها • يكفيها اى شيء بسيط • هذا اذا اراد ان يتذكرها • وضحكت فى ثقة • كانت هذه هى اول مرة تقول له فيها بأسلوب لبق انها مستقلة تماما عنه • لها

عملها ولها نقودها الخاصة • وهى قادرة على أن تعتمد على نفسها وليست فى حاجة اليه •

انتهت حرب الاستقلال • وانفصلت الدولتان • دولة الزوج ودولة الزوجة • انتهت الضغوط الاقتصادية • والمعونات المشروطة • انتهت العلاقات المالية والثقافية • اختلفت الدساتير وانفصلت مصادر التشريع • حتى اللغة المشتركة التى كانت تجمع بينهما يوما ما • أصبحت تحمل معانى متناقضة • ولم يبق بينهما الا المجاملات التى يعتمد عليها الغرباء فى التعامل مع بعضهم بعضا • انتهت أيام الاشتباكات العارضة • أيام الحرب الأهلية التى اشتعلت بين جدران البيت • أيام كانت تطالب باستقلالها بالدم • أيام كانت تصرخ وتبكي وتخرج من المطبخ فى يدها سكين طويل وتهجم عليه • فيقف لها متحديا قائما صـدـره • وتتجمد يدها المرفوعة بالسكين وتصرخ •• يجب أن تعلم أن لأشياء سوف يحصل بينى وبين العمل حتى لو قتلتك • او قتلت نفسى •

أصبحت هذه المشاهد فى ذمة التاريخ • ذهبت أيام زينب التى احبها •• وذهبت أيام زينب التى صارعها وكرهها •• اختفت زينب الصديقة • واختفت زينب العدو • ولم تبق الا هذه المرأة التى اسمها زينب الغربية تماما عنه • وهى تفاجئه بسؤالها اذا ما كان فى حاجة الى دولارات • أن دهها الكثير • وهى عليها على استهزاء لأن تقرضه على أن يكون سداد القرض بعد عودته من سويسرا • تذكر مراد وهو يقول

له نفس الكلام وهما جالسان في الشرفة المطلة على النيل • لقد شعر بالتحدي أمام عرض مراد • ولكنه رجل نكي داهية ، شعر على الفور بما يجيش في نفسه ، فسارع يحدثه عن الصداقة ويقول له أنت الوحيد يا يوسف الذي بقي لي • • ولا أستطيع أن أشترى صديقاً بالمال • أما زينب فلن تقول له أبداً مثل هذه الكلمات ، لن يخطر ببالها أن علاقته بها لا تشترى ولا تقدر بمال • لن تعترف كما اعترف مراد بأن المال قد يمنح صاحبه النفوذ والسلطة ولكنه لا يمنحه عاطفة صديق أو حبيب •

إن المال عند زينب هو السلاح الذي تستخدمه لتتخلص من الصديق أو الحبيب • هو الوسيلة السحرية التي تحركها من قيد العلاقة ، إنها جائعة للمال • لأنها جائعة للسلطة ، وهي جائعة للسلطة لأنها خائفة من أي خضوع قد تتطلبه ارتباطاتها مع إنسان آخر ، إنها تعرض عليه القرض لتبعده عنها ، لتدعم شعور الغربة بينهما ، ولعلها تتشفى وتنتقم لأيام قضتها معه وهي تعتمد عليه في معاشها •

قال لزينب :

— لا • معي ما يكفي • قالت له بلهجة غامضة • قد تكون ساخرة أو غاضبة أو محتجة :

— ومن أين جئت بالنقود ؟ فلما أجابها بالصمت ، صفحته قائلة :

— مراد أعطاك النقود ؟ واحتفظ بصمته • وهو يعلم أنه يغيظها ، فلاحقته بصفتها •

— أنه قادر على أن يمول رحلات ألف شخص • ولكن قبورك النقود منه سوف يجعله ينظر اليك نظرة أخرى غير نظرة الصديق • •

قال لنفسه : وقبولى النقود منك سوف يجعلك تنظرين الى نظرة أخرى غير نظرة الزوجة • إنها تسقط ما في أعماقها من مشاعر وتفرزها في كلمات • ووجد نفسه يضحك بقهقهة • سألقه في دهشة :

— ماذا بك ؟

قال وقد دمعت عيناه :

— لا أدري • ولكني أريد أن أضحك • • لعل شر البلية ما يضحك كما يقولون • • وتجاهلته لبعض الوقت • ولكنها اقتربت منه في السرير ، وسأل نفسه أهذا قرض آخر ، فلما خرج مما غاب فيه ، تذكر مراد وهو يقول له : الذي يذهب الى هناك يا يوسف لا يعرف الى أين ذهب والذي يعود لا يعرف من أين يعود ، هذه هي المتعة الحقيقية يا يوسف ، وما هي زينب التي كان يعرفها جسداً وروحاً وعقلاً ، كان يظن أنه يعرفها كما يعرف نفسه • • أصبحت الآن زينب المجهولة ، غاب معها والابتسامة في عينيه ، وهمست وهي تستقبله لماذا

تبتسم ، فلم يجب ، وشعر معها بمتعة لم يشعر بها منذ زمن بعيد . وهي الآن راقدة بجواره مستسلمة حانية مرحبة ، ولكنها غريبة مجهولة بعيدة ، بينهما ما هو أقسى وأشد صلابة وتجهما من جدران السجن وقضبانه وظلماته وسجانيه ، وكل تلك الحواجز والعقبات المربعة التي تحول بينه وبين ابنه حسن ، آه . لماذا يذكره ، ليس هذا وقته ، لو كان الأمر أمر زئب وحدها لهان ، لو كان الأمر أمر التلذذ والنفاس والرباء وكل ما يفرضه عليه عمله من مذلة وهوان ، ربما كان احتمله ، ولكن الانهيار قد تم بعد حسن ، ولعل مراد اختار له زيورخ لأن بها مصحة للعلاج النفسى ، هذا هو الاحتمال المعقول ، ومع ذلك بقى الحلم الساذج مستقرا فى أعماقه ، انه مسافر الى مكان مجهول .

لقد كرر السؤال ومراد يسلمه تذكرة السفر بالطائرة ، ما الذى جعله يختار زيورخ ، هل هى البقعة المجهولة التى لم يسمع بها أحد ، مكان فى سافح أو عند قمة من قمم جبال الألب . هل هذا المشروع الأسطورى مشروع القرن الواحد والعشرين الذى يدعو الى التعامل معه ، هو مصحة نفسية تتعامل مع حالات الانهيار العصبى ، فضحك مراد وحدثه بلغة غامضة عن صعوبة شرح الخطوات العملية التى يجب أن يمر بها ، قال له :

- ثقب أنفى لا أعرف كل شيء . . . وعندما تصل الى زيورخ

سيقابلك من يعرض عليك التفاصيل . . . والأمر كما فهمت يتوقف على مدى ثقتك فى أصحاب المشروع ، وطبعاً مدى حاجتك اليهم ، فأنت صاحب الشأن ولك الخيار .

وعندئذ واجه مراد برأيه ، قال له :

- أنت تلعب يا مراد . . . وتظن أنك تشغلنى عن مشاكلى . . . فقاطعة مراد معاتبا :

- وهل تلومنى على ذلك .

قال محمداً :

- بصراحة أنا لا أصدقك . . . ولقد قبلت منك اقتراح السفر ، لأننى شعرت باهتمامك ، ولأن السفر قد يفيدنى فعلاً . . . ثم أعجبتنى لهجتك المرحية وأنت تقول لى ان ما تعرضه على هو طريقة مبتكرة لتخلص من نفسى ، أعجبنى مرحك وحماسك كما أعجبنى أكثر خيالك ، تستطيع أن تقول انى ما قبلت اقتراحك بالسفر الا كنوع من الرد على تلك الدعاية المرحية الخيالية التى ابتكرتها حتى تدفعنى الى السفر الى مصحة للعلاج .

ابتسم مراد وردد وقد لمعت عيناه :

- اذهب أولاً الى زيورخ ، وسوف ترى .

قال معاتبا له على محاولة التماذى فى الخيال :

- سوف أرى ماذا يا عزيزى . . . أنا أتحدث معك الآن حديثاً جاداً . . .

قال مراد والابتسامة لا تفارقه :

- وأنا أيضا •
فصاح :

- اسمع يا مراد •• أنا لا أقبل الاستمرار في اللعب على هذا النحو •• الأمر كما أتصوره سخفا في سخر •• خيالا فجا •• فما هي تلك المؤسسة التي تقوم بمثل هذا العمل الخرافي ، وكيف لم يكتشف أمرها ، ولم يحدد أحد المواقع السياحية التي يذهب زبائننا إليها •
قاطعه مراد مهاجما :

- اسمح لي أن أقول لك ان حياتك في مصر قد حددت أفق تفكيرك وحصرت معلوماتك في مجال ضيق •• لقد تطورت الحياة ووسائل العيش ونفذت الى مجالات لم يحلم بها انسان من قبل •

والنقط مراد انفاسه وأردف :
- وعلى أية حال •• اذا أردت ان تلغى المشروع •• فافعل •• فهذا شأنك ••
حيرته كلمات مراد وقال مترددا :

- ولكن من يقبل ان يذهب الى مكان لا يعلمه ويخاطر بدفع نفقات السفر •• وكيف يعيش •• وكيف يترك أحواله وأمواله معلقة •• ولا أحد يستطيع ان يتصل به •• ولا هو يستطيع ان يتصل بأحد ••
فقاطعه مراد :

- لك أن تعود وقت أن تشاء ، فأنت حر •• وفكرة المشروع قائمة في أساسها على احترام حرية الانسان ، واعطائه الحق كاملا في أن يتخذ قراره وحده دون مؤثرات خارجية من أحد ، فعندما تنقطع صلتك بالناس ، ستكون أنت وحدك صاحب الرأي وصاحب القرار ، في تحديد موعد العودة وموعد استئناف الاتصال • صدقني يا يوسف ان هذا معنى كبير في حياتنا ، ولقد أدركته عندما عزلتني شروتي عن الناس ، وجعلتني أعيش وحدي ، تحاصرني الأطماع ونظرات الحسد والوان النفاق والكراهية والتذال ومحاولات الخداع والنهب والسلب ، وسط هذا الحصار البغيض كنت أستفيد من انقطاع الصلة ، لأختار وحدي بمفردى قرار الاتصال بمن أريد الاتصال به ، أنت يا يوسف أكبر شاهد على صحة ما أقول ، فانا الذي اتصل بك عندما أجيء الى القاهرة ، وأنا الذي أسعى اليك ، وعندما أغيب تنقطع الصلة بيننا ، أنت لم ترسل لي خطابا واحدا في حياتك ، لم تطلب مني طلبا واحدا في حياتك ، وأنا ألجأ اليك كصديق •• بل الصديق الوحيد الذي أحفظ به في هذه الدنيا ، ولهذا كان من حقى أن أحاول انتقاذك من متاعبك •• وان أدلك على هذه السياحة الحديثة ، التي تعالج النفس وتجدها ، وتؤهلها للعودة من جديد لاستئناف اتصالاتها بالناس ، وقد أخذت فرصتها من الراحة والسكينة النفسية •

همس كأنه يخاطب نفسه :

— مازلت غير مصدق .. نفسي تحدثني أن ما تقوله ليس أكثر من ترديد لعبارات قرأتها في نشرة سياحية .

قال مراد باسم :

— مؤسسة « د . س » ليس لها نشرات .. ومع ذلك ..

وتوقف مراد ، وقد اختفت الابتسامة من وجهه وقال :

— ربما أنا أضحك عليك .. ربما كان هذا كله تخريفاً في

تخريف .. ربما أنت مسافر في الحقيقة الى زيورخ لبعض

الوقت ثم تعود .. ولكن ربما يكون الأمر ليس تخريفاً ..

وليس مجرد رحلة الى زيورخ ، وأنها بالفعل مغامرة فريدة في

نوعها .. وعليك أن تقرر بنفسك ، إذا أردت أن تقبل هذا

الذي لا تصدقه الآن .. فيكفي أن تمضي في رحلتك الى زيورخ

وهناك ستكون في موقف أفضل للقبول أو الرفض .

قال وهو يراجع كل كلمة يسمعها كما لو كان يراجع كشف

حساب يكلفه أعباء مالية باهظة :

— وماذا لو أن نقودي نفدت قبل أن تحين الفرصة للتدبير

أمرى وأتخذ قرارى ..

قال مراد :

دعك من نغمة التشاؤم هذه .. وثق أنك سوف تتخذ قرارك

بأسرع مما تتصور .

تنبيه يوسف وقد لاح في الأفق لون آخر غير لون الصحراء ،

وظهر ما يشبه على وجود بعض المباني القليلة ، فديق النظر

ليكتشف أن السيارة مقبلة على أرض خضراء .

سأل في لهفة :

ما هذا ؟

قال السائق :

— هناك تقيم يا سيدي .

فسأل في قلق :

— وحدي ؟!

قال السائق :

— هناك كثيرون .. ولابد أنهم في انتظارك يا سيدي ..

ردد شاردا :

— في انتظاري .. لماذا في انتظاري ..

قال السائق :

— أعني أنهم يتوقعون قدوم ضيف جديد .

أهو مقبل على ناس ، ومجتمع ، أى ناس ، وأى مجتمع ،

يذا له أنه تورط في لعبة لا معنى لها ، لابد أن يعود الليلة ،

فليس هذا هو المكان الذي كان يحلم به ، صحيح أن الهدوء هنا

مضمون ، ولكن مثل هذا الهدوء كفيل بأن يثير زوابع كثيرة

في أعماقه .

منذ أن أسستيقظ في الهليوكبتر والذكريات تهاجمه ، أن

السيارة تنطلق به في هذه الأرض المجهولة ، نحو تلك المباني

الغامضة القائمة عند الأفق ، بينما خيالاته تنطلق به الى عالم

الذكريات ، فهل يجد راحة نفسه وهو موزع مشتت بين

النقيضين ، المجهول والذكريات ، لا شيء يريح النفس مثل الهرب الى مكان صاخب ممثلي بالمضجيج والحركة حيث يتشغل عن نفسه بما حوله .

كانت السيارة قد بلغت حافة الأرض الخضراء ، بساط من الحشائش الخضراء يخترقها طريق الأسفلت في نهايته ، على امتداد البصر مبنى أبيض كبير من طابقين ، وخلفه أو حوله بعض المباني الصغيرة المتناثرة .

وهتف يأمر السائق :

قف .

قالها في فزع ، وكأنه يمنع السيارة من الاصطدام بجدار لا ينتبه السائق اليه ، وتوقفت السيارة في الحال ، وقال مخاطباً السائق :

انتظر .. ربما طلبت منك أن تعود بي ..

ظل السائق صامتا جامدا مكانه ، بينما فتح هو الباب ، وهبط الى الطريق وتحسس الأرض بقدميه ، وعبر الأسفلت الى الرمال على جانب الطريق .. الرمال ممقدة الى ما لا نهاية سوى هذه الأرض الخضراء المتبسطة التي كادت السيارة تتقدم فيها الى المباني القابعة في نهاية الطريق .

وشعر برغبة غير عادية تتملكه في أن يتحنى ويلمس رمال الصحراء وجلس القرفصاء ، ومد يده وأمسك بحفنة من الرمال ، وارتجف جسده ، انها ليست رمالا ، هذا تراب ،

جعل يغترف بيديه يبحث عن الرمال بين التراب فلا يجد الا التراب ، تولاه الهلع ، كيف أخطأ وظن أنها رمال ، كيف توهم انها صحراء ، هذا تراب ، ولو أمطرت لتحول الى طين .

مشى كأنه يجري وسط التراب ، يريد أن يتأكد ، ينحني ويفحص ، ويقبض حفنة وراء حفنة ، ثم يتركها فينساب التراب بين أصابعه ، وعاد لاهثا حتى وصل الى السائق وأطل عليه من الخارج وقد وضع يديه يستند بهما على نافذة السيارة وصرخ :

هذا تراب .

ولم يجبه السائق ، ظل جامدا مكانه ، فأدخل يديه من نافذة السيارة وبسط كفيه أمام عيني السائق وهو يردد منفعلا :

تراب .. أرض بور .. تراب .. قلت لك تراب .

تمتم السائق بصوته البليد :

نعم يا سيدي ، تراب .

فصاح :

ماذا تعني بنعم هذه ؟

قال السائق محتفظا بالهدوء ورتابة صوته :

هذا هو ما تريده يا سيدي .. فليكن ترابا كما تشاء ..

نظر الى السائق طويلا .. وهو يقول لنفسه :

أمر حارس عملاق

الى السيارة وهي تقف عند البوابة الحديدية ، وفتح الباب داعياً يوسف منصرفاً للهبوط ، تردد يوسف قبل أن يغادر السيارة ، فالبوابة بعيدة عن المبنى الأبيض من طابقين فوافذه الصغراء أغلبها مغلق ، هل يمشى مئات الأمتار في تلك الحديقة الكبيرة ومعه حقائقه ، رفع عينيه الى وجه الحارس ، عيناه خضراوتان واسعتان ، أشقر الشعر يغطيه بقبعة رمادية أشبه بالبيزيريه ، من نفس لون القميص والبفطلون .

وهمن يوسف إذ لم يقو على رفع صوته :
- ألا تدخل بنا السيارة ؟!

قال الحارس بلهجة مؤدية ولكنها حاسمة :

- تفضل يا سيدي .. ممنوع دخول السيارات حتى لا تزعج النزل ..

أراد يوسف أن يحتج ، ولكنه تراجع ، وأقنع نفسه أنه قد يكون من الأفضل أن يستسلم لكل ما يطلبونه منه في هذه الفترة القصيرة التي سيقضيها في هذا المكان ، لا داعي لأن يقضى وقته بين الاحتجاج والصراخ والغضب وابداء الدهشة ،

- أعلم أنك ممنوع من الادلاء بأية معلومات .. والا فقدت وظيفتك ..

لعل هذا هو مفتاح اللعبة ، أن يشغل نفسه بمحاولة كشف سر هذا المكان ، وبذلك ينشغل عن نفسه وعن أحزانه وهمومه ، انها لعبة معقدة ، غاية في السخف ، ومع ذلك فهي تتحداه ، ولا بأس أن يشغل نفسه بها بعض الوقت . حتى هذا المساء ، يلقي نظرة سريعة على هذا المكان ، يتقدم في هذه الأرض الخضراء ، حتى ذلك المبنى ، ويرى ما به ويرى أولئك الذين يتوقعون قدومه .

وركب السيارة . وما كاد يغلق الباب ، حتى انطلق السائق بالسيارة متقدماً الى المبنى في نهاية الطريق الأسفلت .

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

ولكن هناك مشكلة لأبد من مواجهتها .. حقائبه الثلاث
في نفس اللحظة التي فكر فيها في الحقائب ، سمع الحارس
يقول له انه سيجد حقائبه في انتظاره بحجرتة ، وقاوم مخاوفه
بصعوبة ، انه لا يثق في كلام الحارس ولا يطمئن اليه ، ويزيد
من مخاوفه انه لا يستطيع أن يتصور أو يتحمل كارثة فقدان
حقائبه ، لأمر ما أصبح ارتباطه بها أقوى وأعمق من مجرد
احتياجه لما في داخلها ، كأنها أصبحت جزءا منه .

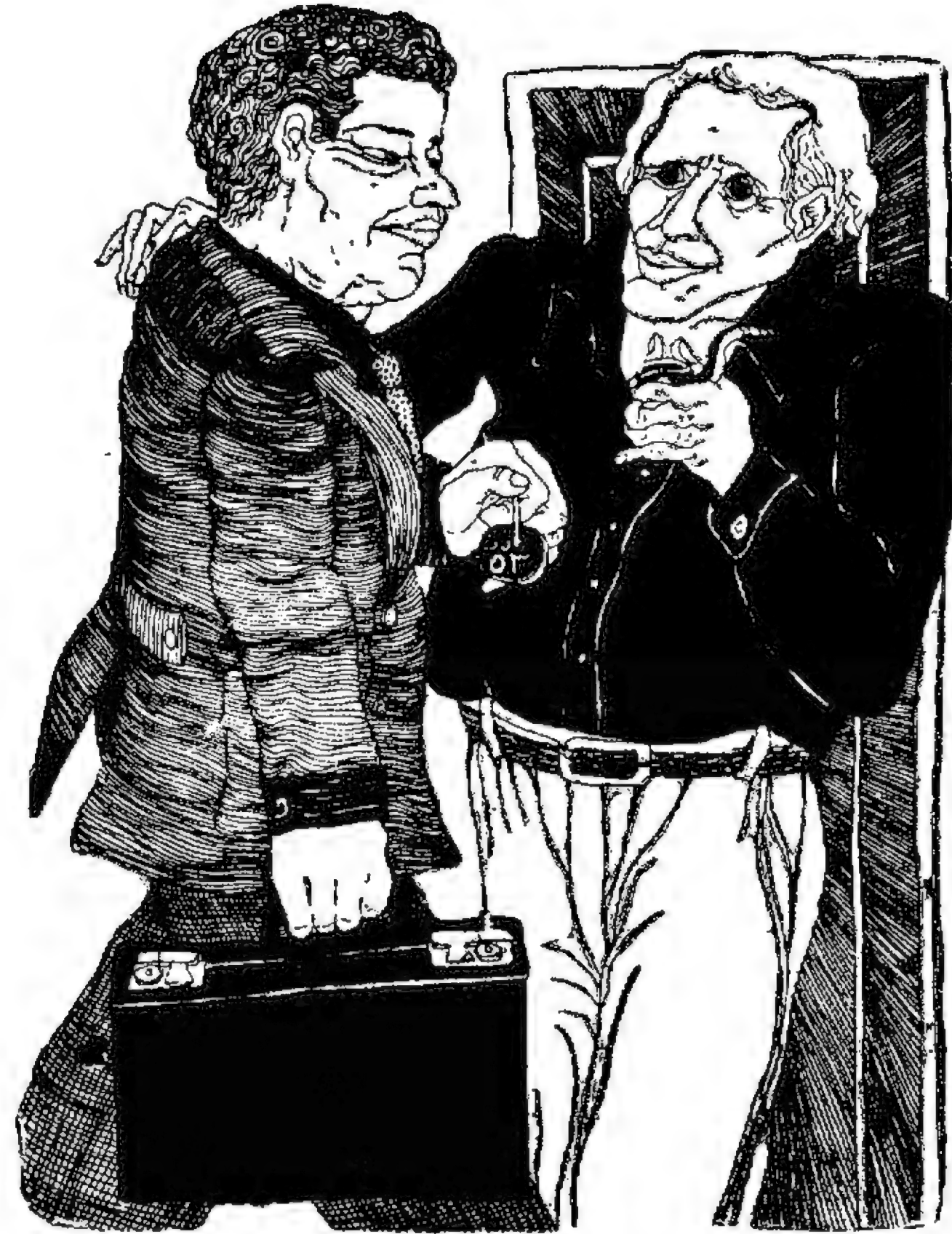
التفت يوسف الى السائق الذي هبط بدوره ، وهمس وقد
عجز تماما عن رفع صوته :

- هل تأتي معي بالحقائب ؟!

لم يجب السائق ، بينما أشار الحارس العملاق الى باب
جانبي صغير في البوابة الحديدية الكبيرة المغلقة ، وقال
بلهجته المؤدبة الحاسمة :

- تفضل يا سيدي .. انهم في انتظارك ..

ألقى يوسف بنظره عبر الفتحات في الحديد المشغول على
الحديقة ، وأشجارها وأحواض الورد والزهور والممر الذي
يقضي الى المبنى في نهايته ، ودفق من الباب الصغير ورجفة
تسرى في جسده ، لعلها رجفة الخوف من طول المشوار ،
سار بين الخضرة على الممر المغطى بحصى صغير يحدث صوت
احتكاك خفيف كأن شيئا ما يتهشم تحت قدميه ، وانتابته
نفس الرغبة التي دفعته من قبل الى أن يفحني على الرمال
ويمسك بها ليكتشف أنها تراب ..



أراد أن يلمس الحصى تحت قدميه ، وأن يلمس جنوع الأشجار على جانبي المشى ، وأن يلمس الحشائش ، والورد والأزهار بألوانها الزاهية ، لم يعد واثقا فيما تراه عيناه ، ما يدريه أن هذا الذى يحيط به ويمتد تحت قدميه ، ليس هو نفس الشيء الذى يتوهم أنه يراه بعينه ، ولكن أممكن هذا ، أن تكون هذه الأشجار ليست أشجارا ، مجرد منظر مصنوع من الخشب أو الورق مثلا . . . كذلك المناظر التى يعدونها فى ستوديوهات التصوير بالتليفزيون ، لماذا تهاجمه وتحاصره مثل هذه الخواطر المجنونة ؟

وتتقدم خطوة الى شجرة كافور ليلمسها ، ولكنه قبل أن يصل اليها رأى بعض الرجال يجلسون على مقربة منها حول مائدة خشبية على يمين المشى ، رعوسهم تحوه ، فوجئ بهم ، فتعثرت خطواته ، أراد أن يحيدهم ، ولكن نظراتهم بدت جامدة ، لا تشجعه على أن يلقي عليهم السلام ، ولكنهم بكل تأكيد ، رجال ، بشر ، انس ، وهو لن يجازف بأن يذهب اليهم ويلمسهم ليتأكد انهم ليسوا تماثيل ، وحث السير مبتعدا عنهم ، وقد اشتد صوت الحصى . . . يحتك أو يتهشم تحت قدميه ، وقال لنفسه : انه لو التفت الى الوراء ، فسيرى عيونهم تلاحقه ، كان ظهره منكمسا كأنه يتقى وخز نظراتهم ،

وواصل السير لامتا ، حتى وصل الى المبنى الأبيض .

جناحان كبيران يتوسطهما باب رئيسى على جانبيه عمودان من الرخام الأبيض يحملان فوقهما مثلثا من الجبس الأبيض داخله نقوش زخرفية لدوائر متشابكة يتوسط كل دائرة نقطة سوداء لعلها من الأينوس . أو لعلها عيون آلات تصوير . أو لعلها عيون كائن عجيب .

كان الباب بين عمودى الرخام من الزجاج السميك ، وكان مغلقا ، وقبل أن يمد يده كان قد انفتح ، ودلف الى بهو يرتفع سقفه على أعمدة رخامية ، ويغطي أرضه بسباط رمادى ، تناثرت فوقه مقاعد وأرائك من الجلد الأخضر الزيتونى . فى حلقات تفصل بينها الأعمدة الرخامية . وهناك فى أقصى اليمين لوحة من الأينوس الأسود تتدلى من السقف مكتوب عليها « الاستقبال » ، يقف تحتها رجل قصير بدين يكاد يشبه سائق السيارة ، كأنه شقيقه التوعم . لولا أنه أصلع ، يرتدى ملابس سوداء .

كان واقفا خلف حاجز خشبى أمامه طاولة عليها دفاتر وأوراق وجهاز لشبكة اتصالات تليفونية ، وخلف الرجل أرفف من الخشب « الماهوجنى » مقسمة على هيئة مربعات كصناديق بلا غطاء مثبتة فى الجدار يتدلى من بعضها مفاتيح ، ومثبت أسفل كل مربع خشبى لوحة معدنية صفراء عليها رقم مكتوب بحروف حمراء .

كان البهو خاليا ، يسوده الصمت ، ولاحظ وهو يسير على

البساط الرمادي ، أنه لم يعد يسمع صوت التهشيم والتكسير تحت قدميه ، وأسرع إلى الرجل القصير البدين الأصلع ، وقد تملكته رغبة غير عادية في أن يلمس الحاجز الخشبي الذي يقف خلفه الرجل ، وأن يتحدث مع الرجل ، وأن يثبت لنفسه بسرعة وبلا أدنى إبطاء ، أن يراه بعينه ليس وهما ولا خداعا .
ظل الرجل القصير البدين الأصلع يحده بنظرات جامدة غبية ، لا تتفق مع اللفظة التي يقبل بها عليه ، فلما لمس يديه الحاجز الخشبي ، كان مرهقا إلى درجة أنه تهالك على الحاجز ، ولولا أن أيقن أنه بالفعل حاجز خشبي لسقط مغشيا عليه .

ورأى شفتي الأصلع تتحركان فجأة وسمعه يقول :

— حضرتك الأستاذ يوسف منصور ؟

قال وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة :

— نعم .

أراد أن يسأله كيف عرف أنه هو ، أراد أن يصافحه ليلمسه ، أراد أن يثرثر ليخرج من صمته ، ولكنه عجز عن بذل الجهد والقاء الأسئلة .

وسمع الأصلع يقول :

— كل شيء معد .

وتحرك بجسده القصير البدين مستديرا إلى الحائط خلفه ، ومد يده إلى مفتاح يتدلى من مربع خشبي ، رفعه ولوح به أمام عينيه ، مشييرا إلى الرقم المدون على اللوحة المعدنية

الصفراء أسفل المربع ، وقال وهو يقدم له المفتاح :

— ثلاثة وخمسون .

دوى الرقم في أذنيه ، ثلاثة وخمسون ، واشتدت قبضته على المفتاح والقرص المعدني الموصول به يحمل الرقم .
وهمس سائلا الأصلع :

— هل تريد مني أن أكتب لك بيانات ؟

قاطعته الرجل قبل أن يكمل :

— لا . . . البيانات التي عندنا تكفي . .

فوقف حائرا ، أراد أن يسأل عن شيء هام ، ولكنه أفلت من ذاكرته . لقد أريته معاملة الأصلع ، وفاجأه هذا الاستقبال الهادئ الواثق . كل شيء معد ، والرجل يعرف اسمه ، ولا يحتاج إلى بيانات عنه . ثم هو يقدم له مفتاحا له رقم يتفق صدفة مع سنوات عمره . أو ربما أراد الرجل عن عمد أن يداعبه ، مقدما عرف من البيانات الكافية التي عنده أن القادم في الثالثة والخمسين ، قرر أن يعطيه مفتاح الحجرة الذي يحمل نفس الرقم . ولو صح هذا فهي دعاية سمجة ، فمن يريد أن يتذكر هذه السن ، ألا يكفي ما يلاقه من زينب . . لا تنس أن بيني وبينك ربع قرن . . بينهما عشر سنوات ، ولكنها تصر على فارق ربع القرن . وتذكر الشيء الهام الذي أراد أن يسأل عنه . الحقائق . . نعم الحقائق ، زينب ذكرته بالحقائب . وفاجأه الأصلع قبل أن يفتح فمه :

- حقائبك يا سيدى فى الحجره •
وأشار الرجل بيده فى اتجاه الى يمينه قائلا :
- تفضل :
سال فى حيرة :
- الى أين ؟
قال الأصلع :

- المصعد الى اليمين •• الطابق الثانى حيث تجد حجرتك
اول الممر •

كان لابد أن يتحرك • ويعود الى صمته ، فتلفت حوله ••
وسمع الأصلع يقول له :

- اذا أردت أى شىء يا سيدى تستطيع أن تطلبه عن طريق
التليفون فى حجرتك •• ان سيدى يحتاج الى الراحة بعد
رحلته الطويلة •
فقال ضاحكا يخفى قلقه :

- كم كان طولها •• أين نحن الآن فى خريطة العالم ••
قال الأصلع وايتسامة عريضة على شفثيه :

- صدقنى يا سيدى - لا أحد هنا يعلم •• فالشركة التى
نعمل بها •• أخذت كل الاحتياطات ليظل هذا الموقع السباحى
مجهولا •• انهم يعتبرون هذه السرية هى رأس مالهم
الحقيقى ••

قال وهو يقاوم غيظا مكبوتا ، لولا الارهاق لكشف عنه :
- ولكنى واثق اننا فى بلد عربى •• انتم تتكلمون العربية ••
قال الأصلع :
- الشركة لها مواقع كثيرة •• وقد اختارت لهذا المكان من
لهم صلة بالبلاد العربية ••

فسأله وقد حول ما يشعر به من غيظ الى رغبة فى التحدى :
- هل هناك قيود على الحركة فى هذه المنطقة •• هل هناك
ما يمنع من القيام برحلات استكشاف •
قال الأصلع :

- أبدا •• تستطيع يا سيدى أن تتحرك كما تشاء ••
فسأله :

والعملة التى نتداولها هنا ؟ •
فقاطعه الرجل :

- سيدى لا يحتاج الى عملة •• كل ما تطلبه يقدم لك ••
قال غير فاهم لما يسمعه :

- وكشف الحساب •• كيف يسدد ؟ •
قال الرجل بسرعة :

- اطمئن يا سيدى •• ان مصاريف رحلتك مدفوعة
بالكامل ••
قال فى دهشة :

تقصد الألف جثيه ..

قال الرجل :

- ان السيد مراد حسنين قد غطي هذه المصاريف الى اجل

غير محدود ..

اراد أن يحتج • أن يعترض • ورأى نفسه يهجم على مراد حسنين ويخنقه ، أو يصفعه أو ييضق في وجهه ، انه لا يطلب منه مساعدة ، ولا احسانا ، وليس من حقه أن يورطه في تصرفات مالية دون أن يستأذنه ، انه يهينه إذ يتصرف معه كملبونير لا كصديق •

ورفع صوته لأول مرة قائلا :

- على أية حال • لن أبقى هنا طويلا ••

ثم أردف قائلا :

- وقد أغادركم •• الليلة ••

قال الأصلع :

- حسنا يا سيدى ••

فسأله فجأة •• وهو يفكر في مراد حسنين •

- أليس هنا شرطة •• أو إدارة •• أعنى سلطة من

أى نوع ••

قال الرجل باسم :

- لسنا بحاجة الى شرطة يا سيدى •• وما الداعى الى

السلطة بين سائحين محترمين يقضون أجازاتهم •

قال غير مصدق :

- قد تحدث جريمة •• أو يقع حادث •• البشر هم البشر في

أى مكان ••

قال الأصلع في هدوء غريب :

- لا شيء يحدث هنا يا سيدى ••

في هذه اللحظة ، رأى يوسف رجلا متوسط القامة يتقدم نحوهما ، شعره رمادى • عيناه رماديتان ، في خده الأيسر ندبة حمراء • خدش دام ، وبادره الرجل بلا مقدمات مخاطبا إياه بالفرنسية :

- بونجور مسيو •

رد التحية بسرعة • وكأنه يخشى أن يكون قدوم هذا الرجل

وظهوره المفاجئ قد أفقده النطق •

وسأله الرجل :

- هل أنت جديد هنا ؟

أجاب بسرعة :

- نعم •

قال الرجل بأدبه مجاملا :

- هذا واضح •• وأرجو لك اقامة مريحة •

ثم أردف بسرعة وكأنه يسحب كلماته السابقة معتذرا

عنها :

- وان كنت لا أثق في أن هذا المكان يستطيع فيه انسان أن يستريح .. هل تلعب يا سيدى لعبة معينة ؟
لم يفهم ما الذى يعنيه الرجل بسؤاله . ولكن السائل لم ينتظر الاجابة ، اذ واصل كلامه :

- أنا ألعب الكروكيه .. هل تلعبها .. انها اللعبة المناسبة لنا .. وسوف تتعلمها بسرعة .. لابد أن تتعلمها .. لا مفر .. فهى المخرج الوحيد من هذا العذاب الذى نعيش فيه .

واحتقن وجه الرجل وانفجر صارخا :
- انهم كلاب .. كلهم كلاب .
وهنا تدخل الأصلع من خلف الحاجز الخشبي هامسا بصوت هادئ . جعله يتذكر صوت قائد السيارة قائلا :
- لا تغضب يا مسيو كوستا .

فدق كوستا الأرض بقدمه يفرغ شحنة انفعال لا يتحملها هاتفا بحرقة :

- أنا مجنون أن أرى بالبقاء هنا .
ثم التفت كوستا اليه وقال محاولا كبت انفعاله :

- آسف يا سيدى .. ما كان يجب أن أغضب أمامك .. ولكن ماذا تتوقع من هذا الحصار المفروض علينا .. يجب أن أحذرك .. فلا فائدة من خداع أنفسنا .. اننا محاصرون .
همس يوسف وقلبه يخفق :

- ماذا تعنى يا سيدى ؟!

فنظر اليه كوستا نظرة طويلة . قبل أن يقول وعلى شفثيه ابتسامة اشفاق أو رثاء :

- أعنى الكثير .. أقول لك .. انقذ نفسك واربط بلعبة على الفور .. اذهب الى ملعب الكروكيه ولا تغادره .. هناك فى الملعب الأول ستجدهم يلعبون ليل نهار .. صورة رائعة للعبة . شئ يفوق الخيال .. أنت والكرة والمضرب تصبحون شيئا واحدا .

وهنا سعل الأصلع خلف الحاجز الخشبي . ولعله أراد أن يتدخل فى الحديث . اذ أسرع يقول بالفرنسية :

- مسيو لا يعرف اللعبة .. ولكننا مستعدون لتقديم كل ما هو ضرورى ليتعلمها .. المطارق .. والكور .. والتدريب

لم يفهم ماذا يتحدث عنه الأصلع . ولا ذلك الذى يتحدث عنه كوستا . ووجد لسانه ينطق بكلمات سريعة :

- لست بحاجة الى هذا .. فغالبا سأعود الليلة .. وربما فى الصباح الباكر على أكثر تقدير .

وهنا صرخ كوستا فى وجهه :

- هذا هو بالتحديد ما أردت أن أحذرك منه .. أنت لن تغادر هذا المكان .. ولم أسمع عن أحد جاء الى هنا وغادره . فقال الأصلع محتجا :

- مسيو كوستا .. تستطيع أنت أيضا أن تعود مع مسيو منصور .

فصرخ كوستا في وجهه :

- اخرس يا كلب *

وأمسك يوسف من يده * وجذبه قائلا :

- تعال معي * ان ضميري لن يسمح لي بأن أتركك تتعذب

كما تعذبت أنا *

سار مستسلما ليد كوستا التي تجذبه * وألقى نظرة خلفه

فراى الرجل الأصلح قد استرجع وقفته الجامدة * ونظراته

الغبية * كأنه لا يعنيه شيء * وسار به كوستا الى ممر يقضى

الى باب ، خرجا منه الى حديقة خلفية للمبنى *

ووقف كوستا عند عتبة الباب بعد أن خرجا * وقال

متفعلا :

- أنا كوستا جوانيدس *

قال له :

- وأنا يوسف منصور *

قال كوستا :

- أنا أيضا من مصر * ولدت في الابراهيمية بالاسكندرية

وقد جئت الى هنا بعد الزلزال الذى حدث في «ايتاكا» كنت أزور

أبى وأمى * بعد أن عادا اليها * وكان أبى قد شيد بيتا

صغيرا يشرف على معصرة الزيتون * وأشجار الزيتون *

كنت قد خرجت من البيت الى المرحاض الصغير في الحديقة *

تعودت أن أقضى به حاجتى * وقام الزلزال * مطرقة هائلة

هشمت البيت * كنت أجرى مع بعض القرويين قارى الأرض

تنشق أمامنا * رأيت المعصرة تنهار * ضاع البيت *

وضاع أهلى * وكان لابد لى أن أبحث عن مكان أستريح فيه

* عدت الى القاهرة * فوجدت زلزالا آخر استولى على

مصنع الكازوزة * زوجتى أقامت في الكنيسة * لم يعد

يهمها شيء غير الكنيسة * ابنتى تزوجت ورحلت الى كندا *

وجاء مراد حسنين *

همس يوسف غير مصدق :

- مراد حسنين *

سأله كوستا :

- أتعرفه ؟ !

قال يوسف بصوت مقحشرج :

- اذا كنت تعنى المليونير *

فقاطعه كوستا :

- نعم * هو الذى اشترى منى البيت * وشجعنى على

المجيء الى هنا * أهو الذى تعرفه *

قال يوسف :

- نعم هو *

صاح كوستا :

- اذن لا فائدة * لقد خدعك كما خدعنى *

قال يوسف محتجا :

- لا .. انه صديقي ..

قال كوستا في تصميم :

- اسمعني جيدا .. أنا يوناني .. رجل عملي لا أعترف
بغير الواقع لا أعرف مثلكم الاحلام والخيالات .. لقد عشت
في مصر .. واولو اختبرتني ستجدني ابن بلد أعرق منك .. لم
أعشق الا النسموان البلدي .. أنا أفهمها وهي طائفة .. ولقد
خدعك مراد حسنين كما خدعني .. وأنت لن تترك هذا المكان
.. ولا شيء تستطيع أن تصنعه .. سوى أن تتعلم اللعبة التي
سنذهب الي مشاهدتها الآن .

قال لكوستا محتدا :

- لا أستطيع أن أتفرج على لعب الآن .. أنا متعب وفي
حاجة الى بعض الراحة .

قال كوستا وهو يجذبه :

- لا راحة لك .. افهمني .. حتى تنسى نفسك في اللعبة .
فجذب يده يخلصها من قبضة كوستا . وقال :

- أرجوك .. لا تفرض على شيئا .

صاح كوستا في الحاح :

- أنا أحاول أن أخفف من عذابك ..

قال في حسم :

- آسف .. يجب أن أنصرف الى حجرتي .. ان حقائبي

تنتظرنى .

فقال كوستا وهو ينظر اليه في أسي :

- اني أرثي لك .. ولقد كان يسعدني أن أوفر عليك بعض
ما مرتت به .. ولكنك لا تقبل النصيحة .. ويخيل الى اننا
ما التقينا الا لتعرف مني .. ان مراد حسنين قد خدعك ..
وستكون هذه المعرفة أحد أسباب تعذيبك .. لقد حاولت أن
أختصر لك الوقت .. أن أفوت عليك فترة معاناة .. لا
يستطيع أي انسان أن يتحملها .. أردت أن أجعلك تبدأ اللعب
فور وصولك .. محاولة مجنونة وعقيمة كما أرى الآن ..
ولقد اندفعت في هذه المحاولة ظنا مني أنني أستطيع أن أحقق
بها تجربة مفيدة .. ولكني أعرف الآن .. أن اندفاعي كان
لهدف آخر .. وهو أن أنقل اليك المعلومات التي سوف تؤرقك .

لم يعد يتحمل مواصلة الاستماع الى كوستا .. أحثي له
رأسه وقال وهو يبتعد مسرعا :

- عن أدنك .. اسمح لي بالانصراف ..

قال كوستا وهو يهز رأسه حزينا :

- ربما نلتقي ثانية .. ولكن من يدري كم من الوقت سوف
يمر قبل أن أراك داخل الملاعب .. وقد نسيت كل شيء ..
الا الكور الخشبية والمطرقة التي ستضربها بها .
انطلق يوسف عائدا الى البهو .. واتجه الى الرجل
الأصلع البدين القصير عند مكتب الاستقبال .. وسأله :

- هل صحيح ما يقوله مسيو كوستا .. ان احدا ممن جاءوا الى هنا لم يترك المكان .
قال الأصلع وهو ينتفض خارجا من جموده وقد احتلت الابتسامة شفقيه فطردت نظراته الغبية :

- هذا ما يتوهمه مسيو كوستا .. أنت ترى يا سيدى أن حجراتنا محدودة .. وبين وقت وآخر نستقبل نزلاء جددا .. فكيف يتاح لنا ذلك اذا بقى الجميع هنا ؟
سأله يوسف وهو يتفحصه :
- أى أنهم يعودون .

قال الأصلع :
- نعم .. أنهم يغادرون هذا المكان .
ثم أردف قائلا :

- مسيو كوستا رجل عصبى .. سريع الغضب .. ولكنه طيب القلب ، وعندما تقابله فى المرة القادمة ستجده من أسعد الناس بهذا المكان .

فهمس محاولا أن يسيطر على أفكاره ومشاعره المضطربة :
- ولكنه يقول انه محاصر .. أو محبوس هنا ..
قال الأصلع :

- هو الذى يحبس نفسه لأنه يريد أن يعود الى بلده .. أحيانا يقول : أعدوا عودتى الى « ايتاكا » .. أحيانا يقول : الاسكندرية .. ثم يؤجل ويبدو يا سيدى أن لديه من المشاكل

ما يجعله يفضل البقاء حتى لا يواجهها .. ويكتفى بأن يلقي باللوم علينا .

أزعجته كلمات الأصلع . فتحرك مبتعدا . لا يريد أن يسمع المزيد . واتجه الى الممر الذى على يمينه حيث قال له الأصلع انه سيجد المصعد . أفضى به الممر الى قاعة صغيرة بها مقاعد من الجلد الأبيض حول موائد صغيرة من الأبنوس الأسود . ولا أحد بالقاعة . ورأى ثلاث درجات تفضى من القاعة الى ممر آخر طويل . صعد الدرجات ومشى فى الممر بضع خطوات حتى استوقفه صندوق زجاجى به شيكولاتة ويسكويت وحلوى مما يشتهيها الأطفال أو ما يشتهيها هو شخصيا .

وقف يتأمل قطعة شـيـكولاتة لها غلاف أزرق . أيمد يده ويفتح الغطاء الزجاجى ويأخذ الشيكولاتة . تلفت حوله فلم يجد أحدا يسعفه بنصيحة . فتنهد وقرر أن يؤجل المحاولة . خاصة وقد لمح باب المصعد على يساره . دخل المصعد . جدرانها من الخشب الماهوجنى . وكانت مرآة كبيرة تكسو نصف جدار المصعد .. تأمل فيها وجهه . نعم انه هو هو .. وجه يوسف منصور . مد يده ولمس بأصابعه سطح المرآة ورأى أصابعه فى المرآة . ثم تحسس وجهه وهو يراقب نفسه . ها هو يوسف منصور كما عرفه منذ أربع سنوات أو ثلاث . أهلا بك يا عم يوسف .

هكذا قال لنفسه ساخرا . ووجهه الساخر يطل عليه من

من المرأة • وضغط أحد الأزرار • فارتفع المصعد • وارتفعت معه المرأة • وارتفع وجهه الساخر الذى يطل عليه من المرأة • لو كان فتح الغطاء الزجاجى ومد يده وأخذ قطعة الشيكولاتة لراى نفسه فى المرأة الآن وهو يقضمها ويأكلها • ترى الى متى سوف يلزمه هذا الوجه • سنة أخرى • سنتين ثم يفترقان • كما افترقت عنه وجوه كثيرة كانت له من قبل • كلها كانت وجوه يوسف منصور • وكلها افترقت عنه • مثلما افترق عنه وجه حسن • وكان وجه حسن يشبه وجهه وهو صغير • • الولد يشبهك يا يوسف • • لم يأخذ من أمه سوى نعومة شعره من شابه أباه فما ظلم • ولكن حسن تنكر له • قال له : نسيت أبى • وقف المصعد وخرج منه الى ممر طويل مغطى ببساط رمادى • على جانبيه أبواب مغلقة • فحص اللوحات المعدنية المثبتة على الأبواب • لابد أن يقترب بعينه ليتأكد من الرقم •

وانفتح فجأة الباب الذى يكاد يلتصق به • ورأى أمامه وجهها عابسا يخرج من فمه غليون • تراجع مرتبكا أمام عيتين ضيقتين خرزتين فى وجه ضخم فوقه شعر أبيض غزير وأسفله فك بارز مستطيل • فك صلب ورقبة قصيرة تربط بين الرأس الضخم والمتكبين العريضتين • كان صاحب الغليون يرتدى قميصا أسود فوق سروال رمادى واسع منهول • جسمه ممتلىء بغير قرهمل • جسم قسوى وبشرة وجهه كالحة •

خرجت الكلمات من فم الرجل كأنها تنبعث من فوهة الغليون :

- حضرتك تبحث عن أية حجرة •
- رفع المفتاح فى يده وقال مرتبكا :
- ثلاثة وخمسون •

قال الرجل والغليون يهتز بين شفقيه مشيرا الى باب عن يمينه بيد معروقة :

- هنا •

شكر له • وهو يتجه الى الباب الآخر • ولكن صاحب الغليون لم يتركه سألوه وهو يتقدم خطوة معترضا طريقه الى الباب :

- هل أنت النزيل الجديد •
- قال :
- نعم •

قال الرجل وهو ينزع غليونه بيسـراه • ويمد يميناه لمصافحته :

- اثن نحن جيران • أسمح لى ان اعرفك بنفسى • • أنا كريم شاكر المحامى •

قال وهو يتلقى يد المحامى فى يده • ويشعر بضغطه قوية غير عادية على أصابعه :

- أنا يوسف منصور •

قال كريم شاكر • وهو لا يزال يهز يده يعنف والعروق نافرة في يده :

- سمعت اسمك من قبل • أظن قرأت لك رواية •• أو شاهدتها في التلفزيون ••
تذكر فجأة أنه معروف وله شهرة تلفزيونية فهمس :
- نعم ••

قال كريم شاكر • وقد أطلق أخيراً سراح يده • وامسك بالخليون في اتجاه فمه استعداداً لأن يثبت بين شفتيه في أية لحظة مناسبة :

- هذا مكسب كبير لنا يا أستاذ • نحن هنا عائلة واحدة •• وسوف يفرح الجميع بوجودك بيننا •• واسمح لي أن أعبر باسمهم جميعاً عن سعادتنا بانضمامك إلينا •
وهنا وصل الخليون إلى الشفتين في ثقة • كأنه عمدة المكان الذي يعرف أهميته ويفترض أن الآخرين معترفون بأهميته •
ما كاد الخليون يستقر بين شفتيه • حتى أسرع بإبعاده ليكمل بلهجة من يتحدث في أمر خطير • فقد خفض صوته •
وأخرج الكلمات وقورة فحمة :

- من حسن الحظ أن نلتقى الآن •• لأنني أرى أن من واجبي أن أشرح لك بعض الأوضاع القائمة هنا •

وتجراً كريم شاكر فقال وهو يضغط على الحروف محذراً :
- هذا ضروري لمصلحتك •• وحتى لا تحدث مشاكل •

قال مرتبكا :

- مشاكل ، أي مشاكل تعني ؟ !

قال كريم شاكر وهو يعيد الخليون إلى فمه • فيخفف من قهقهة عريضة انطلقت من فمه :

- هذا أمر يطول شرحه •• ادخل الآن حجرتك •• وبعد أن تستريح ساقابلك في قاعة الدومينو •
سأل في غير فهم :
- الدومينو ••

رفع كريم شاكر رأسه في كبرياء •• وارتفع الخليون في فمه •• وارتفع حاجباه قبل أن يقول :
- لا أحد هنا يجهل مكانها •
وضاقت عيننا كريم شاكر وسأله متفصلاً :
- هل قابلت أحداً غيري هنا ••
قال :

- نعم •• مسيو كوستا ••

زادت عيننا كريم شاكر ضيقاً • وزاد بروز نقنه • واستطال الخليون الذي يخرج من فمه •• وقال باستخفاف :

- أرجو ألا يكون قد أزعجك ••

قال محاولاً أن يتخلص من أي تورط في أمر يجهله :

- على أية حال •• لا أظن أنني سأمكث هنا أكثر من هذه الليلة •

أفضل المفتاح

في ثقب الباب ، وأداره دورتين قبل أن
ينفتح ، فاستقبلته حقائبه الثلاث ، لم يسرقوها ، وأسرع
ينقلها إلى سرير عريض في الحجرة الواسعة ، وفتحها ليراجع
محتوياتها ، قمصانه ، ملابس الداخلية ، أربطة عنقه ،
جواربه ، وكتبه ، كل شيء يذكره بأنه كان يوما ما في القاهرة ،
وأنه كان يعيش مع زينب التي أنجبت له حسن يوسف منصور ،
وأنه كتب روايات ومسلسلات تليفزيونية ، وأنه كان مديرا له
شأنه في إدارة التحقيقات بوزارة التربية .

ترك محتويات الحقائب مبعثرة فوق السرير ، وجال ببصره
في الحجرة .

هناك مائدة مستديرة بجوارها مقعد وثير له مسندتان
عريضتان ، وعند الحائط الذي يواجه السرير منضدة تصلح
للكتابة ، والأرض مغطاة بالبساط الرمادي ، وعلى يمين
السرير ستارة عريضة رمادية ، أزاحها فرأى خلفها زجاج
نافذة عريضة وباب شرفة فتحه وأطل على الحديقة ، ليفاجئه
مشهد ملاعب مزدحمة برجال ونساء يمسكون بمطارق
خشبية ، يضربون بها كرات خشبية في حجم البرقالة الكبيرة ،

فمد كريم شاكر يده في قحة ووضعها على كتفه . وقال
بلهجة غريبة كأنه يسخر مما يسمعه :

ـ أرجوك لا تردد مثل هذا الكلام كثيرا .
هتف سائلا في احتجاج :

ـ لماذا ؟

قال كريم شاكر :

ـ انه يستفز النزلاء .. أعنى العائلة .

وأردف كريم شاكر وهو يصوب عينيه الخرزيتين .. في
عينيه قائلا :

وربما تقدم .

قال محتدا :

ـ لماذا أندم ؟

فتجاهل كريم شاكر سؤاله . وتمتم بكلمات ترحيب أخرى .
وقال : ان الحديث يحتاج إلى جلسة هادئة . وأنه مضطر
للانصراف الآن فليده موعد هام تأخر عنه .

وتركه أمام باب الحجرة يقرأ الرقم ثلاثة وخمسين .

لونها أحمر وأصفر وأزرق وأسود ، فتجري الكرات على بساط من الحشيش تصطدم ببعضها بعضاً ، أو تنفذ بين أقواس حديدية صغيرة مثبتة في أكثر من مكان بين الحشائش .

خلف الملاعب تقوم مبان صغيرة متناثرة ، وتنتهي الأرض الخضراء لتبدأ الصحراء من جديد ، تلال الرمال ، أو تلال التراب ، حتى الأفق حيث تلتقي السماء بالتراب ، حاول أن يتبين « كوستا » بين اللاعبين ، ولكن نظره الضعيف لم يسعفه ، انه بالكاد يرى الملامح العامة ، وحاول أن يستعيد ما قاله له كوستا ، فتذكر كريم شاكر ، وهو يحذره ويطلب منه في لهجة صريحة شبه أمرة أن يلتقي به ويستمع الى نصائحه حتى يتجنب المشاكل ، لم يسترح لشخص كريم شاكر ، بدا له أنه يفرض نفسه ، بلهجته وغلبيته ، وطريقته في الضغط بقوة على اليد التي يصافحها ، ثم هذا التصرف غير اللائق الذي أقدم عليه عندما مد يده ووضعها على كتفه ، متظاهراً بالأبوة ، أو بالسلطة أو بأنه الأكبر الذي يجب أن يحترمه الأصغر ويتقاد إليه .

همس يوسف لنفسه . . قال له : ربما نندم لأنك تفكر في مغادرة هذا المكان ، بأي حق يدعى لنفسه معرفة مشاعري أو مصلحتي .

وشعر بغصة في حلقه ، فترك الشرفة ، واتجه الى باب

ملحق بالحجرة يعرف بتجاربه السابقة في الفنادق أنه باب الحمام .

ولكن الباب أفضى الى حجرة صغيرة بها دولاب كبير للملابس ، ثم باب يفضى الى الحمام ، تأمل القيشاني الأبيض بزخارفه السوداء ، كان حوض الاستحمام كبيراً ، مثبتاً في الجدار . . فوقه صنادير الماء مزودة بخراطيم معدنية تنتهي برشاش على هيئة سماعة التليفون . والتفت الى حوض التسيل فوقه مرآة أطل منها نفس الوجه الذي صعد في مرآة المصعد ، تذكر أنه فيما مضى في حجرة بفندق « كلاريدج » في باريس ، أطل على وجهه في المرآة ، فرأى عيني عسلتين مضيئتين ببريق كله حيوية وتحد ، وتحسس بعد أن حلق نطقه بشرته الناعمة ، ومر بأصبعه على شفتيه يضغط عليهما ، وهو يقرر أن يعود في الليل الى حجراته والى هذا الحمام ومعه عادة فرنسية ، كان واثقاً من نفسه من طابع الحسن في نطقه ، واثقاً من كلمات أمه « اسم الله عليه . . اسمه يوسف . . وله طابع حسن يوسف . . » ولكن التي صعدت معه تلك الليلة كانت سائحة أمريكية ، كان في الثلاثين وكانت في الأربعين وربما أكثر ، كيف رضى بها ، كيف خدعته وصعدت معه ، لماذا لم يعثر على الغادة التي كان يحلم بها ، انه لا ينكر الآن ، سوى وجهها بتجاعيده . وكرمشة جلد بطنها ، وسخريته وقسوته وهو يقول لها انها عجوز شمطاء عندما

سألته اذا كان قد أعجب بها ؟! رأى فى عينيها دموعا جافة ،
وفجعية متجمدة .

نفس الذى يراه الآن فى عينييه تطلان عليه بلا بريق
ولا غسل ، البشرة مصفرة ، وطابع الحسن تلاشى فى تهدل
الذقن ، أما الرغبة والعناد فى الشفتين فهيهات أن يلتقى بهما ،
لقد فرا أمام الحريق الأبيض الذى زحف على شعره وانتشر
هنا وهناك ، آه يا يوسف . أتبكي وجهك الذى ضاع منك ،
كم من الوجوه ضاعت منك ، تخلت عنك . وما العمل ، هل
جئت الى هنا لتطل على وجهك فى هذه المرأة وترثى نفسك ،
وتذكر كوستا وهو يصرخ يا كلاب . ووجد نفسه يقلده
صارخا :

— آه . . آه . . يا كلاب .

انعشته الصرخة التى لم يسمعها أحد غيره ، انعشه ولو
لبعض الوقت هذا السباب يبدو أنه مفيد تطلق قذائفك فى هذا
المكان المجهول لتسقط على أى هدف ، تلتخ أى شيء ، تنسف
أى موقع ، تدمر ، تخرب ، تهشم . هذا يشعرك بالقوة ولو
لبعض الوقت .

عاد يصرخ وصورة كوستا لا تفارق مخيلته .

. . كلاب . . كلاب .

وزمجر فى وجهه الكئيب الذى يطل عليه من المرأة وهتف .
— أريد أن أفك بكم . . أفرسكم . .

يفتك بمن . أنه لا يستطيع أن يحدد ، أغلب ظنه أنه يريد

أن يفتك بكل شيء ، بالدنيا كلها ، ولكن وجهه الذى يطل عليه
من المرأة لم يشجعه على التمداد فيما هو فيه ، وجه تطل
منه عينا دموعهما جافة وفى نظراتهما فجعية متجمدة ، وجه
يتوسل فى مرارة ويأس أن يكون نقيًا طاهرا . . ملاكا . . مثلا
أعلى . . بطلا عظيما . . انسانا خالدا .

وانتفض على صوت يهمس فى أعماقه . . حذار يا يوسف . .
لا تكثر من الحديث مع نفسك فى المرأة . . أو فى غيرها . .
فهذا هو أسرع طريق للجنون .

أشاح بوجهه ، ليقطع هذا الحديث المجنون مع الوجه
المطل عليه ، وخرج هاربا من الحمام ، وعندما وصل الى
السرير فى الحجرة الكبيرة لم يستطع أن يتوقف فى اللحظة
المناسبة فاختل توازنه واصطدم بحافة السرير ، فتألمت ساقه
اليمنى ، وجلس على السرير وقد التهبت عيناه بسكين الألم
الذى ينفذ حادا قاسيا من ساقه الى رأسه ، ومسح بيده على
موضع الصدمة ورفع بنظرونه فرأى كدمة ، ضغط عليها
بأصبعه ، ثم نهض متثاقلا ينقل ما فى حقائبه الى الدولاب
الكبير ، وقضى بعض الوقت فى حركة آلية بين السرير
والدولاب . حتى اطمأن الى أن كل شيء فى موضعه
بالدولاب ، فخلع ملابسه ، ودخل الحمام ، وجلس فى
حوض الاستحمام ، وفتح صنوبر الماء فخرج ساخنا من
سماعة التليفون ، وعالج السخونة بصنوبر الماء البارد ،

حتى استراح الى درجة الحرارة فوضّح السدادة في الحوض ، واسترخى تاركاً الماء يتدفق ويرتفع ، وهو يراقبه يعلو في دوائر فتذبذب في تقدمها لتغطي ساقيه .
وقد ركز عينيه على أداة ذكورته وبطنه المتهيلة والشعر الأكثر تحتها ، وصوت حزين يردد في أعماقه ، الى متى يستمر هذا التحول المدمر لجسدي ؟! هذا الدمار يزحف كهذا الماء الذي يعلو ، ليقتضى عليك أو ليغرقك .

ثم عدل عن هذا الخاطر ، وأقنع نفسه بأن يرحب بالماء يغطيه ويستتره ويمنحه دفناً وراحة هو في أشد الحاجة اليهما .

بعد ان يسترخى تماما ، سوف يخرج من الماء ويرتدى ملابسه ، ويذهب للقاء ذلك الرجل الذي قابله عند باب الحجرة . ما اسمه . نعم . شاكر . كريم شاكر المحامي ، رجل مظاهر وادعاء ، ذلك الغليون الذي يشبهه في فمه خدعة كبرى . وابتسم للخاطر الذي تراءى له . كريم شاكر عاجز يعوض عجزه كرجل بابران غليونيه أمام كل من يقابله . أليس هذا هو ما يقوله فرويد ؟! لابد أنه قال شيئاً مثل هذا ، وأعجبه هذا الخاطر ، وتمنى لو يكون صحيحاً ، وتخيل نفسه وهو يلتقي بنزلاء هذا الفندق ويتحدث معهم عن اكتشافه الذي وصل اليه ، وتتناقل الهمسات ، وتتحول الى فضيحة ، تزلزل كيان ذلك الرجل المتعجرف ، فيبكي وينهار . ما الذي وأروع

الفضيحة التي تستطيع أن تدمر بها الرجل الذي لا تستريح اليه . انه لم يفضح انساناً من قبل ، كان عليه أن يتحمل هو الفضائح ، منذ زمن بعيد ، منذ كان صبياً والفضيحة تلاحقه ، الآن في هذا المكان المجهول الذي يبدو وكأن ليس له صاحب ، يستطيع أن يلهو ، وأن يفجر ، وأن يفضح ، وأن يرتكب الاثم الذي كان يخشاه ، ربما ارتكب الجريمة .

ان ذلك الرجل الأصـلح في مكتب الاستقبال يدعى أنهم ليسوا في حاجة الى شرطة أو قانون ، حرية كاملة ، كيف لا تنقلب الى فوضى ، سيثبت لهم أنه قادر على أن يفاجئهم بتصرفاته ، ولـسوف يدبر لذلك الرجل المقيت . . نعم انه يكرهه ، ويكره تظاهره بأنه العليم بالأسرار ، سيدين له فضيحة أو جريمة ، أى شيء يتحدى به كل ماضيه ، بل يتحدى به كل تقاليد يزعمون أنها سائدة ومرعبة في هذا المكان .

كان الماء يتدفق على جسده ، يزحف حثيثاً ليغرق بطنه ، عندما نظر الى سماعة التليفون وتمنى لو كانت سماعة حقيقية ، رأى نفسه يدير قرص التليفون طالبا رقم بيته وزينب ترد عليه ، زينب أنا هنا ، هل تستطيعين اللحاق بي ، نقضى معا شهر عسل جديداً ، مسكينة ، تحملته في شهر العسل ، الذي كان شهر نقاهة ، التيفود هتت بمعاثه فأجل موعد الزواج اسبوعاً ، بعد يومين من انخفاض الحرارة عقداً الزواج ، لا فرح ولا احتفال ، زواج عصرى ، المهر خمسة

وعشرون قرشا ، لأن الحب لا يقدر بمال ، ولأنه لا يستطيع أن يتحمل حضور لطيف صبرى زوج أمه مراسم العقد .

قالت له زينب وهو يرتدى يتصبب عرقا لاهثا خائرا بجوارها على السرير : لا تجهد نفسك ، المضادات الحيوية تضعف الجسم ، والطبيب قال انك فى حاجة الى راحة وفترة نقاهة لا تقل عن أسبوع ، نفس أسبوع العسل .

هذا الفندق ، وهذا الحمام أفضل بكثير من فندق الاسكندرية ، ما أسخف هذا الذى يفكر فيه ، كأن فخامة الفندق كفيلا بالقضاء على كل ما حدث بينه وبين زينب ، ليعترف لنفسه أنه ما فكر فى زينب الا لأنها المغامرة الأسهل ، فهى تعرفه ، وتعرف عجزه ، واهانتها له ليست بالشئ الجديد الفاجع ، ثم انه لقي معها متعة حقيقية ليلة سفره الى زيورخ ، لا يدري كيف حدث هذا ، ربما لأنها أرادت أن تقدم له شيئا ، بعد أن رفض أن تقرضه المال ، ربما لأنها صممت على أن يذكرها ، كما يفعل الآن ، أثناء غيابه وهى واثقة أنه عندما يذكرها ، سيذكر فى نفس الوقت ، انتصارها عليه فى معركة استقلالها ، هى التى علمت حسن أن يستقل ، أو ربما حسن هو الذى علمها ضرورة أن تستقل ، ربما وربما وربما .

ها هو مفعول زينب بدأ يحدث تأثيره ، فيبدد استرخاءه وراحته ، انه ما جاء الى هنا الا لينجو من زينب ، ليتة يدبر قرص تليفون فيطلب فتاة مجهولة صغيرة تساعد على نسيان كل هذا الذى يريد أن ينساه ، لا بأس أن تخدعه وتكذب عليه

وتقول له انها سعيدة برجولته ، الوهم مريح ، والخداع مريح ، وكفى عذاب المواجهة ، ما فائدة المواجهة بعد أن أدار ظهره لابنه حسن وهو جالس فى القفص الحديدى بقاعة محكمة الجنائيات .

من بعدها فهم معنى أن الكل باطل وقبض الريح ، الخير والشر سواء ، الحقيقة والكذب سواء ، كفاه ما عاناه من خداع الصديق ، ان هذا الماء الذى يزحف الآن الى صدره يستر جسده الذى يخدعه ، ولسوف يبدأ فى هذا المكان حياة جديدة سوف ينطلق انسانا آخر ، يفعل ما لم يفعله من قبل ، يتورط فيما لم يتورط فيه أبدا ، لن يتقيد بعرف أو تقاليد ، سيتمتع بكل مزايا هذا المكان الذى لا يعرف فيه دولة ولا جنسية ولا دستور ولا حاكم أو محاكم ولا أى شئ ربما كان هذا هو السبيل السليم لأن يعرف أين هو ، ومن هو .

نظر الى سماعة التليفون يتدفق منها الماء ، وهو يرى تلك الفتاة التى خرجت تجرى مندفة على درج التليفزيون فتتعثر وتتسقلب وتفتش الأرض ، فيعري جسدها البض ، وهو يتقدم لمساعدتها ، يرتجف خوفا مما فى أعماقه ، واثقا أن عينيه هما اللتان أسقطتاها وعرتا ساقها ، وأنه لو كان يتبع المنطق الطبيعى لهذه الظاهرة العجيبة التى حدثت بتأثير نظراته ، لهجم على الفتاة قبل أن تنهض من رقتها ، واستولى عليها ، فهى ملكه ، خاضعة لتأثيره ، ولكن ما فعله كان يختلف تماما عما يجيش ويفور فى أعماقه ، كان يبسم ويحوقل ،

ويبدى من مظاهر الأبوة والحنان والوقار لما صنع استقارا وحجبا أخفت أعماقه ، وأسرع هاربا من المكان أو هاربا من نفسه ، وقد ترك الفتاة للآخرين الذين تكاثروا من حولها ، وعندما ابتعد شتم نفسه ولعن الشيطان الذى يؤسسوس فى صدره ، انه مسئول عن هذا الصراع الدامى الذى يمزقه بين أبوة واشفاق ، وشهوة وافتراس ، بين بسملة ورجفة داعرة ، بين نظرة تسقط الجسد ، ووقار وحنان ينتشله من سقطته •

ما الذى يجمع بين هذه المتناقضات سوى ذلك الاناء الذى هو جسد الانسان ، عندما ابتعد عن الفتاة ومبنى التليفزيون بصق على الأرض مشمئزاً من حقارته ، ولكنه لم يصدق الشر الذى ظل كامنا متريصا ، يجعله يلتفت فى هوس كلما صعد أو هبط درج التليفزيون لعله يعثر على الفتاة مرة أخرى فيسقطها ، ومن يدري ، لعل الشيطان ينتصر هذه المرة •

ولكنه لم يجرؤ على أن يسأل عن تلك الفتاة ، ولم تسعفه الصدفة بأن يراها مرة أخرى ، ولعله لو كان رآها لما عرفها ، فقد طغى منظر ساقها العاريين على ما يذكره من ملامح وجهها ، وعندما لمست يداها ذراعها وهو يساعدها على النهوض ، فقد قدرته على البصر والسمع بضع لحظات •

وقد تركزت كل حواسه فى حاسة اللمس ، ان هذا الحادث يبدو له أحيانا وكأنه حلم • • مجرد أوهام تهاجم رأس رجل عجوز ، مثل هذه الأوهام التى تغالبه الآن بأن صنبور الماء قد يكون تليفونا حقيقيا ، يتصل به بمن يشاء ، أو بتلك الفتاة

التي لا يعرفها ، يطلبها فتلبى النداء •

وانتفض على صوت رنين جرس التليفون ، قام مفزوعا لا يصدق أنه يسمع ما يسمعه ، وانتثر الماء على بلاط الحمام متساقطا من جسده ، ومد يده الى منشفة كبيرة لفها حول جسمه ، وخرج مهرولا حيث التليفون بجوار السرير ، وامتدت يده المرتجفة الى السماعة ، أهى زينب ، أهى تلك الفتاة المجهولة جاءت له فى هذا المكان المجهول •

وسمع صوت الرجل الأصلع :

- هنا الاستقبال يا سيدى • • آسف لأزعاجك • • ولكن وجدت أن من المناسب تذكيركم بأن المكالمات التليفونية والرسائل الى الخارج غير مسموح بها طوال مدة الإقامة • هتف مذعورا :

- ما هذا • • لماذا تقول لى هذا الكلام ؟!

كان فى ذعره يكاد يصدق المستحيل ، انهم فى المكان يسترقون السمع للخواطر التى تجيش فى أعماق النفس ، والا فما تفسير هذا التحذير من التفكير فى المكالمات التليفونية فى هذه اللحظة بالذات وقد خلا لنفسه عريانا فى حمام مغلق يحلم بمكالمة تليفونية خرافية ليس فى مقدور انسان ان يعلم بها •

سمع الأصلع يقول له :

- غالبا ما يفكر النزلاء الجدد فى كتابة رسائل الى ذويهم

بمجرد وصولهم ولذلك نساغع بتبئهم حتى لا يشعروا بضيق أو نأعر نحن بحرج اذا ما كآبوا الرسالة أو طلبوا المكالمة التليفونية ثم نأظر الى ابلاغهم بأن هذا الطلب لا يمكننا تحقيقه .

صاح غاضباً :

- ولكنى أعرف هذا .. وأست فى حاجة الى أن يذكرنى أحد به .

سمع الأصلى يقول له :

- حسناً يا سيدى .. وأكرر أسفى لازعاجك .

كانت المنشقة قد سقطت عن جسده ، فأنكشف أمامه الالمار الذى كان يغطيه الماء ، ثم سآره بالمنشفة ، عروق نافرة ، وجلد مكرمش .. وسقط مآهالكا على السرير ، وقد سرت قشعريرة فى جسده ، وتذكر قطعة الشيكولاته ذات الغلاف الأزرق أمام باب المصعد ، وسأل نفسه اذا ما كان قد آان الوقت ليقآذ قراره بالعودة فورا ؟ فلا داعى لأن يقابل الأستاذ كريم ، أو أحدا غيره .

نهض واتآه الى دولاب الملابس وشرع فى ارتداء ملابسـه ، وهو غير واثق اذا ما كان يرتديها ليهبط ويأصل على قطعة الشيكولاته ، أو ليركب السيارة فى طريق العودة طالبا منهم احضار حقائبـه ، أو يذهب للقاء كريم شاكراً فى قاعة الدومينو ، ويواصل تلك المغامرة التى تفتأ أمامـه ، فىركب ما يشاء ،

وفعل ما يشاء ، لىكن ما يكون ، فلما فرغ من ارتداء ملابسـه وهو يدور حول نفسه فى الحجرة خرج الى الشرفة ، وآهم فى الملاعب مآزالوا يضربون الكرات الخشبية الملونة بمطارق خشبية كبيرة ، وكانت الشمس تميل عن يمينـه لتلتقى فى الأفق بسحاب خفيف يزأف نحوها ، وسحاب أشد قتامة يزأف من بعيد ، والهواء يزداد برودة ، ولا صوت يصل الى أذنيه ، واستسلم لما آراه عيناه ولم يعد يفكر فى شىء ، فلما أدخل الحجرة آآه الى المنضدة التى وضع عليها كآبه التى أخرجها من الحقيبة . الملك لير لشكسبير أراد أن يقآبس منها فكرة لمسلسل تليفزيونى ، عن رجل عجوز صارعه أولاده وتآكروا له حتى آن الرجل . سوف يضيف الى ما كآبه شكسبير لمآات من صراعه مع ابنـه حسن ، من يدرى ، لعل هذا هو أمله الوحيد ليرد اعتبارـه أمام ابنـه ، ليعرف كل الإبناء والى الأبد أن الأب لا يـنهزم ، وأن الابن لا ينتصر على أبـيه .

الذى منعه من كتابة هذا المسلسل حتى اليوم، هو تردده أمام آواطره المتناقضة ، فهل هو يريد فى حقيقة الأمر أن ينتقم من ولده ؟ أم هو يريد أن يكسب عطفـه ؟! أو يفرض عليه احترامـه ؟! أو يقدم له رأيا مقنعا لا يستطيع الولد أن ينكره ؟! وهل هو قادر على أن ينتقم ؟! أو أن يكسب عطفـا أو يفرض احترامـا أو يقنع برأى سديد ؟! هل هو قادر حقا ؟! أم هو بالتاكيد سيفشل ومن الأفضل أن يقرأ الأمير ليكيافيللى ليتعلم كيف يفرض نفسه بأية وسيلة ، لا يقف عند اعتبار أخلاقى ،

أو عقبة يفرضها ضمير مصاب بذلك الداء المسموم ، داء اليقظة ، أو لعله يقرأ « الجبل المسحور » لتوماس مان ، يعاني مع « هاتز كاستروب » بطل الرواية ، عزله عن العالم في تلك المصححة على قمة الجبل وهناك تنتهي كل المعاناة ، الصغيرة والكبيرة ، ويعيش هنا في هذا المكان ، بعيدا عن كل ما في حياة البشر من توافه وروائح لأن الكل باطل وقبض الريح ، وأمسك بالكتاب الأخير الذي قرر في آخر لحظة أن يضيقه إلى كتبه « رجوع الشيخ إلى صباه » فمن يدري ، قد تكون ممارسة أساليب الجنس كما عرضها هذا الكتاب ، هي أمتع وأعظم وأروع ما في الحياة من انجاز .

لقد شعر بالخجل والارتباك وهو يمد يده إلى الكتاب ليضيفه إلى المجموعة التي سيحملها معه في رحلته ، فتشجع ، وأمسك بالكتاب بقوة حتى يقضى على أي تردد يهاجمه ، وها هو الكتاب قد قطع معه هذه الرحلة ، يطل بغلافه الممزق ، يحوى بين دفتيه فنونا يلهث وراءها البشر منذ أن يولدوا إلى أن . . .

وسمع طرقا على الباب ، وانفتح فرأى أمامه خادما في ملابس سوداء ، وجهه أصفر ، خدوده سمينة ، شعره أسود كثيف ، عيناه مشرطتان ، خادم صيني . . . كوري . . . فيتنامي . . . كل شرق وجنوب شرق آسيا انفجر أمام عينيه .

قال للخادم :

— أنت الخادم ؟

فأجاب الخادم بأدب شديد :

— سيدي . . . أننا لا نستخدم هذا اللفظ هنا .

سأله في ارتباك :

— ماذا تعنى ؟

فقال الرجل بصوت ناعم هادئ :

— نحن لا نعترض يا سيدي على أي لقب تريد أن تنادينا به . . . كل ما في الأمر . . . أنك تعرف يا سيدي أن خادم القوم هو سيدهم . . . وهذا المعنى يتضح لك تماما في لحظة معينة . . . وعندئذ قد نتعرض لموقف حرج . . . لأننا لا نريد أن نلقى في روعك يوما ما أننا أسيادك .

قال في غير فهم :

— ما هذا . . . أية الغاز تتحدث بها .

اعتدل الرجل فجأة . . . وسأل بلهجة عملية .

— آسف يا سيدي . . . ما أردت أن أقصد عن الغاز . . . مهمتي تنحصر في أن أقدم لك ما تريد . . . فإذا كان سيدي يريد أن يتناول بعض الطعام الخفيف . . . مع الشاي أو القهوة .

ثم أضاف الرجل بسرعة سؤالا مفاجئا :

— سيدي جوعان ؟

أجاب بغير تفكير :

— نعم .

فساله الرجل :

- قهوة أم شاى •

اجاب ذاهلا :

- أى شىء •

اتحنى الرجل وخرج • وتركه لمخاوف تتقدم من أركان
الحجرة وتحاصره • ما الذى كان يعنيه هذا الخادم •• خادم
القوم سيدهم •• هذا المعنى يتضح لك تماما فى لحظة معينة ••
لا نريد أن نلقى فى روعك يوما ما أننا أسيادك •• ما هذا
الأسلوب الغريب فى التخاطب ، ان الشىء الوحيد الذى فهمه
من كلام هذا الـ •• هذا الرجل •• هو أنه يقول له نحن
أسيادك •• هذا هو ما يشعر به الآن على الأقل •• أياكون ذلك
اليونانى الذى قابله عند مكتب الاستقبال على حق • وأنه وقع
فى كمين تديره عصابة ، فأصبح سجيناً محاصراً فى هذا
المكان ، ان منظر ذلك الرجل الآسيوى يثير الريبة •

كانت تثيره دائما روايات وقفلان الجريمة والجاسوسية
التي تظهر فيها شخصيات آسيوية مشروطة العينين منظرها
مثل هذا الرجل • أنه بملابسه وحركاته ولهجته وطريقة
تعبيره نموذج طبق الأصل للشخصيات التي أربته وأعجبته
على الشاشة ، هل هذه هي بعض المشاكل التي حذره كريم
شاكر من الوقوع فيها ؟ لابد أن يرجع الى صيغة الاتفاق التي
دفعته للقيام بهذه الرحلة • ويعيد قراءتها بعناية • لقد وضع

الأوراق فى الحقيبة الصغيرة • ذهب اليها وفتحها ، ودس
يده فى جيب جلدى به الأوراق فلم يجدها • أين العقد ؟ أين
اختفى • هل سرقوه ؟ وما الحكمة من ذلك ، من الذى يستفيد
من سرقة ، انه واثق أنه وضع العقد هنا فى هذا الجيب •
فتش الحقائق الأخرى ، فتش جيوب ستراته وكل سراويله ،
فتش محفظته ، فلم يجد الأوراق •

جلس منهأرا على المقعد الوثير بجوار المنضدة وقد
تضخمت مخاوفه ، وانفتح الباب ودخل الرجل الآسيوى
نشيطا خفيفا ، ووضع أمامه صحنًا ، سندويتش كبير ووضع
أدوات الشاى ، وانصرف فى هدوء ، وهو مطرق برأسه
خائف أن يرفع عينيه فتلتقيان بوجه الجاسوس أو رجل
العصابة •

حاول أن يتذكر كل الخطوات التي مرت بها أوراق العقد ،
ولكن قدرته على مواصلة التفكير لم تسعفه ، فامتدت يده الى
السندويتش ، وشرع فى التهامه ، كان يقضم الخبز الممتزج
بصفار البيض بالطماطم بشرائح اللحم والجبن والمايونيز ،
غير مكترث بما يسيل على ذقنه فيحاول أن يلغقه بلسانه فى
نهم ، تحول الى أسنان تقضم ولسان يلغق وحلق ييلع
ويزدرد وجوف يمتلىء ، وشعر بدفع شفثيه مع تدفق الشاى
فى بلعومه ، وتدفقت حيوية فى كتفيه ، وارتفع طنين فى
رأسه ، فلما فرغ من طعامه وشرايه كان يلهث ، ومد يديه

رافعا أصابعه اللزجة في الهواء كأنه منتصر في معركة ،
واقبل على الحمام وغسل يديه وفعمه ، وفتح زجاجة كولونيا
ومسح وجهه بقطرات زادت من انتعاشه واتجه الى الباب
ليغادر الحجرة في طريقة الى كريم شاكر .

انه في حاجة الى أية معلومات حتى ولو كان سيسمعها من
ذلك الرجل الكريه المتعجرف .

قبل أن يفتح الباب ، سمع نقرا ، فتوقف ، ثم تقدم وفتح
الباب ليجد أمامه فتاة شقراء عيناها خضراوتان تنظر اليه
باسمه وتقول له بلهجة شامية :

— استاذ يوسف منصور . . . تسمح لي ادخل .

لم تنتظر أن يقول لها شيئا ، مرقت من الحيز الضيق بين
جسده والباب ، فاحتك صدرها بذراعه وكتفه ، ولكنه انشغل
عن أى احساس بخواطر مريبة تعج بها رأسه ، عن الصلة
بين مقدم هذه الفتاة وما كان يفكر فيه وهو في الحمام . وعن
احتمالات أنهم يسترقون بوسيلة ما ماتهمس به نفوس
الزبائن ، ولم تسمح له الفتاة أن يواصل انشغاله بأفكاره ،
كانت تجلس على المقعد ذي المستدين أمام المائدة المستديرة ،
كان جسمها فارعا وجهها مرسوما انيقا صارما .

وقالت : ارجو أن تعطيني بعض الوقت .

قال ذاهلا :

— أنا تحت امرك .

قالت بسرعة :

— اعرف أنك على موعد من الأستاذ كريم شاكر . . . وانه
ينتظرك .

همس :

— هذا صحيح .

قالت بلهجة عتاب :

— الأديب الكبير يوسف منصور . . . يضع وقته في لعب

الدومينو . . . أنا أولى بك يا أستاذ .

ابتسم غير فاهم ماذا تعنى ، وأدركت أنه يعاني من عدم
الفهم ، فقالت في دلال مبالغ فيه :

ألا أعجيبك ؟؟

ونفضت مقترية منه ، وأمسكت بيديه وأحاطت بهما
خصرها ، تدعوه لأن يعانقها ، وهي تهمس :

— إن وظيفتي أن أساعدك . . . وأنا أعلم أنك بحاجة الى .

همس :

— ماذا تعنين بالضبط ؟

قالت ببساطة :

— أعنى ان لدى تقريرا يقول أنك أحضرت معك كتابا
« رجوع الشيخ الى صباه » وأنت تحلم بقراءة هذا الكتاب
ومهمتى أن أقرأه معك ، وأن أساعدك على التعرف على
ما فيه بطريقة عملية .

الأفيال

لا يدري إذا كان وجهه أحمر أو أصفر ، ولكن شيئاً ما كان يحدث لدورته الدموية .. أصابها اضطراب شديد ، لأنه ارتبك ، وضاعت أنفاسه وقد أخذته المرأة بعرضها على غرة ، فهو لا يدري إذا كان يفرح أو يغضب ، إذا كان يريد أو لا يريد .

وسمع المرأة تقول له :

- أنت خجول أكثر مما كنت أتوقع ، ولكنى تعودت على هذه الحالات وسوف تتخلص منها بسرعة ، ثق أنى خبيرة مدربة وأتقن تماماً عملى .

كانت لا تزال تمسك بيديه .. تطوق بهما خصرها ، ولكنها الآن أطلقت سراحه . وقالت :

- سأتركك الآن .. وسأعود اليك فى الليل .. أى وقت تراه مناسباً .

وجد نفسه يقول بصوت متحشرج :

- لا أدري .

قالت بلهجة عملية :

- الثانية والنصف وقت مناسب للبدء فى القراءة .

ثم ضحكت فجأة قائلة :

- مالك .. متجهم .. انتنا سنقضى معا وقتاً ممتعاً ..

أفضل ألف مرة من المصيبة التى يريد أن يورطك فيها الأستاذ كريم شاكر .

همس :

- أية مصيبة ؟!

قالت وهى تتجه الى الباب :

- أتعلم انه كان يقف خلف باب حجـرته فى انتظار

قدومك .. ليستولى عليك ويختطفك منى .

ردد فى دهشة .

- ولكن لماذا .. لماذا ؟

قالت باصرار :

- لأنه شرير .. ولكن اطمئن ، سأنقذك من براثنه ، ولوحت

له يدها ، واختفت ، ولم يستطع البقاء وحده ، تحركت

قدماه رغماً عنه خارجاً من الحجرة ، ساعياً للقاء الشرير .

توصيف نفسي لطريقته

أمام قطعة الشيكولاتة ذات الغلاف الأزرق ، ثم أسرع ليلتعد عنها بقدر ما يستطيع ، كان الأغراء الذي ينبعث من قطعة الشيكولاتة هو الأغراء الذي عرضته عليه المرأة الشقراء ، كلتا هاتين - الشيكولاتة والمرأة - يتحديانه على نحو ما .
قال لنفسه وهو يهبط الدرجات الثلاث المفضية الى الحجرة التي تسبق الممر المفضى الى البهو الرئيسى :

هأنذا أخلط بين الشيكولاتة والمرأة فى محاولة مأكرة منى لتخفيف وطأة هجوم هذه المرأة ، ما كنت أظن أن الإباحية قد بلغت هذا المستوى الفاجر فى هذه المشروعات السياحية ، لقد سمعت عن نواد للعرافة ، وشواطئ يستحم فيها العراة ، ولكنى لم أسمع من قبل عن هذه الدعارة السياحية . . . ترى كم تكلفنى سهرة مع هذه المرأة ، وكم يتقاضون عن كل ساعة تقضيها معى فى قراءة الكتاب .

الأدهى أنها تريد تطبيق ما تقرأه عمليا ، أتظن أنه هرقل أو شمشون الجبار .
ومع ذلك لا بأس من المحاولة ، ليس شعاعه هو فليكن

ما يكون . . . ومع ذلك قد يسمع من كريم شاكر ما يفيد ، لقد حذره الرجل صراحة من التورط فى المشاكل وهما هو لا يدري إذا ما كانت المشاكل ستنتج من القصد أم من تجاهله .

رأى داخل الحجرة رجلا خيل اليه أنه يعرفه ، شاهده



على شاشة التليفزيون ، ولكنه لا يذكر تماما المناسبة ولكنها كانت مناسبة فاجعة كيف لا يتذكر الفاجعة ، كان جالسا ومعه رجلان آخران ، وكان يدخلن سيجارا طويلا .

وقف مسمرا يحاول أن يتذكر تلك المناسبة الأليمة التي أظهرت هذا الرجل الذى لا يستريح له على شاشة التليفزيون ، ويسأل نفسه إذا كان يستطيع أن يتقدم منه ويعرفه بنفسه .

وكان رجل يراقبه بعينين ذكيتين وابتسامة مأكرة على شفثيه ، وفى اللحظة التي قرر فيها يوسف أن يتقدم من الرجل ، انطلقت ضحكة عالية من الرجال الثلاثة ، رجل التليفزيون ، وصاحبه عن يمينه ذو الصلعة، والثالث عن يساره ذو النظارات ، وأيقن لأمر ما أنهم يضحكون عليه فأسرع هاربا من الحجرة تطارده ضحكاتهم حتى وصل البهو فوجده مزدحما على غير ما شاهده لأول مرة ، رأى مجموعة من

الرجال والسيدات يجلسون الى مائتين متجاورتين ، في البهو ، التفتوا جميعا نحوه ، او هكذا خيل اليه ، فتحاشاهم بنظراته وسار على غير هدى ، متوقعا ان يجد امامه مدخل القاعة التي حدثه عنها كريم شاكر ، ولكنه لم يجده فتلفت حائرا وسمع صوتا يساله :

- هل تبحث عن قاعة الدومينو ؟

تلفت مذعورا ، كان الصوت صادرا من الجماعة الذين يجلسون في البهو ، كان مرتبكا ، ورأى ضبابا يتخلله صور رجال ونساء ، وسمع أكثر من صوت رجل وامرأة يصيح :

- انها امامك .

ولابد أنه ارتبك تماما ، فقد تعالت الصيحات وتضخمت .

- امامك .. امامك .. كيف لا تراها .

وجلجلت في اذنيه ضحكات نسائية حادة ، امتزجت بقهقهات عريضة خشنة صادرة من حناجر رجال ، خفق قلبه بعنف وتقدم الى الامام وهو لا يرى الا جدارا من الخشب البني ، عيناه تبدلان جهدا غير عادى لقريا ما يجب أن يراه ، وفجأة اكتشف أكرة باب ، ورأى الباب من نفس لون خشب الجدار ، ولاحقته الضحكات والقهقهات وسمع أصواتا تقول :

- انه جديد .

- هذه أول مرة نراه .

- الا يحذره أحد من الدخول .

- لعله صدق انه سيختصر زمن المشاكل .

قبل أن تمتد يده الى أكرة الباب ، شعر بيد تمتد الى كتفه ، تلفت هلعا ، فرأها امامه بوجهها المرسوم الأتيق ، وقوامها الفارع الرياضي ، قالت وهي تخصوص بعينيها الزرقاوتين في عينيها ، بلهجتها الشامية :

- استاذ .. انسيت موعدنا .

نظر اليها في غباء .. فأمسكت بذراعه قائلة :

- اجلس معنا .. هذا أفضل .

همس في ذهول :

- ولكنى على موعد .

قاطعته في ثقة :

- أعرف .. مع الاستاذ كريم شاكر .. انه ينتظرك

بالداخل .. وكلنا نعرف .. ردد بصوت ضعيف وهو يتذكر

تحذيرات الاستاذ :

- يعرفون .. لماذا .. ما شأنهم .

قالت الشقراء عاتبة :

ألم أقل لك انى أولى بك .. أنا قارئة لك .. شاهدت في

التليفزيون كل رواياتك .. والجميع هنا متشوقون للحديث

معك .. وسمع صوتا من بعيد ، صوت رجل يقول :

- يا أستاذ يوسف .

التفت الى مصدر الصوت فرأى كهلاً ممثلياً الجسم يرتدى ملابس رمادية كاملة فوقها معطف لا يتناسب مع الجو المعتدل ، وطاقية من فراء تغطي رأسه ، كان وجهه مربعاً وعلى شفتيه ابتسامة فيها طفولة وفي عينيهِ بريق مازكر ، وكان الرجل يجلس بين المجموعة التي كانت تضحك وتقهقه .

وهمست الشقراء :

— ميرزا بك الفلكي يناديك .. انه يقول انه يعرفك ..

أحنى رأسه تحية لميرزا بك . الذي عاد يهتف :

— تعال يا أستاذ .

رفرف صوته معتزلاً :

— آسف انى على موعد .

فقال ميرزا مستسلماً بلهجة لا تخالو من سخريه :

— أمرك .. ولكن لا قهرمنا من لقاءك .

قال يوسف معتذراً :

— انه شرف لى يا سيدى .

قالت له الشقراء بلهجة غامضة :

— انت مصمم على الدخول .

جمع قواه وقال :

— سيدتى لقد وعدت الأستاذ وان اخلف وعدى .

كان يقول لنفسه لابد أن استمع الى كريم شاكر قبل ان

اتورط فى أية علاقة فى هذا المكان .

قالت المرأة فى غضب أو لعله دلال مبالغ فيه :

— انى أعنى كل كلمة قلتها .. عندما حذرتك مما انت مقدم عليه .

نظر اليها صامداً ، متوسلاً أن تسمح له بفتح الباب ،

فسارعت بتغيير لهجتها ، ورشقه بنظرة جامحة ، وقالت

بدلال مصنوع أو غضب مقنع بالدلال :

— كما وعدت الأستاذ كريم .. تعدننى بالألا تخلف موعدك

الليلة . وأنتك لن تتخلف عنه بحجة أنك تلعب الدومينو .

قال باسمها :

— أنا لا أعرف هذه اللعبة .

قالت وهى تهز رأسها منكراً ما تسمعه :

— اذا كنت لا تعرفها .. فسيحاول أن يعلمك اياها ..

واقتربت منه ، حتى التصقت به وهمست :

— ولكنى أشعر أنى هذه المرة سأنتصر عليه .. وسأفوز بك

.. وسمعها تقول وقد مطت شفتيها وكورتها فى مواجهة

شفتيه

— ألا تريد أن تقبلنى ؟!

ارتبك ، وتدفق الدم الى رأسه فقد اشتد الطنين فى آذنيه ،

ومالت عليه فقبلته بسرعة ، وغمزت له بعينها ، وتركته وقد

خلفت وراءها عطراً له شذى قوى ، يجذبه اليها ويدفعه الى

التفكير فى العدول عن فتح الباب المغلق أمامه ، وأن يشدها من

يدها ويصعد معها الى حجرته فقد بدا انها مستعدة لأي شيء
لولا انها التفتت اليه وقد ابتعدت وأطلقت ضحكة همجية عالية
وصاحت :

— الى اللقاء في المساء ..
فاستوقفها مشيرا بيده رافعا صوته :

— أرجوك ..
قاطعته قبل ان يكمل .. قبل ان يطلب منها ان تأتي معه
الآن وقالت :

— آسفه .. لابد ان اذهب لأتني مشغولة بمواعيد أخرى ..
ورأها تنطلق خارجة من اليهو وميرزا والجماعة التي يجلس
معها يراقبونه وهم يتهامسون .. أدار لهم ظهره ، واتجه الى
الباب وفتحه . دخل قاعة صغيرة ، بها مناظير مغطاة بالجوخ
الأخضر ، وعلى يمين الباب مشجب ودولاب ، ورأى
الأستاذ كريم شاكر جالسا بجوار مائدة حولها رجال يلعبون
الدومينو . وكانت بقية المناظير خالية ماعدا منضدة في آخر
القاعة حولها رجال يلعبون يحدثون ضجة عالية ، فقد سمع
أحدهم يرفع عقيرته بما يشبه الغناء ، وكان يردد مقطعا
واحدا :

« يا أبله من عليها .. ترلم ترلم .. يا أبله من عليها ..
ترلم .. ترلم .. »

رفع صوته :
— السلام عليكم

وجاءه رد التحية من الأستاذ كريم شاكر ، الذي نزع
غليونه من فمه . ونهض واقفا مادا كلتا يديه ، اليد اليسرى
وبها الغليون ، واليد اليمنى خالية ، تسعى الى مصافحته ،
كان الأستاذ يقف منتصب القامة ، يشد بطنه ، ويرفع كتفيه ،
وكأنه يشب على أصابع قدميه ، فيبدو كأنه يطول في أصراره
الواضح على ان يبدو في موقف المسيطر على من يخاطبه .
وهتف كريم شاكر :

— أهلا .. أهلا .. تفضل .

وضغطت يد الأستاذ على أصابعه بقوة ، وهو يتلفت برأسه
يمينا وشمالا ، كأنه يطل على الحاضرين من منصة عالية
محتفظا طوال الوقت بالأصابع التي يضغط عليها ، وعلى
شفتيه ابتسامة خفيفة ، وفي نظراته الضيقة لمعة حماس غير
عادية . وصاح الأستاذ فملا صوته القاعة :

— اسمحوا لي أن أقدم لحضراتكم ضيفا عزيزا وصل
اليوم .. الأستاذ يوسف منصور ..

أرتفع صوت غريب ، لعله صوت الذي كان يغني وهتف :
— الأستاذ يوسف منصور .. بسطة بالدش يا أحمرق من
عليها ترلم ترلم .. كان الهاتف الملهوف قد نهض وفي يده
حجارة الدومينو ، وبدا ليوسف انه يستعد للترحيب به ،

ولكنه لم يفعل ضرب المنضدة الخضراء بالحجر محدثا دويًا ،
وهو يردد كلماته ٠٠ ثم جلس وزعق في الرجل الذي على يمينه
وكان ممسكا بقلم وتحت يده ورقة :

— قلت لك ستة ٠٠ اكتب ستة في ٠٠ يا ٠٠

وحدد بصوت جهير الموضع الحساس البذيء الذي يريد
أن يضع فيه الستة من جسم خصمه الذي يكتب ٠ صاحب
الاستاذ كريم شاكر بصوت غاضب مجلجل :

— عيب يا خليل ٠٠ ليست هذه هي الصورة التي تقدمها
للأستاذ في أول زيارة له لهذا المكان ٠٠ ماذا تريد أن يقول
عنا ؟!

والتفت كريم شاكر الى يوسف قائلا في ألفة :

— خليل مجنون ٠٠

ثم استدرك في ترفع وتعال :

— انه طيب القلب كالطفل ٠٠ وعندما تعرفه على حقيقته
تكتشف أنه غير ذلك تماما ٠٠

صاح خليل من مكانه في آخر القاعة :

— ماذا يكتشف يا أستاذ ٠٠ ؟

وعاد يضرب الحجر على الجوخ الأخضر بشدة صائها في
هياج :

— خمسة ٠٠ يا أبله من عليها ترلم ترلم :

صاح كريم شاكر بلهجة أمرة ٠٠ وان خيل ليوسف أن في
عينيه وفي رجفة شفثيه فرحا غريبا يحاول أن يخفيه :

— خليل ٠٠ قلت لك كف عن هذا ٠٠ عيب ٠٠

فرد عليه خليل بسرعة :

— عيونى من أجل الأستاذ يوسف منصور ٠٠ يا أبله من
عليها ترلم ٠٠

قال كريم شاكر محتجا وقد انتفش صدره ، وانتفضت
الكلمات التي تخرج من فمه ٠

— كل شيء له أصول يا خليل ٠٠ وعلى أية حال لى كلام
آخر معك ٠٠

وهنا قال خليل كالمخاطب نفسه بصوت كله أسى وقد توقف
عن الغناء :

— الأستاذ غاضب منى ٠٠

هتف كريم شاكر وانفعاله لا يخفى سروره :

— نعم غاضب ٠٠ وهذا يكفى الآن ٠

ارتفعت همسات من المنضدة التي كان يجلس كريم شاكر
بجوارها ، وسمع صيحات :

— كفى يا خليل ٠٠

— اسكت الآن يا خليل ٠

هدىء اللعب ٠٠

تعليقات تلوم وتعاتب ولكنها تحمل الى يوسف نفس

الاحساس بأنها تخفى سرورا ونشوة .

وقف رجل متوسط القامة ، أسمر الوجه ، له عينان
رجاجيتان ، ليس فيهما ما يدل على شيء . شفتاه كبيرتان
غليظتان تحددان فماً واسعاً ، يكاد يصل بين أذنين كبيرتين ،
زاد من حجمهما الشعر المقصوص الى أقصى درجات القصر ،
فكشفت عن الأذنين والفتحة التي بدا عالياً عالياً . ترك الرجل
مقعده بالمنضدة التي بجوارها كريم ويوسف ، وابتسم أو
هكذا بدا أنه يبتسم بشفتيه الراسعتين .

وقال ليوسف :

تفضل معنا هنا يا أستاذ . منذ سمعت بوصولك وأنا
أنتظر حضورك .

بينما صاح رجل آخر . له وجه رفيع على شكل مثلث
مقلوب ، قمته هي ذقن الرجل اذ يبدو على شكل زاوية حادة .
له حاجبان كثيفان ، وشعر رأس قليل متناثر نافر ، وكان
الرجل يحثج على الرجل الذي وقف مرحباً بيوسف :

هل هذه اصول . . . تترك اللعب بلا استئذان . . .

قال الرجل الذي وقف :

اسكت يا دكتور . . . أنت لا تفهم ماذا افعل .

والتفت يجذب الاستاذ كريم شاكرا ، ليحوله عن خليل

هامسا :

ألا تعرفنا بالاستاذ ؟

صاح الدكتور ذو الوجه المثلث في الرجل الآخر :

ليس هذا وقت الاجتماعيات اجلس والعب . .

فتدخل كريم شاكر بسرعة وقال :

آسف يا جماعة . . لا أريد أن أعطلكم .

والتفت الى الرجل الذي وقف قائلاً :

سأعرفكم بالاستاذ يوسف . . ولكن لا مانع من أن

تستأنفوا اللعب . . وقدم ليوسف مقعداً بجواره ، وأشار أولاً

الى الرجل الذي وقف مرحباً بيوسف وكان قد جلس مستأنفاً

للعب . أشار اليه كريم شاكر بيده في حركة واسعة في الهواء

كأنه يشير الى جماهير من فوق منصة وقال :

طبعاً سمعت عن سيادة اللواء سعد الحوت . . كان الحاكم

بأمرة في المباحث المصرية .

أسرع اللواء الحوت يتمتم :

آسف الله . . آسف الله يا أستاذ .

سمع الاسم فلم يعد يرى غير ابنه حسن في قفص الاتهام .

وأفاق من شروده وكريم شاكر يقدم له الرجل ذا

الوجه المثلث :

الدكتور ابراهيم المنجى .

عبس وجه الدكتور وقطب حاجبيه كأنه يتفر مما يسمع

ونظر اليه بعينه الحزینتين وقال بصوت يغلب عليه السأم :

هل ستطول جلستك هنا . .

صاح كريم شاكر مقهقهة هذه المرة :
- أنه طبيب قليل الأدب .. وهو يقول هذا لكل من يجلس
بجواره وهو خسران ..

قال ابراهيم المنجى وهو يواصل اللعب :
- أنا تهمنى صحة الأستاذ .. فهو مصاب بالبروستاتا ..
قال يوسف فى دهشة :
- أنا ..

قال المنجى :
- نعم ..
سأله يوسف متحديا ..

- كيف عرفت ..؟ أنا لم أشك لك يا دكتور .
قال المنجى وهو يفحص حجارة الدومينو :
- لست فى حاجة الى أن تشسكو .. كل من يأتى الى هنا
مصاب بالتهاب البروستاتا . هذا أمر مفروغ منه .
قاطعه كريم شاكر :

- أنت طبيب أمراض نسائية .. فما دخلك بأمراض
الرجال ..؟

وقدم له الثالث الذى يجلس قبالة اللواء الحوت :
- سيد آدم ريشفسكى .

كان سمينا مترهلا ، جسمه باللون ضخم ، ورأسه باللون
صغير ، بشرته حمراء بها نمش كثير ، أنفه مقوس طويل ،

شفتاه رفيعتان صارمتان ، شعر رأسه أسود لامع مصبوغ
بعناية ، فهو بكل تأكيد ليس سواها طبيعيا ، مدهون
بالبريانتين ، مفروق من اليسار ، عيناه بنيتان ، عينا قط
عجوز ، عليهما نظارة زجاجها سميك ، تستقر على منتصف
أنفه المقوس .

قال مسيو آدم بصوت قوى يخرج من أنفه وقمه فى آن
واحد :

- مرحبا يا أستاذ .. تشرفنا ..
قالها بالفرنسية .. ثم سأله بالعربية :
- هل تفضل أن نتكلم بالعربية ..؟
قال يوسف :

- الأمر سيان عندي
وهنا قدم له كريم شاكر اللاعب الرابع الذى يجلس قبالة
الطبيب ابراهيم المنجى .
- فؤاد برعى بك مدير عام بنك النيل .

رجل قصير ذو عينين رماديتين مجهنتين ورأس صغير ،
شعره أبيض ، رفع رأسه عن ورقة يسجل عليها النقاط التى
يكسبونها . وقال بلهجة رسمية وابتسامة جافة :
- تشرفنا .

فتدخل آدم ريشفسكى محتدا :
- يا فؤاد يا حبيبى .. تشرفنا هذه التى قلتها للأستاذ

يوسف .. كلفتنا عشر نقط .. حسابنا سبعة وثلاثون ..
لا سبعة وعشرون ..

قال اللواء الحوت :

- كفى سرقة يا فؤاد ..

قال الطبيب المتجى للحوت :

- اذا كان احد يغش على هذه المائدة فهو انت وزميلك

آدم ..

فتنظر آدم الى يوسف قائلاً :

- هذا طبيب مسكين .. انه يجلس تحت يدي فأمنع عنه

الماء والهواء والأوكسجين انظر اليه .. لقد ضاع ..
انتهى ..

ابتسم يوسف ، وفجأة سأله آدم :

- هل تعرف العبرية يا استاذ .. ؟

قال في دهشة :

- لا ..

فتنظر اليه آدم نظرة فاحصة ، أو لعل نظرتة بدت هكذا من

خلف عويناته الزجاجية وقال بلهجة غريبة :

- ظننتك تجيدها ..

قال :

- للأسف لا .. لماذا ظننت اني أجيدها ؟

قال آدم بسرعة كأنه أعد اجابته وتوقع أنه سيقولها ..

- اسمك ليس غريباً عني .. ويخيل الى اني قرأت لك
كتاباً جعلني أتصور أنك تعرف العبرية ..

كان خليل مازال يردد .. يا أهبل من عليها ترلم ترلم ..
يا أحقق من عليها ترلم ترلم ..

وشعر بأنفاسه تضيق .. كان يرى جابى اسكنازى جالسة
القرفصاء بالبنطلون الذى أصبح الآن اسمه جينز ويجوارها
دافيد المجند القادم من بولندا مع الجنود الآخرين الذين
وصلوا الى القاهرة من كل مكان فى العالم قبل معركة
العلمين .. كانوا يسندان ظهريهما الى حاجز الباكسة المتجهة فى
الليل الى القناطر الخيرية ، من خلفهما النيل والليل وشاطئ
تظهر فيه أشباح نخيل وبيوت متناثرة يكشفها أو يستترها ضوء
القمر .. كانت بين أحضان دافيد .. يقبلها .. وكان لا يفهم
كيف أقدمت حبيبته على ما أقدمت عليه .. هكذا فجأة بلا شرح
أو تبرير أو اعتذار أو شجار أو أى شيء .. عندما اختفى دافيد
بعد أسبوعين ، عادت اليه ، يرقصان ، ويذهبان معا الى
السينما ، ويقبلها آخر الليل وهما صاعدان السلم الى
بيتها ، ولكنه كان قد عرف بعد حادث دافيد ، انها لن تكون له
أبدا زوجة أو حبيبة ، انه مجرد رفيق رحلة فى فترة من فترات
العمر ، ينفق وتتسلى معه ، ثم لا شيء بعد ذلك ، وكان
ما توقعه ، هاجرت وتزوجت فى الأرجنتين ، ومن يدري أنها
ذهبت بعد ذلك لتعيش فى اسرائيل أو لا ..

كان آدم ريشفسكى مازال يسأله :
 - ترى أى كتاب هذا الذى جعلنى أتصور أنك تجيد
 العبرية ؟
 همس :

- لعلها قصة قصيرة عن علاقة غرامية أيام شببى بختاة
 يهودية ..
 فبدأ الاهتمام على وجه آدم وتمتم كانه يتذكر شيئاً كان
 يسعى بجديّة لتذكره .

- آه .. نعم .. نعم .
 وصبوب اليه نظراته سائلاً :
 - كائنات قصة واقعية يا استاذ .
 هن رأسه وقال :

- بعض الوقائع صحيحة .. ولكن الواقع .
 وأتى يوسف بحركة من يده متخلصاً من مواصلة كلام
 ضاع منه ولا يستطيع أن يتذكره .
 بينما صاح ابراهيم المنجى :
 - هل نواصل اللعب .. ام ننتقل الى الصالون لنسمع هذا
 الكلام الفارغ .. ليس هذا مكان الدردشة .

فى هذه اللحظة .. فتح الباب وظهر الرجل القليفيونى
 المشهور مازال يدخل السيجار ، اقترب منهم .. لا .. انه
 يقترب من يوسف شخصياً ويقتسم .. يلوح بيده :

- حضرتك الأستاذ يوسف منصور .. الكاتب المشهور ..
 هل أفلح الأستاذ فى اصطيداك ؟
 صاح كريم شاكر :
 - آه .. جاء اللاعبان الأكبر .. الذى يلعب بالبيضة
 والحجر .

والتفت اليه وسأله :
 - هل تعرف الأستاذ رافت الحلوانى ؟

ارتجف ، كيف فاتته أنه شاهده فى التليفزيون يتحدث عن
 الارهاب ويطالب بأقصى العقوبة للأولاد المجرمين ، كان ينادى
 باعدام حسن . قال وهو لا يدري من أين يأتى صوته :
 - نعم .. انى رأيته فى التليفزيون .
 صاح رافت الحلوانى :

- الأستاذ الكبير يوسف منصور .. يتفـرج على
 التليفزيون ، كنت أظن أنك تكفى بالكتابة له .

قال يوسف لنفسه : انه يريد أن يتجاهل ما يعرفه عنى .
 وما فعله للاحاق الضرر بى ، ألم يقل له محسن فهم المخرج ،
 ان رافت الحلوانى اقترح على مدير التليفزيون ، تكليف يوسف
 بكتابة حلقات ضد الارهاب ، على ان يستغل يوسف كاب
 يرفض الجرائم التى ارتكبها ابنه ، أب يقدم ابنه الى الجلاء ..
 عندما قال له المدير ان هذا الطلب فيه قسوة زائدة على
 يوسف ، صاح رافت الحلوانى :

- انه المسئول عن تربية هذا الولد الفاسد .. هذا الوحش الذى يسفك الدماء ، راذا لم يستطع أن يقوم بدور فى علاج الشرور التى أنجبها .. فأبعدوه عن التليفزيون .. منعوا رواياته .. اوقفوا اذاعة أى شيء يصدر عنه .. فقد ارتبط اسمه باسم ابنه الارهابى المجرم .. ولا تسمحوا لمن أنجب الشر أن ينفث سمومه من خلاله أعماله فى شباب المجتمع المصرى .

قال له محسن :

- هذا الكلب رأفت يريد اذلاك .

قال له والألم يعتصره :

- ماذا .. انى لا أعرفه .. وهو لا يعرفنى .. والإب لا يؤخذ بجريرة ابنه .. أى شرع يقول هذا .. أليس له أولاد .

قال محسن :

- انه أعزب لم يتزوج .

وخاف يوسف أن ينفذوا ما ينادى به رأفت الحلوانى .. كان عليه أن يبتسم ، أن يعتذر .. أن يبدو ضعيفا .. يائسا .. أن يمثل ادوار الغلبان المسكين ليستدر العطف ، ليؤجل تنفيذ التهديد ، ليستمر بعض الوقت فى العمل ، جلس أمام مدير التليفزيون وبثل جهده لينهمر الدمع من عينيه . كان واثقا ان دموعه ستؤجل أى قرار قد يتخذه الرجل ضده .

انتبه على صوت كريم شاكر يقول له :

- رأفت هذا محامى .. يظن انه يستطيع أن يأكل الجو .. ولكن على من !!
صاح رأفت :

- المهم انكم تضيعون وقتكم .. وهذا لا يليق .
قال ابراهيم المنجى فى سأم واضح مشيرا الى يوسف :
- هذا ما أقوله .. والسبب هو ظهور الأستاذ بيثنا .. والمصيبة أنه منذ دخل وأنا أخسر .. انه نحس .

كان قد اعتاد على كلام المنجى ، وانشغل عنه بصياح خليل من مكانه البعيد :

- تعال هنا يا رأفت يا حبيبى .. لا تلعب مع الدرجة الثالثة .. تعال الجنرال موجود ومستعد .
هتف الرجل الذى يمسك بالورقة والقلم بجوار خليل :

- نحن مشتاقون اليك يا حلو .

وغنى خليل :

- تعال يا رأفت .. يا أهبل من عليها ترلم ترلم .
التفت اليه رأفت الحلوانى ، وقال له متوددا :
- جو جديد بالنسبة لك .. هل تلعب الدومينو ؟
قال مرتبكا :

- لا ..

قال رأفت واثقا وبلهجة واضحة السخرية :

- سوف تتعلمها .. هذا قضاء وقدر .

سمعها كأن الرجل يقول له ان كل ما حدث لك كان قضاء
وقدرا .. همس في ضيق :

- هذه مجرد لعبة .. قد لا أتعلمها .
قال رأفت ساخرا :

- لا تستطيع .. مادام الأستاذ موجودا .. سوف يعلمك
نظرياته .. وأهمها نظرية المسمار .. وسوف تكتشف
لامؤاخذه .. أن هذا المسمار .. ليس مسمارا .. ولكنه .
ولوح بيديه في حركة تمثيلية بذيئة قائلا :

- انه خازوق طويل .. كالذي أجلسوا عليه سليمان
الحلبي .. سوف تجلس عليه وأنت مخدر .. ثم تصرخ
عذما يذهب مفعول المخدر .

قال لنفسه : لا شك أن رأفت هذا يكرهني .. لماذا ..
لماذا ؟!

هتف خليل :

- يا أهبل من عليها ترلم ترلم .. نظرية الأستاذ لا غبار
عليها .

صاح الرجل الذي يلقيونه بالجفرال :

- هذه أعظم نظرية عرفها التاريخ .

قال اللواء الصوت :

- يا جماعة .. اعطوا الأستاذ يوسف فرصة .. ليدرس
بنفسه .

والتفت اليه قائلا :

- أليس كذلك يا أستاذ .. أنا شخصا جديد هنا ..
ويقولون اني مازلت درجة ثالثة .. ولكني أتعلم بسرعة .
والتفت الى الأستاذ كريم شاكر يسأله :

- ألسنت أتعلم بسرعة يا أستاذ .

قال كريم شاكر بأنفه وترفع :

- مازال أمامك الكثير يا سيادة اللواء .. مازلت

تزوج .. مع بالي بالك .

فضحك الصوت .. وقال لكريم شاكر بلهجة كلها مجاملة :

- انت روح هذا المكان .. اننا نضحك ونهرج .. ولولاك

لكانت حياتنا في غاية التعاسة .

قال ابراهيم المنجي بلهجة غاية في الحزن :

- هذا صحيح .

قال كريم شاكر محتجا :

- لا يصح هذا الكلام يا سيادة اللواء .. نحن هنا

لا نهرج .. مثل الآخرين الذين تقابلهم في الصباح .

وهنا صرخ خليل :

- ماذا جرى لكم .. يا أهبل من عليها ترلم ترلم ..

حرام هذا التبديد لوقتنا .

وتحرك رافت الحلواني .. الى المنضدة التي يجلس
اليها خليل والجنرال . وتحرك وراءه كريم شاكر ويوسف ..
كان يجلس على نفس المنضدة . رجل طويل رفيع صامت
لا ينظر الى احد . ولا يبدو انه يريد ان يخاطبه احد . كان
يبحث بأصابعه بحجارة الدومينو . أصابعه طويلة مرهفة
غير عادية . جذبت أنظار يوسف . بينما انشغل الجميع
بسحب مقاعد للالتفاف حول المنضدة التي يتزعمها خليل
وجلس رافت الحلواني قبالة وهو يقول :

- يستحيل ان ألعب مع الجنرال لأنى لا اتحمل غيابه ..

فلوح الجنرال بقبضته :

فسارع رافت يقول :

- أقصد عبقريتك .

ثم أردف قائلاً :

- ولا أستطيع ان ألعب مع الدكتور المازنى لأنى لا افهم
لعبة المقعد .

صاح خليل :

- اذا تلعب معى .. يا أهدل من عليها ترلم .. ترلم .

هنا شعر بيد الأستاذ تهبط على كتفه ، وسمعه يهمس :

- هيا بنا .

كانوا جميعاً قد احاطوا بمائدة اللعب . بينما تحسرك

الأستاذ بخفة يريد أن يتسلل قبل أن يلحظه أحد متجها الى
باب صغير لم يتبين وجوده حتى الآن .

كان الباب بجوار الدولاب ، وبينه وبين النافذة .

فتح الأستاذ الباب بهدوء وهو ينظر خلفه ليتأكد ان احدا
لا ينتبه الى خروجه والتفت معه ، كان خليل يصرخ فى جنون
فى الجنرال :

- أربعة فى .. يا أحقق من عليها ترلم ترلم .

ولمح آدم ريشفسكى .. ينظر اليه والى الأستاذ ، كان
الوحيد الذى تنبه الى خروجهما ، وخيل الى يوسف انه
شاهده يغمز بعينه ، واستدار الى الأستاذ ، فوجد نظراته
صامقة أمام غمزات عين آدم .. فلم يعرف اذا كان يغمز
بعينه له . او لشاكر كريم .

كانت

الحجرة الجديدة مريحة ، مقاعدها الوفيرة
مكسورة بالجلد الأخضر ، أضائها هادئة ، وبها دولاب زجاجي
كبير مليء بالكؤوس الفضية

• مليء بالكؤوس الفضية
وسرع الاستاذ كريم شاكر
يجلس على مقعد بجوار
منضدة بجوار حائط عليها
ممسحاح مغطى بمظلة من
المخمل الأخضر • بدا ليوسف
أن الاستاذ حريص على
الجلوس على هذا المقعد
بالذات ، ولاحظ أنه يواجهه

الباب ، وهو لا يستريح عادة
الى هذا الوضع اذ يجلس
وخلفه باب لا يدرى متى يفتح ،
أو من قد يدخل منه ،



وسوف يضطر الى الالتفاف الى الخلف ليرى الداخل ،
هذا اذا شعر بالباب يفتح ، اما اذا لم يشعر فقد يفاجأ
بوجود مجهول في الحجرة ، ومجرد التفكير في هذا الاحتمال
أمر مزعج ، قد يتعرض لحركة مفاجئة خلفه أو لصوت
صادر خلفه دون أن يتوقع الحركة أو الصوت ، وعندئذ
ستكون الصدمة التي تحيق به عنيفة فوق احتماله ، لاحظ كريم



شاكر قلقه ، وأنه يقلقت خلفه في اتجاه الباب فسأله إذا كان يتوقع دخول أحد ، فقال له ان الباب خلفه هو الذي يضايقه ، فنهض الأستاذ باهتمام كبير ، وانتقل الى ركن آخر من الحجارة وأسرع بالجلوس بجوار المنضدة أخرى عليها مصباح آخر ، وجلس هو في مقعد عند الطرف الآخر من المنضدة ، كلاهما يواجه الباب ولكنهما لا يواجهان بعضهما بعضا . وقال كريم ثم سأذكر بصوت خفيض على غير عادته ، كأنه يخاطب نفسه :

— لا أفطن أن أحدا سيدخل علينا .. ان استخدام الصالون قليل .. لأن اهتمامهم باللعب يفوق اهتمامهم بالحديث والدراسة .

وأخرج علبه تبغ من جيبه وحشا غايوفه . وهو يتكلم بنفس الصوت الخفيض وقد ارتسمت على وجهه علامات الجد :
انصت يوسف الى كلمات الأستاذ باهتمام وحذر .

— الموضوع الذي سأحدثك فيه بسيط غاية في البساطة .. وهو يقلخص في كلمتين .. أنا ولا فخر صاحب مشروع قاعة الدومينو . ولقد حاربت من أجله وخضت معارك ضارية ، حتى اقتنعت المؤسسة أخيرا بإدخال الدومينو في فنادقها واستراحاتها .. وقد يبدو لك أن هذا موضوع تافه .. ولكنك تقع في خطأ كبير لو ظننت أنه تافه .. ان الفكرة بسيطة .. نعم غاية في البساطة ، أن نقضى وقتنا ونصنع

نلعب الدومينو .. ولكنها نقطة تحول خطيرة في تاريخ نزلاء المؤسسة .

واقترب منه كريم شاكر برأسه الضخم وعينيه الضيقتين واهتز الخليون بين أسنانه وهو يقول بصوت خشن خفيض :
— اقترى أن هذا المشروع قد خفض من نسبة الذين تاهوا في الصحراء .

ردد يوسف في غير فهم :

— تاهوا .. كيف ؟!

قال كريم شاكر بغير اكتراث :

— كما يتوه أى مغفل .. يحاول أن يقنع نفسه بأنه قادر على معرفة هذا المكان والاحاطة بموقعه بالنسبة للمكان الذي رحل عنه .

قال يوسف :

— ولكنهم لا يعارضون القيام برحلات استكشاف ، هذا ما فهمته من موظف الاستقبال .

قال كريم شاكر :

— انه لن يعارض أبدا .. ولكن في حدود علمي أن الذين خرجوا للاستكشاف لم يعد منهم أحد .

سأل يوسف :

— كم لك من الوقت هنا ؟

قال كريم شاكر باسم :

— هذا سؤال لا نعرفه في هذا المكان .

سأل يوسف في لهفة لا تخلو من قلق جامح :
 - ألا توجد نتيجة .. أو فكرة .. ألا يوجد شيء يسجل
 لكم الأيام والأسابيع والشهور ؟
 قال كريم شاكر مكملًا :
 - ولا السنوات .. ولا أي شيء .
 قال يوسف بسرعة :
 - أستطيع أن أعالج هذا الأمر .
 سأله كريم شاكر وهو يرمقه بابتسامة تكاد تسخر منه :
 - كيف تعالجه يا أستاذ ؟
 قال يوسف :
 - بالأمس .. كنت في زيورخ .. واليوم الجمعة .. أي
 أنتم .
 قاطعه كريم شاكر :
 - هل أنت واثق أنك انتقلت من زيورخ الى هنا في يوم .
 قال يوسف :
 لا أعتقد ، ان المخدر الذي حقنوني به يستمر تأثيره أكثر من
 ساعات .
 سأله كريم شاكر :
 - هل أنت متأكد ؟
 قال يوسف في ضيق من هذه الأسئلة التي بدت له سخيفة
 بلا معنى :
 - لقد استيقظت بنفس ملابسي .

من كريم شاكر رأسه وقال ساخرًا :
 - مثلما استيقظ أهل الكهف .
 تراجع يوسف في مقعده الى الوراء ، وقال محتجًا :
 - لا تقل لي يا أستاذ .. اني بقيت مخدرا عدة قرون ..
 ان لحيتي لم تطل .. وأظافري مقصوصة .. والناس من
 حولى لا يبدون غرياء .. والسيارة والهليوكبتر والتليفون ..
 والأثاث من حولى . وملابسك وجليونك .. كل شيء يؤكد
 لي انى استيقظت في زمانى .
 قال كريم شاكر في تودة وهو ينفث دخانا كثيفا من
 غليونه :
 - نعم .. استيقظت في زمانك .. ولكن ليس معنى هذا
 انك قطعت الرحلة في ساعات أو يوم .. بل انى اقول لك انه
 لا ضمان لصحة أى استنتاج تصل اليه .
 قال يوسف متحديا لما يسمعه ، متحديا للرجل الذى يجلس
 أمامه وقد شعر بأنه انسان بغيض :
 - على اية حال .. لن يطول بقائى هنا .. سأترككم
 واعدود غدا .
 قال كريم شاكر بهدوء وهو ينظر اليه بنظرة ثابتة :
 - لي رأى فيما تقوله .. لن أخبرك به الآن .
 فسأله متعجلا :
 - لا .. قل ما تريد .. فلقد سبق انى سمعت من مسيو
 كوستا انى محاصر .. وانى لا استطيع العودة .

وتلفت يوسف حوله فى ضيق قبل أن يكمل :
- ويخيل الى انى فى مصحة للأمراض النفسية .. كل من
فيها يعانى من أوهام تجعله على شفا الجنون .
قال كريم شاكر محتفظا بهدوئه ، وهو يشعل غليونته
الذى انطفأ :

- على أية حال .. لا تحرمنى من الكلام الذى أريد أن
أنقله اليك .. أفضل أن أتحدث بالترتيب ، ولن أطيل فى
حديثى - قبل أن أصل الى مناقشة قضية عودتك .

- صاح يوسف باسم فى قلق :

- انها ليست قضية .

قال كريم شاكر :

- فليكن .. ولكن أرجوك استمع الى أولا .

كان يتوقع ان يحدثه الأستاذ عن أسرار ، أو يدلى بنصائح
هامة ، ولكنه شرع يحدثه من جديد عن جهوده التى بذلها فى
مشروع الدومينو . كانوا هنا ضد لعب الدومينو ، قاوموا
الفكرة عندما نادى بها ، اعترضوا عليها بكل الوسائل ، انه
لايستطيع أن يصور ليوسف العقوبات الهائلة التى قابلته ،
قالوا ان الجلوس للعب مضر ، وان النزلاء فى حاجة الى
الرياضة المستمرة .. الى الهواء الطلق ، وان لعبة الكروكيه
هى اللعبة المناسبة ، أما الدومينو فسوف تدعو الى الكسل
وركود الدم فى الشرايين ، وهذا يؤدى بالتالى الى تصلب
الشرايين والذبحة وانفجار شريان المخ وغير ذلك مما يصيب

الجسم ، قالوا : ان جماعة الدومينو تريد أن تسيطر ، أن تفسد
المكان ، قالوا : ان الغرض منها غير واضح لأن تجمع اللاعبين
فى قاعة سيهىء مناخا غير ملائم تسوده المشاحنات والأحقاد ،
ولكن الأستاذ واصل كفاحه حتى استطاع أن يحضر ستة
صناديق من حجارة الدومينو ، تكفى لأن يلعب بها أربعة
وعشرون لاعبا ، لأن كما تعلم يستطيع كل أربعة أن يلعبوا
الدومينو الأمريكانى معا ، وهذا يعنى أن نصف النزلاء تقريبا
يستطيعون اللعب ، بمجرد أن رأوا صناديق الدومينو هاجوا ،
لن أقول لك من هم ، ستعرفهم فيما بعد ، تصور لقد حاولوا
سرقته ، كلفوا أحد المساعدين بارتكاب هذه الجريمة ، ولكنه
اعترف لى ، وواجهتهم ، قلت لهم انتم تتهمونى بأنى أريد أن
العب الدومينو ، وأنا أتهمكم باللصوصية ، وطالبت باجتماع
النزلاء هنا فى البهو ، كان معى بالطبع من يؤيدنى ، كانت أياها
عصية ، ولما فوجئوا بالأغلبية تؤيدنى ، وضعوا عقبات أخرى ،
قالوا لا يوجد مكان يصلح ، ولكنى كنت مستعدا لهذا
الاعتراض ، كانت تلك القاعة التى رأيتها الآن ، وهذا الصالون
الذى نجلس فيه ، مخزنا قدرنا مقربا ، فلما فوجئوا باقتراحى
بتحويل المخزن الى قاعة للدومينو وصالون ملحق بها ، احتجوا
بأن مباريات الكروكيه لن تجد متفرجين ومشجعين .

هنا طفق بى الكيل ، قلت لهم : أين الحرية الشخصية ، أين
حقى كإنسان ، هل تفرضون على مشاهدة مباراة لا أريد
مشاهدتها ، هل تحكمون على بأن أصفق وأشجع لاعبين ،

لا أريد أن أصفق لهم ولا حتى أراهم ، هذا مستحيل ، أن هذا المكان سوف ينهار من أساسه لو افترضتم أننا أصبحنا عبيد لعبة واحدة ، نحن هنا أحرار ، نحن كبار لنا احترامنا .
وانتفض الأستاذ كريم شاكر واقفا ، أراد أن يتكلم وهو واقف كأنه يتراجع في محكمة وسار في الحجرة خطوات ، وعاد ووقف أمام يوسف ، ينتظر إليه من عل ، والدخان يخرج في حلقات كثيفة من غليونه ومضى يقول :

- ومع ذلك كانت التجربة لا تخلو من مخاطر .. لعل أفضعها أن تتحول القاعة الى مكان للمناقشات والمشاحنات لا للعب ، وعلاج هذا الخطر يعتمد على نواء لا بديل له ، وهو التدريب .. نعم تدريب الأعضاء على الأسس السليمة والقواعد الصحيحة للعب ، كان لابد أن أضع النظريات التي تساعد على فهم أسرار اللعبة واجادتها .. فكل تقدم في أساليب اللعب ، هو في نفس الوقت ابتعاد عن مشاكلهم وذكرياتهم وهمومهم ومصالحهم القديمة التي تثير بينهم المناقشات ، وما تجده من انفعالات واحقاد ، لذلك تلاحظ أن اللاعبين ينقسمون الى درجات ، هناك الجدد ، مثل اللواء الحوت ، وهو مازال يميل الى الحديث ، والتذكر ، والمناقشة ، وهو يخرج أحيانا الى الصحراء ، مع كل ما في هذا الخروج من مخاطر ، أرايت كيف اقبل عليك يريد التعرف بك انه مازال في الدرجة الثالثة ، أما لاعبو الدرجة الأولى فهم أمثال خليل .. والجنرال خليل هذا شاعر ولكنه لا يفكر الآن في شيء غير الدومينو .

ولقد استراح لها ، انها الشيء الوحيد الذي يهتم به ، لا مشاكل ولا هموم ولا ذكريات ، وكذلك الجنرال ، كان يوما ما حاكما لمدينة «ح» تعلم فنون الحرب في كلية سانت سير ، عندما انهار نظام الحكم في بلده جاء الى هنا ، كان أول الأمر يتحدث عن القومية العربية ، عن أمجاد العرب ، كان كثير الشجار مع كل من يناقشه ، الآن هو واحد من أبرع لاعبي الدومينو .

اللواء الحوت يحسده على براعته ، عندك الدكتور ابراهيم المنجي . أظن أنه مازال في الدرجة الثانية ، حالته متوسطة هذا الطبيب أخرج الى الدنيا مئات من الصبيان والبنات ، لا في مصر وحدها ، بل في الشرق الأوسط ، انه الآن يتقدم في اللعب ، ولم يعد يصبر على المناقشات .

كان يرقب الأستاذ كريم شاكر ، وهو يتراجع وقد اشتد حماسه ، وانتفضت أوداجه وجلجل صوته رغم انه احتفظ للجلجلة بدرجة منخفضة نسبيا ، وكانت كل نقطة يتناولها تنتهي بانه لولاه .. لولا كريم شاكر شخصيا .. لما تحقق الانتصار الكبير ، انتصار الدومينو واستقلالها عن الكروكية ، ثم انتصارها الحاسم على كل ما حمله اللاعبون الى قاعة اللعب من هموم واحزان ومشاكل وصراعات وذكريات .

حاول يوسف أكثر من مرة ، أن يقول كلمة ، أحيانا كان يخيل اليه ان الأستاذ كريم يوجه اليه السؤال ويريد منه الاجابة ، ولكنه قبل أن ينبس بكلمة يسارع الأستاذ بالاجابة

على السؤال الذى القاه عليه ، كأنه يسأل نفسه ، أصبح واضحا
أن الأستاذ لا يريد منه أن يتكلم ، بل قد يضيق بأية مقاطعة ،
حتى وهو يسأل سؤالا صريحا واضحا :

— أحقا أنت لا تعرف كيف تلعب الدومينو ؟

سارع الأستاذ بالإجابة ، آه لقد سمعتك تعترف لرافت
الحوانى بأنك لا تعرفها ، ولكن اطمئن سوف أعلمك اللعب ،
هذه ليست مشكلة .

وانطلق كريم شاكر ، يشرح له ، فدارت رأسه ، لم يفهم
ما يسمعه وهو يحدثه عن أرقام ، والمسمار الذى هو الحجر
الأول الذى يوضع على مائدة اللعب الدبش أو الدش أو الدرجى ،
وتوالت الكلمات ، واهتز الغليون بشدة فى فم الأستاذ ، وأشعله
من جديد بيد مرتعشة ثم تركه على مطفاة بجواره ليشرح
الدرس بكلتا يديه ، واضطر يوسف أن يقاطعه معتذرا :

— لقد دارت رأسى .

تهقه الأستاذ مسرورا وقال :

— قد يبدو لك الأمر صعبا فى البداية ، لأنه علم وفن . .
ولكنك لو راقبت اللعب فسيساعدك ذاك على قطع الخطوة
الأولى .

ومد كريم شاكر يده إليه قائلا :

— هيا فتشاهد اللعب .

قال رافضا أن يتحرك من مكانه :

— لن اذهب . . لأنى مازلت انتظر رايتك فى عودتى باكر .

تجههم وجه الأستاذ . . واختطف الغليون من المطفاة . بعد
أن بحث عنه فى جيوبه ، وقال بيضاء :

— بصراحة . . أن عودتك لو تحققت تكون معجزة . .
ولا أظن أن هناك ما يدعو الى تحقيق معجزة خاصة بك .

قال يوسف محتجا محاولا ضبط مشاعره بابتسامة :

— يبدو أنك لا تصدقنى .

وسكت يوسف للحظة تملل فيها فى جلسته قبل أن يكمل :

— أو لعلك تتوقع أن يمنعنى أحد من العودة .

قال الأستاذ بسرعة :

لا . . أنا أعرف بالتجربة أنه لا توجد قوة تستطيع أن
تمنعك . . ولكن المشكلة . . هى فى أن تتخذ أنت القرار وتنفذه .

قال يوسف باسماء باستخفاف :

— اطمئن . . لقد اتخذت قرارى وسأنفذه .

قال الأستاذ وهو يعود للجلوس :

— كنت أفضل ألا أقول لك ما سأخبرك به الآن . . وأتركك

لتخوض التجربة بنفسك ، ولكنى أخاطر فى هذه الحالة ، بأن

تستولى عليك ليل الشقراء ، أو تضيق فى الصحراء ،

أو تنضم الى خصومنا فى الكروكيه وعلى رأسهم ميرزا

الفلكى . . لا شك أنهم حاولوا الاتصال بك .

قاطعه بدهشة :

— قلت لك أنى سأعود . . لن انضم الى أحد .

قال كريم شاكر بلهجة قاسية :

- أنت لم تدرك تماما الوضع الذى أنت فيه .. وهذا أمر طبيعى .. الكل هنا مروا به .. لقد أراد الجنرال يوما أن يعود ليقود انقلابا فى بلده .. أعد الخطط كاملة للتنفيذ .. فماذا كانت النتيجة .. على ظهر أوراق خطط الانقلاب سجل النقاط التى يكسبونها فى الدومينو ، اللواء الحوت مازال حتى اليوم يواصل أعمال التحرى .. أحيانا يخيل إليه أنه مبعوث فى مهمة من المباحث .. أنه يتوقع أن يكشف وكرا لجماعة ارهابية دينية فى الصحراء .

هنا وجد يوسف نفسه يصرخ فجأة كأن الصوت يخرج من فمه رغما عنه :

- انها ليست صحراء .. انها قراب .

هز كريم شاكرا راسه :

- هانت تعرف عنها أكثر مما يعرفه رجل المباحث ، واجتاح يوسف خوف مفاجئ ، كان يفكر فى ترك المكان وأن يسرع الى رجل الاستقبال . يطالبه بأن يعود فورا الى القاهرة أو زيورخ ، أو أى مكان يعرفه ، وله فيه ذكريات ، ناجيا من هذا المكان المجهول الذى يحيط به القرب .

قبل ان ينهض ، فتح الباب على مصراعيه ، وراى ظهر رجل ، يتقدم وهو يحمل بين ثراعيه جسد رجل بينما حمل اثنين آخران قدما الجسد ، بعد لحظة تبين أنه جسد آدم ريشفسكى .

هتف يوسف :

- ماذا جرى .

لم يجبه أحد ، كان المازنى هو الذى يحمل آدم من ابطنه ، وكان اللواء الحوت ، وفؤاد برعى يتوليان مسئولية حمله من ساقية .. واتجهوا بالجسد الذى تخرج منه أصوات متحشجة الى أريكة ومدبوه فوقها ، ورفع المازنى رأس آدم على المسند ، وشرع فى فك رباط عنقه وازرار قميصه ، بينما انشغل اللواء الحوت وفؤاد برعى يخلع حذائه ، كانت الرغاوى تخرج من فم آدم ، المصفر ، بينما ارتفع صياح رأفت الحلوانى من قاعة الدومينو مناديا :

- يا مازنى لا تضيع وقتنا .. جاء دورك .

وجاء صوت خليل .. منشدا :

- يا أهبل من عليها ترلم ترلم .

وأردف قائلا :

- كله من الأستاذ .. هو المسئول عن هذه الفوضى ..

ترلم ترلم .

وجاء صوت الجنرال :

- يخرب بيتك يا مازنى ماذا تفعل عندك .

قال المازنى رافعا صوته :

ساحضر حالا .

وتدخل اللواء الحوت معترضا :

- أتركه هكذا ؟

هز المازنى كتفيه قائلا :

- وماذا أصنع له !!؟

قال الحوت مستفكرا ما يسمعه :

- أنت طبيب .

فقاطعه المزنى فى حزم :

- قلت لك اتركه . . وليس هناك ما تستطيع أن تفعله .

فتدخل يوسف :

- انه فى حاجة الى اسعاف عاجل .

فنظر اليه المازنى قائلاً وهو يتسحب الى قاعة الدومينو وعلى

شفتيه ابتسامة ساخرة :

- ماذا يحدث له أكثر مما هو فيه . . بعد قليل . . سيعود

الىنا . . ويزعجنا بتعليقاته .

همس يوسف غير مصدق :

- ولكنه يوشك . .

فقاطعه المازنى وقد توقف عند الباب ساخرا هازئاً :

- يوشك ماذا . . لا شيء يمكن أن يحدث له . . غير أن يفوق

ويعود الى ازعاجنا .

وعاد الى اللعب . واستقبله خليل بنفسيده :

- تعال . . يا أهبل من عليها . . اهكذا يضطرك عليك آدم

ويضطرك الى ترك اللعب .

قال ابراهيم المنجى :

- أنا مستعد ألعب مكانه .

وقال رافت الحلواتى :

- لا يا دكتور . . أنت ما زلت فى الدرجة الثالثة .

فقال المنجى محتجاً :

- الاستاذ يشهد بأننى فى الدرجة الثانية .

سمع يوسف هذا الحوار عبر الباب المفتوح ، وقد اتجه

الى آدم ريشفسكى الذى كان يشهق محاولاً أن يحصل

على هواء لا يجده . وألقى الضوء من خلال القطيفة الخضراء

لونا شاحباً مخضراً على وجهه . بينما وقف الاستاذ كريم

شاكر يتحدث مع اللواء الحوت وفؤاد برعى قائلاً لهما :

- نصحت آدم أكثر من مرة . . ألا يفرط فى تناول الطعام .

لقد شاهدته بنفسى يلتهم قطعة جاتوه كلها كريمة . . ولكنه

عند لا يستمع الى النصيحة .

وضحك اللواء الحوت فجأة . وكأنه نسي مضاروفه التى

أبداها للمازنى وقال :

- لو كان معنا هنا نقود كنا لوجئنا بها أمام عينيه . .

فينتعث فى الحال .

قال كريم شاكر وهو يلوح بغليونه فى اتجاه آدم :

- لا لا أظن أنه فى حاجة الى نقود . . انه مليونير . . بل قل

بليونيراً . . لا أحد يستطيع أن يقدر ثروته . . ولا هو شخصياً

انه يستطيع أن يفعل ما يشاء فى أى وقت فى أى مكان . .

لا تنسوا أنه هو الذى توسط لاحضار مجموعات الدومينو

التي تلعب بها .

هنا تحركت يد آدم وفتح عينيه المغمضتين . وكان يلا

نظارة • فسأل كريم شاكر :

— أين نظارتى ؟

أخرجها اللواء الحوت من جيبه • فأمسك بها كريم شاكر
وانحنى على آدم ووضع النظارة على عينيه وصاح :

— افق يا آدم • • • • • صباح النوم •

وتحركات شفتا آدم • قبل أن يخرج من فمه صوت ضعيف

متحشرج !

— أريد أن أشرب •

أتجه كريم شاكر الى الباب وضغط على زر مثبت في الحائط

• • • • • وعاد يقول :

— طلبت المساعد • •

همس آدم وهو يحاول فتح عينيته :

— أين أنا • •

سارع اللواء الحوت يقول له :

— هنا • • • • • في الصالون •

فتحرك آدم محاولاً النهوض • فصرخ فيه الحوت :

— اياك أن تتحرك • • • • • هذا خطر عليك • •

فلوح آدم بيده • • وقال بصوت أكثر انتعاشاً :

— أى خطرتعتنى • • • • • أريد أن أعود الى اللعب •

وشرع في النهوض ووقف مستنداً الى اللواء الحوت وفؤاد

برعى • • وسار يتوكأ عليهما الى قاعة الدومينو • ليستقبله

خليل هاتفا !

— برافو • • عملتها يا مسيو آدم • • • • • صحيح برافو لقد

شاهدت ميرزا الفلكي وهو يسقط فلم يقم الا بعد أيام وليال •

كان قد دخل مع الاستاذ وراء آدم ريشفسكى الذى جلس

الآن على مقعده وهمس الاستاذ فى أنى يوسف :

— أمامنا متسع من الوقت لاستئناف الحديث • • الآن أمامك

فرصة لتشاهد اللعب •

قال معتذراً وقد نسى تماماً أنه كان يفكر منذ لحظات فى

مقادرة هذا المكان فى الحال :

— آسف لأنى مرتبط بموعد :

فتجهم وجه الأستاذ وهمس متعمداً ألا يسمعه أحد غير

يوسف :

— موعد مع من ؟

نظر الى الأستاذ وهو يبحث عن كلمات مناسبة يشرح بها

لقاءه مع السيدة الشقراء • والتقى لابد أن الأستاذ كان

يعنيها عندما تحدث عن ليلى الشقراء •

وأدرك كريم شاكر من صمته انه لا يريد أن يجيب فقال

بسرعة :

— آسف لأنى تطفلت عليك بالسؤال • • • • • ليس من حقى أن

أسألك دن تقابل • • أنا من أنصار الحرية الشخصية • • التى

لولاها لما كانت هذه القاعة • • • • • أعترى لك •

قال هامساً :

— ليس الأمر كذلك .. في الحقيقة أنا لا أعرف من سوف أقابله .

فضاقت عينا الأستاذ .. فأصبحتا ثقيين يحيط بهما جفنان مترهلان وقال :

— أعتقد أنني شرحت لك الموقف بما فيه الكفاية .. والقضية واضحة لك الآن .. إنها قضية حريتي وحريتك في هذا المكان الذي ارتبطنا به .. وأنا على يقين أن رجلا مثلك يكفيه ما يسمعه .. لقد حرصت على أن أحدث معك قبل أن تختلط بالآخرين .. ولا أريد أن أقول ومعدرة .. قبل أن تتورط معهم . لأنني أخشى أن يستغلوا اسمك .

ورفع الأستاذ يديه إلى سقف الحجرة والغليون يطل من فمه وقال :

— استغفر الله .. أنا واثق أن احدا لا يستطيع أن يستغل اسمك .. ولكن من السهل جدا أن تردد همسات أو شائعات في أرجاء المكان تقول إن الكاتب الكبير يوسف منصور يعارض لعب الدومينو .

ابتسم وقال بسرعة :

— أما زلت تعتقد أنني لن أترك هذا المكان ؟

قال كريم شاكر :

— على أن أتعامل معك على أنك قد تتركنا غدا .. أو تبقى معنا للأبد . قال وهو يقاوم رغبته في الضحك :

— لا أظن أن هذا سوف يحدث .. وعلى أية حال .. الذين

يريدون مقابلتى بينهم سيدات .. وأعتقد أن السيدة التي سأقابلها ترحب بالحرية الشخصية للجميع .

حدق الأستاذ في وجهه مسترييا في كلماته .. وقال بصوت من يحاول السيطرة على انفعال :

— كنت واثقا أنها اتصلت بك .. احذرها ولا تقل لى أن أديبا مثلك خير بنفسية المرأة لا يعرف أنها تسعى إلى فرض سيطرتها على الرجل .

وجاء الخادم الذى يقولون عنه انه مساعد . وصاح فيه الأستاذ كريم شاكر :

— أسرع بكوب ماء لمسيو آدم ..

فانتفض آدم واقفا ، وتقدم منهما ، قائلا بصوت خفيض :

— ألاحظ أنكما مشغولان عن مراقبة اللعب .. هل هناك مشكلة ؟

قال كريم شاكر بلهجة رثاء :

— الأستاذ يوسف منصور على موعد مع ليلى ..

فهز آدم رأسه باسم .. عيناها تلمعان وراء نظائره

السميكة الزجاج .

وقال ليوسف :

— هل شاهدت ما حدث لى منذ قليل .

أجاب :

نعم ..

قال آدم بلهجة الواثق مما يقوله :

انك ستعرض لما هو أبشع مع تلك المرأة .. انها قاسية

لا ترحم ..

توقف يرهه كأن خاطرا قد طرأ عليه وقال مترددا :

ومع ذلك .. قد يكون من المفيد أن تمر بالتجربة ..

بشرط ألا تسقط فيها فلا تخرج منها .. ستكون خسارتنا غير

محتملة .. لأنك معنا سوف تكمل اللعبة ..

قال كريم شاكر مؤيدا آدم :

هذا بالضبط ما قلته له .. ان برائن هذه المرأة .. ألعن

من التوهان في الصحراء بينما متعة اللعب مفتوحة أمامك

بلا حدود ..

فهز آدم كتفيه قائلا :

لا داعي للمقارنة لأننا لم نخبر التوهان في الصحراء

ولعل فيه متعة نجهلها ..

قال يوسف بلهجة تعمد أن تبدو مرحة :

على أية حال - لا بأس من عذاب ليلة .. يذكرني بهذا

المكان قبل أن أغادره في الصباح ..

قال آدم وهو يهز رأسه وفي عينيه نظرات اشفاق :

إذا الوداع .. لقد كنت اتصور أنك ستبقى معنا ..

ولعل هذا هو سبب الأزمة القلبية التي أصابتني ..

قال يوسف بدهشة :

أنا السبب ..

قال آدم ريشفسكى :

نعم .. فلقد بدأت أتذكر ما سمعته عنك من عائلة ..

جايي اسكنازي .. فاضطربت ولم أتحمّل مشاهدة اللعب ..

والتذكر في نفس الوقت .. فحدث لى هذا الانهيار المفاجيء ..

ردد يوسف ذاهلا :

انت تعرف جايي اسكنازي ..

هز آدم رأسه قائلا :

نعم ..

وفجأة شد الاستاذ كريم شاكر قامته .. ومد يده اليه ،

كأنه يستعجله الانصراف قائلا وهو يصافحه :

لا داعي لتكرار الأزمة بمناسبة هذا الحديث .. سوف

نتركك الآن يا استاذ يوسف .. وأنا شخصا واثق من

حكمتك ..

ولم يتركه الاستاذ ليستأنف حديثه مع آدم ريشفسكى ..

تقدم الى الباب وهو يردد بلهجة خطابية :

انذهب وقابل من تشاء .. وثق أنك لن تجد راحة بال

حتى تعود الى هذه القاعة ..

وارتفع صوت خليل :

يذهب الى أين يا استاذ .. أتركه يخرج قبل ان يتعلم

اللعبة ؟! ماذا حدث للاستاذ ؟!

ورفع حجر دومينو وهبط به محدثا دويا على الجوخ
الاخضر .. صارخا في الجنرال :

- ستة .. اكتب ستة .. يا أهبل من عليها ترلم ترلم ..
واستدار الاستاذ وقد تأبط ذراع آدم ، وابتعدا عنه ، الاستاذ
مشدود القامة رافع الرأس ، الغليون مثبت بين شفتيه . وآدم
ريشفسكى يهرول بخطوات متعثرة . ساقاه تهتزان تحت ثقل
جسمه المترهل ليصل الى مقعده خلف رافت الحلواني .
وخرج من الباب فوجد البهو خاليا .. والرجل الاصلع
البدين واقفا تحت علامة الاستقبال فانفجرت في أعماقه الرغبة
فى الهروب وأسرع الى الرجل لاهثا ، وما كاد يصل اليه
حتى قال منفعلا :

- أريد أن أعود الآن .

وقال الرجل :

- حسنا يا سيدي .. سأطلب لك السيارة ..

سأل بلهفة :

- متى تكون مستعدة ؟

قال الرجل :

- بعد خمس دقائق .

وعاد الرجل يسأله :

- هل يقوم سيدي باعداد حقائبه .. أم نقولى نحن

حزمها .

قال متخلصا من أى شيء قد يضطره الى العودة الى
حجرته :

- تولوا أنتم ارسالها للسيارة .

قال الرجل :

- اذا تفضل سيدي بالاتجاه الى البوابة .. ستكون
السيارة هناك قبل ان نصل اليها .

خرج الى الحديقة كانت مظلمة . لولا اضواء قاتى من
بعيد ، ومشى بجوار جدار المبنى ، واستدار معه ليجد الأضواء
تنبعث من ملاعب الكروكيه .

كان بينه وبين الملعب حاجز من الشجيرات الكثيفة بطول
قامته . ورأى بوابة فى الحاجز من فروع الاشجار .
قال لنفسه :

- ألقى نظرة .. قبل أن أستأنف السير الى البوابة .

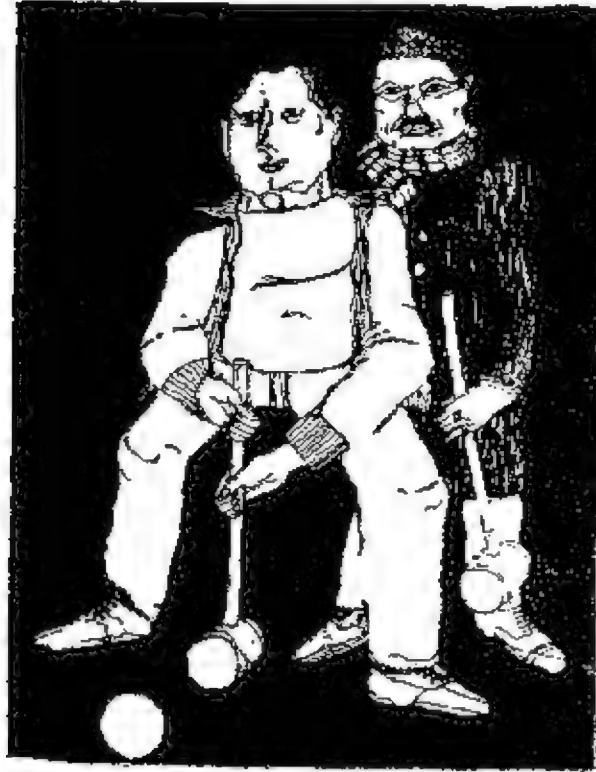
ورفع رأسه الى المبنى ، والشرفة الملحقة بحجرته ، ورآها
واقفة فى الشرفة تطل على الملاعب ، كان يراها . وقد ارتدت
فسقانا أحمر ، أما هى فكانت لا تراه وقد تستر بالظلام .

وقال لنفسه : ماذا لو أجرب ؟ وتذكر كلمات كان يسمعها
تتردد فيما مضى :

لا تدخلنا فى تجربة .. ونجونا من الشرير .

وحده هو الذى يعلم ما فى القلوب ، أنت ولد مغرور ، تتخذ لنفسك وضع القاضى فى محكمة الدين ، والله لم يعينك قاضيا على أحد ، نحن جميعا بشر — والذى أراد أن يتميز عن بقية البشر هو الشيطان ، إبليس ، وكلامك باسم الدين هو الشر بعينه • نظر الى الولد غاضبا فى قلبه كراهية شريرة ، ولكن ما أدراى أنه كان على حق ، وأن إبليس هو الذى تنكر فى هبة تلك المرأة ليجذبني الى دوامة الفسق والفجور •

سمع أعماقه تصرخ من أنا • ماذا أريد • أن ما دعاني ابني اليه حسن انتهى الى القتل وما تدعوني اليك تلك المرأة سينتهى بي الى الضياع • ولو مشيت حتى البوابة فسألقى



بنفسي فى غياهب دنيا لم أعد أطيقها ، ولو صعدت الى تلك الشرفة فسألقى بنفسي فى غياهب امرأة هي الشيطان •

وانتفض على صوت يقول فى المظلم :

.. أهلا .. أهلا .. أهلا •

تلقت حوله فلم ير أحدا ، ولكن الصوت استمر يقول :

ارقب
امام الصيرة التى داهمته • لو واصل السير الى البوابة حيث تنتظره السيارة فستكون هذه هي نهاية أحلامه فى المغامرات وكسر القيود ، يعطى ظهره الى نهاية النهاية ولكل ما ينتظره عند تلك المرأة الواقفة تطل عليه من شرفة حجرته ، لن يتكرر هذا الموقف أبدا ، وأين • فى هذا المكان الذى لا ضابط فيه ولا رابط ، لا حكومة ولا قانون ، لا عرف أو تقاليد ، ولا بد أنه سيندم ، وسيتهم نفسه بالجبن والغباء ، وسيتذكر هذه اللحظة عندما يعود الى القاهرة أو أى مكان آخر ، سيتذكرها مرارا ، وربما الى درجة الجنون وسيخبط رأسه فى الحائط بلا جدوى •

قال لنفسه يشجعها على رفض هذا الذى تدعوه اليه تلك المرأة : لعل أخلاقى تسمح ، لعل ضميرى أقوى مما كنت أظن ، وارتجف جسده وقد هجمت عليه صورة ابنه حسن ، لقد اتهمنى الولد بالكفر فقلت له انتى مسلم ومؤمن بالله • قال لى ليس هذا إيمانا ، أنت لا تصلى ولا تؤدى الفرائض أنت تنطق بالشهادتين لأنه ليس أسهل من النطق بهما نفاقا وسعيا وراء اجتماعى كاذب • قلت له لا تحاسبني فالله

لماذا أنت واقف عندك .. تعال فأننا أريد أن أتحدث معك .. تبين أن الصوت يأتي من خلف حاجز شجيرات كثيفة بطول قامته ، ورأى فتحة في الحاجز على شكل باب صغير من فروع الاشجار . وكان الصوت مازال يناديه :

- ادخل .. بعد دقائق ساكون معك .

تقدم من العتمة ، فرأى ملعبا وكان ميرزا الفلكي واقفا داخل الملعب يتسسم له . ما كاد يراه حتى هز رأسه المربع ذا القسمات انصارمة مرددا :

- أهلا .. أهلا .. أهلا .. نحن في نهاية المباراة ..
اشهد هزيمة كوستا وسألق بك حالا .

كان كوستا ممسكا بالمطرقة الخشبية بين ساقيه ، وقد أحنى رأسه ، وأمامه على الحشيش كرة صفراء ، وظل جامدا في وقفته ، ثم ضرب الكرة الصفراء بالمطرقة بعد أن حركها كالبنديل بين ساقيه ، فاندفعت الكرة بقوة مسافة عشرة أمتار أو أكثر واصطدمت بكرة زرقاء فاطاحت بها بعيدا . ورفع كوستا رأسه مهللا بالفرنسية :

- لا يوجد الا كوستا واحد في هذا العالم .

تحرك ميرزا الفلكي ببطء نحو الكرة الزرقاء التي اختفت في الطرف الآخر من الملعب . كان منظره عجيبا وهو يلعب بملابسه كاملة .. المعطف والكوفية وغطاء الفراء فوق رأسه . وانتهز يوسف الفرصة ليرتب أفكاره ، ووجد نفسه

يقول : الخطر الحقيقي في أنى مازلت أفكر . لقد جئت الى هذا المكان لأتخلص من أفكارى ، لأترك نفسى على سجيبتها ، لأتحرر من هذه الأفكار التى تقربص بى وتقهرن الفرصة لتحصرنى وتخنقننى ، سأستسلم بعض الوقت لهذا الرجل الذى يريد أن يحدثنى . وبعد ذلك فليحدث ما يحدث . ورفع رأسه محاولا أن ينظر خلسة الى المرأة فى الشرفة فلم يجدها . أتكون قد غضبت منه عندما رآته يدخل الملعب ولا يسارع بالصعود اليها ؟ أم هى تنتظره بالداخل ؟ ولو كانت قد ذهبت فليبحث عنها ، ويعتذر لها . أو يطلب منها أن تعود له . ترى كيف يكون اللقاء بينه وبينها لقاء رجل وامرأة : سيخيب ظنهما ، ولكنها وعدته بقراءة رجوع الشيخ الى صباه معه . ولابد أنها مدربة على الحالات الصعبة مثل حالته ، انه مهما اشتط به الخيال لا يستطيع ان يحصر احتمالات ما قد يحدث فى مقابلة من هذا النوع . لعله يعود الى صباه . لعله يتعلم منها فنونا ويتذوق معها الوانا من اللذة والمتعة لم يحلم بها لأنه يجهلها . أتكون تلك المرأة مجنونة ، أم هى تخدعه ، أو تدبر له مكيدة لا يعلمها ؟ ان ضحكاتها الهمجية البدائية لا تدل على أنها من النوع الذى يدبر المكائد ومع ذلك ما الضمان ؟ الاحتمالات قائمة والمجازفة قائمة فى كل الاحوال . ولا سبيل الى فض هذا الطنين فى رأسه الا بقبول المجازفة . والا قل يسأل نفسه ، من تكون هذه المرأة ، وما الذى كانت تريده ؟ وما الذى كانت ستفعله معه ، أو كان سيفعله معها ؟

وقد يضطر الى أن يقلب الدنيا بحثا عنها .
 انتبه على صياح ميرزا الفلكي .
 - لن تهرب قبل أن أطلب الآيس كريم .
 كان يخاطب كوستا وهما يتقدمان نحوه ، وقد فرغا من
 اللعب ، وسمع كوستا وهما يتقدمان نحوه ، وقد فرغا من
 اللعب ، وسمع كوستا يقول لميرزا الفلكي :
 - ها هو التزيل الجديد .
 وقف ميرزا ليتمكن من تثبيت غطاء الفراء على رأسه .
 بينما قال كوستا ليوسف :
 - أقدم لك ميرزا بك الفلكي .
 قال ميرزا باسم أو ساخرا أو قاسيا :
 - تعرفت به يا كوستا .
 ودهش يوسف وهو يسمع ميرزا يكمل قائلا :
 - أنا أعرفه من قبل أن يولد .
 قال كوستا ساخرا :
 - أنت تعرف كل شيء يا ميرزا بك .
 ثم التفت كوستا إليه يسأله :
 - آسف يا سيدى . ولكنى نسيت اسمك . هل تسمح
 بأن تذكره لى مرة أخرى ، وثق اثنى لن أنساه بعد ذلك أبدا .
 فقهقه ميرزا الفلكي وقال مزمجا :
 يا للخيبة . تريد أن تعرفنى به . وانت لا تعرف من
 هو !

كان يوسف يقول لنفسه وأنا لا أعرف احدا منكما .
 ولست ادرى كيف تدعى لنفسك انك تعرفنى قبل ان اولد .
 هذه مبالغة سمجة ، وادعاء للمعرفة شديد الوقاحة .
 وهمس يوسف لكوستا :
 - يوسف منصور .
 قال ميرزا :
 - انه الاغريقى الوحيد هنا . والذى سوف يقدم لثلاثتنا
 الآيس كريم بعد أن هزمته شر هزيمة .
 قال كوستا متفعلا :
 - الآيس كريم بكل سرور لمنصور بك . اما لك أنت
 فبالسم الهارى .
 هتف ميرزا وهو يمسك بذراع يوسف :
 - انظر اليه كيف يستخدم تعبيرات اولاد البلد . انه
 اغريقى من الفجالة . اما أبوه فكان فى الاسكندرية فى كرموز
 . . . ولسوف أحكى لك قصته .
 وقطع ميرزا كلامه فجأة . ورفع بصره الى الشرفة
 التى كانت تقف فيها المرأة . وتبعه يوسف بنظراته وقلبه
 يخفق بشدة وصوب ميرزا عينيه الى يوسف وقال باسم
 بصوت عادى مشيرا بأصبعه الى الشرفة :
 - هل رأيته . كانت واقفة تنتظرك .
 لابد أن وجهه قد أحمر أو أصفر ، ولم يعد واثقا أن قدميه
 ستتحملان جسمه . وسمع وهو فى شبه غيبوبة من الذهول

كوستا هو يقول له بلهجة تحد غير مفهومة :
لا أحد يستطيع أن يتفوق على ..
قاطعه ميرزا هاتفا :
- فى الخيبة ..
فصاح كوستا متفعلا :

- انتظر .. حتى انتهى من تصوير الفيلم معها .. مدته
ثلاث ساعات ونصف .. سيكون اعظم فيلم فى العالم .
قهقهه ميرزا الفلكى وقال لىوسف وهو يقرصه فى ذراعه :
- لا تصدق هذا الاغريقى الاحمق .. أنه يدعى أنه
سيصور فيلما من تلك الافلام الاباحية .. التى انتشرت فى
العالم وفى اشرطة الفيديو . قال كوستا باصرار :
- أنت تحسدنى .. ولكنك سترى .. عندما أعرض عليكم
الفيلم ..

قاطعه ميرزا ونشوة سرور وسخرية تمرح فى قسمات
وجهه دون أن تخفف من صرامتها :
- فى المشمش يا كوستا .
سأله كوستا :
- ماذا تعنى فى المشمش ؟
اهتز ميرزا الفلكى منتشيا وقال :
- آه .. هذه لا تعرفها .. أبوك كان يعرفها ..

وأعلن ميرزا أنه يرفض استمرار الحديث على هذا النحو
.. وأنه آن الأوان ليذهبوا الى البهو ويجلسوا فيه لياكأوا
الآيس كريم . وقال لىوسف وهو يغمز بعينه :
- لا تخف .. انها تنتظرك .
لم يستطع أن يجيبه بكلمة .

واتجهوا الى المبنى الذى غادره يوسف وقد قرر ألا يعود
اليه . كان يسأل نفسه : ترى ماذا يقول الرجل البدين الأصلع
عند الاستقبال عندما يراه ؟ ولكن الرجل رآه وهو يدخل فلم
يظهر أية علامة دهشة أو رغبة فى سؤاله اذا ما كان قد ألغى
سفره أم أجله لبعض الوقت .
وتركهما كوستا يجلسان بجوار أحد أعمدة البهو ، ليطلب
الآيس كريم .
وقال له ميرزا وهما يجلسان :

- كوستا هذا عقله خفيف .. كلنا نقبله على علاقته ..
وفجأة تغيرت لهجة ميرزا ، واكتست وجهه صرامة فوق
صرامته وجعل يردد لنفسه كأنه يسترجع شيئا فى ذاكرته :
- يوسف منصور .. يوسف منصور .. ما الذى كنت
تصنعه قبل حضورك ؟
قال مستسلما :
- كنت أكتب .
سأله :

، نكتب ماذا :

لال وهو يشعر باختناق :

— كتب .. مسلسلات تليفزيونية ..
سأله ميرزا بصوت رتيب وبالحاح رتيب :
— أية كتب .. ما نوع الكتب .

أجابه بصعوبة :
— روايات ..

رند ميرزا :

— روايات .. روايات ..
لم أقرأ لك ..

كيف عرفه ميرزا قبل أن
يولد ، ومع ذلك لا يعرف شيئاً
عن كتبه .. كان ميرزا يواجهه
برأسه المربع وعينيه
الفاحشتين .. وسأله :
— هل سمعت اسمي من
قبل ؟

خيل اليه في هذه اللحظة انه
لا بد وان يكون سمع الاسم من



قبل .. حاول أن يتذكر .. ولكنه أسرع يقول متخلصاً من
مازق الغموض الذي يخنقه ومعتمداً على احساسه الداخلي :

— اظن اني سمعت بالاسم ..
قال ميرزا الفلكي :

— أنا واثق أنك سمعت باسمي .. فقد ارتبط بأحداث
هامة في تاريخ البلد .

وصمت ميرزا برهة ، متوقفاً أن يسمع منه ما يؤكد له أنه
يتذكر ما يتحدث عنه . ولكنه لم يطق صبرا . فانطلق يقول :
— ما من مصيبة وقعت الا وسبق أن حذرت من وقوعها
.. وسمعت أنه يزعم اعتقاله فسافرت .. وسمع العالم
صوتي .. انه تاريخ طويل .
وتوقف وصعب نظراته الفاحصة اليه وقال كأنه يسأل
نفسه :

— كيف لم أعرف لك . مع اني قارئ جيد ؟
ثم أجاب على سؤاله بنفسه :

— لا بد أنك كنت تكتب في تلك الأيام .. فقد رفضت أن أقرأ
أية كلمة يكتبها قلم خاضع لدكتاتور جبار مثله .
انتبه على صوت كوستا يصيح غاضباً :
— آه .. أنا لا أتحمل هذا الحديث .. انه يثير اعصابي
وينكرني بأسوأ أيام حياتي .
قال ميرزا بصوت رتيب :

— يا اغريقى .. لا شأن لك بهذا الحديث .

فقال كوستا وكله انفعال وتحد ليوسف :

— هل كنت معه .. هل كنت من أقباعه .. قل بصراحة هل

أنت ناصرى ..

شعر بخواء فى رأسه . انهم يرغمونه على أن يتذكر . وهو

لا يستطيع أن يتذكر . أو لا يريد أن يتذكر .. الخطر

يداهمه مرة أخرى . الخطر فى الجنس .. الخطر فى الدين

.. الخطر فى السياسة .. كلها اخطار لها مخالب وأنياب

تنهش وتفترس .

لابد أن علامات خوف أو ارتباك أو قلق قد ظهرت على

وجهه . لابد أنه تملل وشحب وجهه . ولابد أن ميرزا قد

أدرك أنه يعانى ويتألم فقد سمعه يقول لكوستا :

— كفى .. إنه لن يناقش هذا الموضوع معك .

وسمع كوستا يقول محتجا : لا يدري اذا كان يوجهه

الحديث لميرزا أو له ، فقد كان لا يقوى على مواجهته بعينه :

— لماذا لا يناقش .. لماذا لا يتكلم .. أهو خائف ؟

ورفع كوستا صوته :

— اذا كنت خائفا فأنت لن تغلب فى شيء .. ألم أقل لك أنتى

الوحيد الذى يستطيع أن يحوز على اعجاب سوزان .

ثم أردف :

— تلك التى تقول ان اسمها ليلى أو عايدة ..

وجد نفسه يقول بصعوبة :

— أنا مرهق .. وهذا أول يوم لى هنا .. وأجد صعوبة

بالغة فى تذكر الأشياء .

ورفع رأسه ، كان وجه ميرزا مفعما بفرح خبيث أو هكذا

خيل اليه ، أما كوستا فقد ارتسمت على وجهه علامات اشفاق

وحنان ، وهمس :

— آسف .. انى أفهم شعورك .. كلنا مررنا بهذه التجربة

.. والا ما كنا جئنا الى هنا .. أكرر لك أسفى .. كان

يجب أن أفهم أن مجرد حضورك الى هنا يعنى أنك تريد أن

تنجو .

رفع ميرزا صوته :

— حاولت أن أنبهك يا كوستا .. ولكنك أحقق مندفع .

قال كوستا متعذرا :

— أكرر أسفى ..

قال ميرزا :

— على العموم .. لقد شاركك فى نفس الخطأ .. اننا

نفسى بسرعة كيف جئنا .. وكيف كان حالنا فى أيامنا الأولى .

وانقذ الموقف وصـول الخادم الأسبىوى ومعه كنوس

الآيس كريم ، أقبلوا عليها ثلاثتهم فى نهم .. وكان كوستا

أسرعهم فى ابتلاع كأسه . فنهض مستأنفا فى الانصراف بعد أن

أن قال ليوسف :

الأفعال

- أنت جديد .. وانصحك بالراحة الكاملة .. قبل أن
تفخر ..

وانحنى قائلاً :

- بونسوار .

ويبقى هو وميرزا وحدهما ، بينهما صمت وخواء . بعد
برهة تملأ ميرزا وشرع يتحدث معه عن المكان ، سأل هل
قابل أحدا ، فلما سمع اسم الأستاذ كريم شاكر هز رأسه كأنه
يرفض أن يسمع الاسم . وقال انه رجل له تاريخ طويل ،
ولا داعي لأن يروي له الآن . فهو يحتاج لبعض الوقت قبل أن
يفهم حقيقة كريم شاكر . ولكن قد يأتي يوم ليس بالبعيد يبوح
له فيه بما يعرفه عن هذا الأستاذ . كان ميرزا يقول له بطريقة
غير مباشرة انه سيضعه فترة تحت الاختبار قبل أن يطلع
على أسرار ، وعليه أن يقرر بينه وبين نفسه اذا ما كان يريد
أن ينجح في الاختبار ويطلع على الاسرار ، أو يسقط في
الاختبار فلا يطلع ميرزا على الخبايا التي يعرفها .

وهنا أوشك يوسف أن يتذكر أنه قابل أو سمع في وقت ما
اسم ميرزا الفلكي . وعجب لأنه خيل إليه أنه قرأ رثاء أو نعي
له في الصحف ، وطبعاً هذا مستحيل ، فالرجل أمامه بلحمه
ودمه . فلا بد أن يطرد هذا الخاطر الذي يدل على أن أفكاره
مشوشة الى درجة كبيرة وأنه أصبح لا يستطيع أن يعتمد على

ما في رأسه من صور غير محددة . وحتى هذا الامتحان الذي
يقوهم أن ميرزا يورطه فيه ليس الا خاطراً غير واضح . والا
كان عرف شروط هذا الامتحان واللوان السلوك التي يرضى
عنها ميرزا قبل أن يجعله شريكاً لأسراره . أي امتحان وأية
شروط وأية أسئلة وأية اجابات . انه عاجز تماماً عن المضي
في مواجهة أي شيء ، ويزيد من عجزه هذا الاتهام الصريح
الذي وجهه اليه كوستا بأنه جبان .

قبل أن تكتمل صياغة الجملة في رأسه أو في صدره وجد
نفسه يسأل ميرزا :

- ما الذي تعرفه عن تلك المرأة التي كانت في شرفة
حجرتي ؟

قال ميرزا وهو يمد يده ويضع كفه على ركبته ويقرصه
قائلاً مقترناً برأسه المريح الصارم القسمات :

- هذه عاهرة .

وعاد ميرزا يقرصه من جديد في ركبته مردداً :

- عاهرة بالثلث .. على استعداد لتقديم خدماتها
للجميع .

وانطلق ميرزا يحدثه وقد اختفت الرقابة من صوته قائلاً :
ان هذه الشقراء ذات العينين الخضراوتين امرأة في الخامسة
والأربعين ، وربما تجاوزت هذه السن وهو لا يفشى سرا،
ولا يغتابها .

وضحك ميرزا ومد يده الى غطاء رأسه وأزاحه الى الخلف ليكشف عن مقدمة صلعة لامعة . وقال انه عرفها باسم كاميليا ، وهناك من يعرفها باسم ليلي . وأسمائها كثيرة ، وهى تختارها كما تختار لون فستانها لتصنع جوا معيناً للزبون . وسوف تشكره كاميليا على أنه تحدث عنها معه .

فبالنسبة لها مثل هذا الحديث هو دعاية لنشاطها الذى تسعى لتعميمه . والنزلاء طبعاً لا ينادونها بلقب العاهرة أو يتعاملون معها بهذه الصفة . ان الجميع يقبلون منها الصور والمواقف التى تقدمها لهم وهم فى نفس الوقت حريصون على الاحتفاظ بالمظاهر بمعنى معاملتها كامراً . ماذا يقول . .

وقطع ميرزا استرساله ليسأل اذا كان يوافق على تشبيهها بموظفة تؤدي خدمة ، أو أنها ذات نفع عام ، أو هى مرفق يلبى الاحتياجات الضرورية التى لا غنى عنها بالنسبة للنزلاء بين وقت وآخر . انها اذا نظرنا اليها من وجهة النظر هذه فلا بد ان نعترف بأنها تؤدي عملها بكفاءة واتقان مع أن مهمتها صعبة للغاية . وهى تطوير لصناعة الجيش اليابانية ، ولكنه تطوير هائل يتمشى مع التغيرات الهائلة التى شهدتها عصرنا ، ونجاح هذا التطوير لا يدركه الا الذين يلاحظون ان النزلاء أغلبهم شخصيات غير عادية وحضورهم الى هذا المكان يعنى انهم مروا بظروف غير عادية وتركوا وراءهم حياة كاملة . كانت تقوهر فيها متطلباتهم المتعددة المتنوعة والتى تختلف من تزيل الى آخر .

وفجأة قال له ميرزا الفلكي :

— انها قادرة أحياناً على أن تقوم بدور الأم أو الممرضة أو الشقيقة أو البنت . . فدور العشيق هو أحد أدوارها . وقال ميرزا وهو يهبط بكفه على ركبته يوقظه أو يستحثه على الانتباه :

— انها قادرة على أن تذكرك بكوثر هانم . .

سأله يوسف فى غير فهم :

— كوثر هانم ، من ؟

قال ميرزا وابتهامة صارمة تشق وجهه كسكين حاد :

— السيدة والدتك . . هل نسيت اسمها . .

ولابد ان ميرزا لاحظ شيئاً غير عادى قد حدث له . لابد أنه رأى حبات العرق البارد تتصبب بغزارة من جبينه . فقد قطع كلامه هامساً ، أو لعله سمع صوته بصـعوبة كان ميرزا يهمس :

— سأذهب بك الى حجرتك . .

وسمع يوسف نفسه كأنها تردد : كوثر هانم . . نعم . .

انها امي . .

وسمع ميرزا يقول له :

— هل أنت قادر على النهوض . . أم تريد مساعدة . .

أرجوك لا تتردد ولا تخجل من طلب مثل هذه المساعدة . . انهم

مستعدون تماماً لمثل هذه الحالات .

الأفيال

همس .. ولعله كان يحاول ان ينهض :

- أرجوك أريد أن أسمع منك ..

وسمع ميرزا يقول :

- أوافق أنت أنك تستطيع ..

ثم سمع كأنه يقول له :

- رقم حجرتك ..

وحاول أن يقول شيئاً .. والعرق الفزير يتدفق من عموده

الفقرى ..

ورأى ميرزا الفلكي يرتفع في الهواء وأظلمت عيناه ..

عندما فتح عينيه رأى وجها غريبا يطل عليه .. أين رأى

هذا الوجه ، واصطدمت نظراته بوجه الشقراء .. ليلي أو

كاميليا ، أو سوزان ، كانت الأسماء تدوى في رأسه ، حتى

انفجر اسم كوثر فارتجف وظن أن أمه هي التي تتحسس ..

ولكن الشقراء كانت تقف خلف صاحب الوجه الغريب ، وتبين

أنه راقد في فراشه يرتدى بيجامته وأن أصابع الرجل الغريب

هي التي تتحسس جبينه .. أنه رأى هذه الأصابع من قبل ..

نعم انها نفس الأصابع المرفهة التي كانت تعبث بحجارة

الدومينو ، والتي كانت تتحسس آدم ريشفسكى عندما حملوه

الى الصالون .. وسمع الشقراء تقول باسمه :

- أنت بخير يا استاذ ..

وسمع صوت الرجل ذى الأصابع المرفهة والذي حاول

عبثا أن يتذكر اسمه يتكلم في برود وملل :

- لن يحدث لك أسوأ مما حدث .. فاطمئن ..

انتبه الى جسده ، بطنه تتنفس ، أصابع قدميه تتحرك ،

ركبته قادرتان على الانثناء .. وسمع صوت الرجل :

- لا تحاول النهوض الآن .. أنت جديد ولم تتعود بعد ..

فلا داعى لأن ترهق جسمك .. لقد أعطيتك منوما وعندما

تستيقظ سيكون كل شيء على ما يرام ..

قالت الشقراء باسمه في دلال :

- اذا أردت بقيت معك ..

ضحك الرجل وقال رافعا أصابعه المرفهة :

- لا فائدة من بقائك معه .. سوف ينام ملء جفنيه ..

قالت الشقراء ضاحكة :

- قد يحتاج الى في أحلامه ..

فاستدار الرجل اليها وضربها بكفه على عجزها قائلاً :

- هيا من هنا ..

ثم التفت اليه وقد اتسعت ابتسامته وقال :

- لو كنت تلعب الدومينو لوفرت وقتا يضيع هباء ..

قال هامسا :

- ولكن هذا النوم ..

قال الرجل بسرعة :

- انه منوم خفيف *

قال وخوفه يزداد :

- لقد أفقت بالكاد من النوم الآخر *

قال الرجل :

- أعرف .. ولكنك في حاجة الى راحة طويلة ..

قال والخوف يضيق خناقاه عليه :

- أخشى أن تستمر هذه الحال *

قال الرجل محتجا :

- طالما لا تنضم الينا .. ستعذب نفسك بلا مبرر .. أن

كل مهمتى هي أن أوفر عليك بعض هذا العذاب .. عندما

تستيقظ .. أترك كل شيء وأذهب فورا الى قاعة الدومينو *

قالت الشقراء محتجة :

- لن يذهب .. انه لى ..

قال الرجل مداعبا :

- لا أحد يستطيع أن يستمر معك .. الا اذا أراد أن يطيل

فترة العذاب *

وعاد يمد أصابعه المرفهة وأمسك بيده وضغط عليها برفق

قائلا بصوت أقرب الى أن يكون صوتا حنوناً :

- انى أعرف شعورك تماما .. ولا معنى لمخاوفك ..

فأنت هنا .. أى أنك اجتزت أى خطر وعبرت كل ما يدعو الى

الخوف .. وسوف تتبين هذا بالتدريج وعندئذ لن تكون في

حاجة الى منوم ..

همس :

- كنت أريد العودة ..

قال الرجل :

- عندما تفيق .. اذهب حيث شئت ..

واقتربت منه الشقراء وهبطت بيدها على رأسه تمسح

شعره قائلة :

- ثق أن هذه هي آخر مرة تستعمل فيها المنوم *

فصاح الرجل مقهقها كأنه سمع دعاية :

- انها سوف تدعوك للنوم على طريققتها ..

فهتفت الشقراء :

- أنا أحاول أن أبقي عليه قبل أن يتحول مثلكم الى

حجارة دومينو ..

فعاد الرجل يضربها على عجزها ، ودفع بها خار

الحجرة ، وخرج وراءها .. أطلال النظر الى الباب الذى خرجنا

منه .. كان مازال يشعر بوجودها معه .. وبدأ يغفو .. ولكن قبل

أن يدخل مملكة النوم ويستسلم لسلطانه .. فتح الباب .. ورأى

رجلين يتقدمان منه .. كأنهما نفس الرجلين اللذين دخلا عليه

حجرته في زيوريخ ليلة سفره .. وحملاه ووضعاه فسوق

محفة .. وسارا به خارجين من الحجرة .. وقطعا دهالين ،

فصل الهيس

أنه استيقظ في فترات متقطعة ، وما يكاد يتبين
الظلام المحيط به حتى يغيب عن وعيه من جديد ، كان كل ما
يستطيع أن يدركه في لحظات التنبيه أنه قادم من هناك ، دون
تحديد لمكان ، وقد تطوف بمخيلته مشاهد أشبه بالأحلام •
يرى نفسه وهو يدخل مبنى التليفزيون مع الممثل أحمد علوى ،
يحمل لفافة كبيرة بها أرغفة محشوة بالكباب ، لعل وعسى
عملية المونتاج لمسلسل تجربة حب لا تنتهى بتمزيق أوصال
الحلقة الاولى التى ستعرض غدا •

أحمد علوى خائف أن يمس أحد مشهدا من مشاهد ،
هو الذى اشترى الكباب ، والأوراق المالية من فئة الخمسة
الجذبهات تخرج من جيبه كأنها شلنات ، انه مصمم على أن
يحافظ على مركزه كنجم كبير يأى ثمن • أما هو الأستاذ
المؤلف فعليه أن يحمل الكباب ، وأن يتنسم ويجامل وينافق
وأن يحرص على راحة أحمد علوى الذى سينتج المسلسل
القادم « فترة من حياة امرأة » ويرى أحمد علوى نائرا
يصرخ فى وجهه :

— تصرف يا أستاذ •• اتصل بالمسؤولين •• العمال

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

ودخلا من ابواب • وكل باب يدخلان منه يتوقفان ليسديرا
مفتاحا فى ثقب الباب يوصدانه • حتى وصلا الى حجرة
مظلمة ، مكان لا يصيص لنور فيه • ووضعاه وهو فوق المحفة
وسط الظلام وسمع صوت أقدامهم يخرجان وصوت المفتاح فى
ثقب باب يغلقيه :

وخطر له أنه سمع من قبل عن مصحات تعالج حالات
الاكتئاب بحبس المرضى فى حجرات مغلقة حيث يتولى المنوم
تخديرهم لفترات طويلة يستريح فيها الجسد راحة كاملة قبل
أن يستيقظ المريض وقد استعاد كل حيويته ونشاطه لعل هناك
أملا • هكذا قال لنفسه وسط الظلام الدامس ، وراح فى سبات
عميق •

قطعوا الكهرباء عن الاستديو وأنت ساكن ..

كان عليه أن يهرول ويتوسل فهذه أول تجربة له في التليفزيون
وينقطع المشهد وتنفصل المشاهد عن رأسه ، ويفرق في لا وعي
الظلام ولا يعلم متى يفتح عينيه مرة أخرى ليرى زينب
ويسمعها تصرخ في الساعات الأولى من الصباح .. أنت
لست رجلا .. ضاع عمري معك .. ويسمعها تردد : أنت
كريم .. أنت منقر .. أنت فاشل ..

ويرى تلك اللحظة التي خيل إليه أنه اقتحم فيها كل العقبات
بعد جهاد مضمّن اصطنع فيه المعرفة ، وروض ارادته على
الصمود . وقد ضمخ جسده بالعطر واستجمع في قلبه كل
ما لديه من أمل في الحياة وكل ما عرفه من طموح وكل ما في
عقله من قدرة على التدبير وكل ما في حواسه من استعداد
للتدقيق ، وكل ما في وعيه من رقابة وسيطرة واتزان . ويرى



وهو يتشبث بنظرة في عينيها اعترافا خافتا ويسمع همسة
مترددة تخرج من شفيتها . ثم يرى هذا الذي صنعه ينهار في
التجربة القالية لأنه لا بد من تجربة قالية ، لا بد من التكرار .
لا بد أن يسقط فيما يؤله . ويسمع من جديد الاتهام .. أنه
أضاع عمرها .. أنه لم يقدم لها سوى الملل والسام .. عليه
أن يكشف عن سره ويعترف بأنه تزوجها لينتقم .. وتصرخ
زينب ممن تريد أن تنتقم .. ولا يجب ، إذ تنقطع الصور
والمشاهد ويسقط في الظلام . حتى يفتح عينيه على مشهد آخر
فيرى جابى في ملابس ماري انطوانيت وهو في ملابس لويس
السادس عشر يرقصان في الحفل التكري في الأريزونا والملك
فاروق يتصدر المائدة الأولى من حوله حاشيته ، رجاله
ونسأؤه . وجابى تهمس إليه :

- اقترّب من الملك .

وتوسلت :

- أريد أن أراه .

كانت لها عينا سوداوتان واسهتان ، ولكنها كانت
مصابة بقصر نظر شديد . يضفى على نظراتها لونا من
الدهشة والقامل في المجهول . كانت الموسيقى تعزف « نهارا
وليلًا » لكون بورتر . ورأى بطرف عينيه الملك وهو يتابعهما
بنظراته . هل أعجبه الملابس التي استأجرها من مسرح
« الكسار » أم أعجبه « جابى » التي اقتربت منه ومع ذلك
تهمس غاضبة في انفعال :

- انى لا آراه ..

قال لها :

- هل نحضر النظارة من حقيبتك .

ضحكت قائلة :

- فكرة .

ومطت شفيتها وهمست :

- الرقص أحسن حتى لا يخرجونا من المسابقة .

وعادت تقول منتشية بالرقص وقد قررت التخلي عن رغبتها

الاقتراب من الملك :

- الليلة أنت ملكى .

وقال لها :

- وأنت ملكتى .

فضحكت ضحكة عالية لا بد أن الملك سمعها ، هكذا خيل

اليه فى تلك اللحظة ولكنه بكل تأكيد لم يسمعها وهى تقول :

- لا تنس أن مصيرنا كان المقصلة .

ورأى الصينية الفضية الكبيرة المليئة بالشيكولاته والملبس

ملفوفة بالورق السـوليفان وشريطا احمر ومدير الأرينونا

يقدمها لها كجائزة أولى لأحسن زوجين فى الحفل التكرى ..

الكل كان يصفق ، وفاروق يقهقه . وهو وجابى ينحنيان

ومارش البحرية الأمريكية يعزف خلفهما ، وجابى فرحة

سعيدة تطير فى الهواء رغم ثقل الصينية وتحذره أن يمسكها

لأنها تعرف انه لا يستطيع مقاومة فض السـوليفان والقهام

الشيكولاتة فى الحال .

كانت بسمة منعشة تجتاحه ، شعر أنه يوشك أن يستيقظ .

وأن يخرج من هذا الظلام المحيط ، عندما خطر له أنه رأى آدم

ريشفسكى بين رجال حاشية الملك فاروق التى كانت ملتفة حوله

ليلة الحفل التكرى . وغاب عن وعيه وسقط فى الظلام .

وجاء مشهد قصاصة الورق التى تحمل تحذير عصابة اليد

السوداء كان سكيناً حاداً يشق رأسه فيرى أمه وهو يواجهها

بالقصاصة ويسألها هل ما جاء بها صحيح ولم يحتمل الألم

فغاب عن وعيه أو أغمى عليه ، مشاهد وصور لا حصر لها تشق

الظلام كضوء البرق وتختفى ، حتى جاء ذلك اليوم الذى أفاق

فيه على ضوء الصباح يتسلل من فجوة فى ستارة الشرفة

بحجرتة ، وتلفت حوله فى دهشة . ما هذا السرير ، وما هذا

السقف وهذه السقائر ، وفى لحظات عادت اليه ذاكرته كاملة

تتدفق كسيل جارف ، فنهض واثباً من السرير ، ودار حول

نفسه فى الحجرة . ثم ارتقى على حافة السرير ، وألقى برأسه

بين كفيه . انه يذكر كل شيء ينكر حياته كلها ماعدا ليلة أمس

بقيت منها صور غامضة مشققة ممزقة تتداعى كأنها بقايا

كابوس ، صور وجوه وكرات ملونة تضربها مطارق خشبية ،

ووجه آسيوى . وغطاء رأس من الفراء ، واغريقى . اسمه

كوستا وامرأة شقراء كانت هنا فى هذه الحجرة ، نعم كانت

تقف هنا بجوار السرير ، وكان معها ذلك الرجل . . لقد أصيب باغماء ونقلوه الى مكان مظلم أو لعله كان يحلم بذلك ، لا فائدة من مواصلة محاولة التذكر . . انه الآن قادر على الحركة ، نهض وذهب الى الحمام ، سوف يستحم ويحلق ثقبه ، ويطلب الإفطار في حجرته ، وبعد ذلك سيواجه كل شيء .

نظر الى صحن البيض المقلّى الذى فرغ من التهامه ، وابتلع المرشفة الأخيرة من فنجان كبير من القهوة باللبن ، وخرج الى الشرفة يستنشق الهواء ، كان رجلان يلعبان الكروكيه بأحد الملاعب . انه يعرفهما . ميرزا الفلكى وكوستا . بينما انشغل عاملان فى رش الملعب الثانى بخرطوم يتدفق منه الماء . وكان عامل آخر يثبت الأقواس الحديدية فى الملعب الثالث ، لا وقت للفرجة . لابد أن يتحرك . كان ميرزا مازال يرتدى المعطف وغطاء فراء فوق رأسه ، وكان ممسكا المطرقة الخشبية بين ساقيه المنفرجتين وضرب كرة سوداء نفذت من قوس أمامها ، ورفع كوستا يده فى الهواء واتجه الى كرة صفراء وضربها بسرعة فى اتجاه قوس آخر . أيتعلم هذه اللعبة ، أم يتعلم الدومينو ؟

وجد نفسه يبتسم ثم يقهقه بصوت خافت ، هذه أول مرة منذ زمن طويل يسمع فيها قهقهته ، انه لأمر مضحك بكل تأكيد ، ما هذا الخيار الدرامى العظيم الحاسم الذى يعرضونه عليه

فى هذا المكان الدومينو أو الكروكيه كإن الخيار بين الشرف والواجب ، بين حب كبير لامرأة وحب للوطن . حقا انهم يعيشون هنا فى مكان للهو ، ثم هناك ذلك الخيار الثالث المطروح أمامه أن يقضى أيامه يتدرب على ممارسة الغريزة مع تلك المرأة الشقراء .

اندفع خارجا من الحجرة ، وهبط على السلم ، كان يشعر بحيوية ونشاط لا يريد أن يحبسهما فى المصعد ولو لبضع ثوان . قدماء تتحركان بكل ما لديه من قوة وتصميم وقد تذكر فجأة صوت ذلك الطبيب ذى الأصابع المرهفة وهو يطلب منه أن يلحق به فى قاعة الدومينو بمجرد أن يستيقظ . نعم سيكون هو أول من يلجأ اليه ويتحدث معه . انه طبيب بارع أعاد اليه حيوية لم يتمتع بها منذ سنوات أعاد اليه مرحا وضحكات ضاعت منه منذ زمن بعيد ، كان رجلا عجبيا واثقا من نفسه ، انه يتذكر كيف ضرب الشقراء على عجزها كأنه يمتلكها ، وكانت مستسلمة له ، لن يتوقف فى سيره ولن يلتفت برأسه ليرى ما حوله . الطبيب أولا . ولسوف يجده خلف هذا الباب . باب قاعة الدومينو . وفتح الباب واقتحم الحجرة . ووجد الطبيب أمامه كأنهما على ميعاد . تذكر وهو يقترب منه أن اسمه المازنى . نعم بالأمس كان رأفت الحلوانى المحامى يقول مستحيل أن لعب مع المازنى . وها هو المازنى يجلس على نفس مقعد الأمس ، ظهره للباب وللحجرة . وأمامه المنضدة الخضراء . وقبلاته يجلس خليل ومن خلف خليل

الجدار • كانا وحدهما في الحجرة وأصبح ثالثهما • وما هو يقف بجوار المازني فلا يتقبه إليه • ولا يتقبه خليل إليه • كانا غارقين في صمت • وحجارة الدومينو بين أيديهم • وهمس وقد شعر برهبة :

— السلام عليكم •

فلم يسمع ردا للتحية ، المازني مستغرق في التفكير وجهه مرهق ، وجه طويل شاحب ، شحمه أسود أكثر أشعث • خليل يحدق في أصابع المازني القابضة على الصجارة ، كأنه يحاول قراءتها مخترقا بنظراته الأصابع وظهر الصجارة الأبيض الأملس •

سأل نفسه : ماذا أصنع الآن ، لقد وصل إلى المازني بانفداع كبير •• حمل معه طاقات جديدة وآمالا جديدة • ومرحبا وتفاؤلا ، وما هو يتجمد أمام هذا الصمت الثقيل الذي يرفض الترحيب به أو مجرد الاعتراف به ، حتى خليل الذي كان لا يكف عن الغناء • يا أهبل من عليها •• يا أحق من عليها •• صامت جامد لا فرق بينه وبين حجارة الدومينو التي يمسك بها •

مد يده ليهز كتف المازني ، ولكن يده وصلت إلى مسند مقعد فجذبه وجلس عليه بجوار المازني وهو يكرر :

— السلام عليكم •

لم يرد المازني • وافاق خليل من نظراته المركزة ، التفت

العيون ، عينا خليل رماديتان ، وجهه أبيض شمعي ، صوته صليل حديد ، وهو يهتف بحماس مصطع ، وابتسامة محاصرة بشفتين متصلبتين :

— أهلا بالبروفسير العظيم •

منحه لقب بروفسير ثم حول نظراته عنه • وهنا امتدت يد المازني بحجر دومينو وأضافه للحجارة المكشوفة المرصوفة على المنضدة الخضراء • ويسرعة ضرب خليل المائدة بحجر في يده هاتفا بانفعال مكتوم :

— أربعة •

وامتدت يد خليل إلى قلم وسجل على ورق مكسبه ، بينما نظر إليه المازني لأول مرة وكأنه لا يراه ، وقال له ، أو لعله كان يخاطب نفسه ، ولعله كان لا يراه على الإطلاق :

— كان لابد أن يكتب أربعة •

صاح خليل والانفعال يبدو غريبا في وجهه الشمعي وعينييه الرماديتين :

— ولو لعبت الدرجى •• كنت كتبت ستة •

همس المازني :

— حظ عوالم •

صاح خليل بقسوة :

— اتشكو كالنساء •• العب ••

قرر أن يتدخل •• قال للمازني :

— جئت أشكر لك ..

لم يسمعه المازني .. أو رفض أن يسمعه .
ولكنه صمم على أن يستمر . كان لابد أن يحدثه . لابد أن
يبدل جهدا من أجل الاحتفاظ بصلاته بالرجل الذي أعاد له
حيويته :

— ترى هل أستطيع أن أتحدث معك خمس دقائق ..

وسمع خليل يصرخ ، بينما المازني مشغول ، كأنه لم يسمع
كلمة مما قال . انفجر خليل :

— يا أهدل من عليها ترلم ترلم .. هذا وقت الكلام ..
ألا ترى ما نحن فيه ؟

وشعر بيد تربت على كتفه .. فاستدار يحمي نفسه من
هجوم مفاجيء . فرأى اللواء الحوت يطل عليه بابتسامته
المنفرجة بعرض وجهه . وعيناه الزجاجيتان تلمعان . وأشار
اليه بأصبعه أن يتبعه . كانت إشارة أمرة . وكان لابد أن
يتبعه ، وصاحبه الحوت الى مائدة بعيدة . وطلب منه أن
يجلس . فلما استقرا ، همس الحوت بصوت شديد النعومة :

— اسمح لي .. لا تؤاخذني .. هنا تقاليد مرعية ..
أرجوك لا تنزعج .. ولا تظن سوءا بخليل . ولكن لا يصح
ابدا أن تشغل اللاعبين الألى سبب أثناء اللعب .
قال مرتبكا :

— آسف .. لم أكن أتصور ..

فقاطعه الحوت بصوت ناعم صارم . النعومة في طبقة
الصوت . والصرامة في زجاج العينين .
— لا تتصور أى شيء يا أستاذ ..

وسمع خليل يهتف شاكيا :

— الحقيقة يا أستاذ .. كيف تترك اخوانك يحدث لهم
ما حدث .. وكأنك غير موجود ؟

كان كريم شاكر قد دخل الحجرة .. واستمع الى شكوى
خليل باهتمام بالغ . والدخان يندفع بشدة من فمه ومن
غليونه . وسأل وقد ضاقت عيناه :

— ماذا حدث ؟
صاح خليل محتجا :

— انظر في أمر هؤلاء الغرباء الذين يأتون من حيث
لا ندري .. وينحلون ويرنا ، النحل هبط علينا يا أستاذ .
هز كريم شاكر رأسه بوقار وقال :

— فهمت .. سأصرف يا خليل .

صاح خليل :

— نحل .. يا أستاذ .

رأى الحوت يغمز له باسماء ويقول :

— يبدو أن خليل يخسر .. فهو يظن أن مجيئك أصابه

بنحس .

ارتبك وهو يستمع الى شرح الحوت ، أن « نحل » هي

« تحسن » وشعر أن الحوت كان قاسيا ، كان يفضل الا يسمع التفسير ، فما شتمك الا من بلغك .

واقرب منه كريم شاكر قائلا بصوت خفيض :
— معذرة يا استاذ يوسف .. لقد مضى وقت طويل منذ رأيته
آخر مرة .. وكنت أتوقع أن أشرح لك بعض التقاليد التي
نراعيها في هذا المكان .. ولكنك اختفيت .
سسمع في غباء وقت طويل .. ترى كم من الوقت ،
سال بسرعة :

— كم مضى من الوقت ؟
هو الاستاذ كريم شاكر كتفه بغير مبالاة :
— لا أدري .

فهمس وقد استولى عليه القلق :
— أيام .. أسابيع .. أريد أن أعرف .

قال كريم شاكر بوقار اضاف اليه لهجة ساخرة يحاول
أن يخفيها :
— هذه اسئلة لا نعرف الاجابة عليها في هذا المكان ..
انها تفسد الأجازة .. وتفسد الراحة .. وتعطل الوصول
الى الهدف .
همس :

— لا أفهم .. اى هدف .
قال كريم شاكر وقد اتسعت ابتسامته :

— ان تنضم اليها وتلعب الدومينو .

رفع صوته منفعلا :

— ليس هذا هو هدف الحياة يا استاذ .

رفع كريم شاكر قامته . كم يفيض هذا الرجل .. كم ينفر
من هذا القليون الذى ينتصب في فمه مظهرا عجزا لا قوة .
كان كريم شاكر يقول بلهجة كلها عجرفة :

— انتظن أنك تستطيع تحقيق هدف آخر يا استاذ .. وفر
الوقت الذى تضيعه .. لا تتردد مثل اللواء الحوت .
هنا تدخل اللواء الحوت ، ومد يده يربت على كتفه يدعوه
الى الخروج من القاعة ، ويعتذر للاستاذ كريم شاكر قائلا :
— معذرة يا استاذ .. أريد أن اتفاهم مع الاستاذ يوسف
منصور .. هل تسمح لنا بالخروج لنفكلم بحريتنا حتى
لا نزعج الاخوان .

قال كريم شاكر :

— ولم لا نتحدثان في الصالون ؟

قال الحوت :

— لعل الاستاذ يوسف في حاجة الى المشى في الهواء
الطلق .. لقد ظل راقدًا وقتًا طويلا .

قال كريم شاكر مخاطباً يوسف :

- ستعرف يوماً ما .. أنى لا أريد إلا مصلحتك .. وكل ما سوف تسمعه من اللواء الحوت .. ولا يؤدى إلى عودتك إلى هذه القاعة لا فائدة منه .. أعرف أنك لا تصدقنى ، ولكن اللواء الحوت نفسه بدأ يدرك هذه الحقيقة .. أليس كذلك يا سيادة اللواء ؟

قال الحوت بسرعة وابتسامة مجاملة تشق وجهه نصفين :

- بالطبع يا أستاذ .

وخرج مع الحوت عبر الصالون ، وخليل يردد يا أهبل من عليها ترم ترم ، فاستقبلهما ضوء النهار مع نسيم بارد ، وأسرع الحوت يغير مجرى الحديث ، فسأله عن صحته ، وهل استراح بعد رقدته الطويلة ، ولم تتغير ابتسامته الحوت وهو يستمع إليه يبدى دهشته من عدم معرفة أحد بمقاييس الوقت ، واكتفى بأن يردد :

- ثق انهم يقيسون الوقت .

وفاجأه الحوت ، بسؤاله عن ليلى ، هل رآها ، لعل كان الأفضل أن يلتقى بها قبل أن يصل إلى قاعة الدوميتسو ، انها انسانية فى غاية الشهامة والمروءة ، كان يتحدث عنها باحترام وتبجيل ، انها صاحبة فضل على الجميع ، لولاها

لما كان لهذا المكان معنى .

وتوقف الحوت وقد وصلا فجأة إلى نهاية الملاعب ، واتجها فى سيرهما إلى حشائش سوف تنتهى بالصحراء أو بالأرض القراب .

وقال له :

- هذه البنت كنت أعرفها وهى فتاة صغيرة . وانطلق يروى له كيف كانت طالبة فى الجامعة لا تزيد على السابعة عشرة من عمرها ، كانت فتاة بمعنى الكلمة .. جميلة حقاً ، وكانت شعلة من الحماس ، تقود المظاهرات فى الجامعة ، جريئة شجاعته تفوق شجاعة عشرات الرجال .

وصوب الحوت عينيه لتخترق عيني يوسف قائلاً بصوته الناعم :

- لا تصدق ما يقوله ميرزا الفلكى عنها . تراجع برأسه ، فما يسمعه يخترق عينيه قبل أنفيه ، كلمات الحوت زجاج متكسر فى عينيه ، واصل الحوت همسه الناعم هائلاً من ميرزا الفلكى ، انه رجل شرير بكل معانى الكلمة ، ولو أراد أن يدرك حقيقة ما أصابه فى فترة مرضه ، فتفسيره الأكيد هو ما تدفق من ميرزا من شرور أفسدت الجو المحيط به ، فأصابه بضرر أكيد .

تذكر أن ميرزا ذكر له اسم أمه ، تنكره وهو يهبط بكفه على ركبته يحدثه عن الشقراء .. انها قادرة على أن تذكرك

بكوثر هانم ، وراءه وهو يطعنه قائلا .. السيدة والدتك هل نسيت اسمها ؟

سال الحوت ، والكلمات تخرج من فمه رغما عنه :
- كيف عرفت ؟

وسكت ، فأكمل الحوت :
كيف عرفت ما قاله لك ميرزا .. مجرد استنتاج بسيط ..
لا تنسى أنى رجل مباحث ..
اجابه بسرعة :

- أعرف .. اسمك لا يجهله أحد فى بلدنا ..
قال الحوت بنعومة انتفت منها الصرامة :
- لا يا سيدى .. الزمن تغير وما أسرع ما ينسى الناس ..
هجم على يوسف خاطر مفزع فسأل :
- كم تقدر الوقت الذى مضى على وأنا هنا ؟
ابتسم الحوت وهمس :
- أنت أيضا تخاف النسيان ..

صاح يوسف :
- لم يمض ذلك الوقت الذى يهددنا فيه النسيان ..
فتلفت الحوت حوله ثم همس :
- دعنا نتقدم بعيدا ..

وأشار أمامه فى اتجاه الصحراء ، أو القراب ، وسارا صامتين بعض الوقت ، وكلما أراد يوسف أن يتكلم أسرع الحوت

يغمز بعينه أو يقرصه فى يده قرصة خفيفة ، كأنه يحذره من الكلام ..

وردد همسا :
- انتظر .. اصبر ..
حتى وصلا الى الأرض القراب وعاد الحوت يتلفت حوله ،
قبل أن يهمس ..
- واصل السير .. لقد اعتدت السير هنا ..
وخفض صوته :

- تعود الى موضوع النسيان .. أريد منك أن تطمئن ..
فهناك قوى عظمى تعمل على الاحتفاظ بكل ما فعلناه ..
نحن محظوظون من هذه الناحية ، كل شيء فى حياتنا سوف
يدرس يادق تفاصيله .. وبأحدث الوسائل التكنولوجية التى
لم تخطر ببال ..

قال يوسف فى دهشة :
- لا أفهم ..
قال الصوت :
- صبرا سأشرح لك كل شيء ..

وانطلق الحوت يروى له اعجب ما سمعه فى حياته ، أن
شركة « د . س » السياحية صاحبة هذا المكان ، هى فى
حقيقة الأمر كما أيقن من التحريات التى قام بها انها مؤسسة

مخابرات على مستوى ، وصفه الحوت بأنه رهيب ، شئ يفوق
اي خيال ، ولكنه واقع ، وعلى كل من جاء الى هذا المكان أن
يواجهه .

ما الهدف يا سيدى من تجمعنا فى هذا المركز ، انه ليس
الا معمل أبحاث لدراسة عينات من البشر ، أن أصحاب
السلطة على البشر تزعمت ثقتهم فى المبادئ والشعارات
السياسية ، لم يستطع أحد أن يوطد سسلطته على الناس
لا بنظرية سياسية ، ولا بمذهب ، وحتى المحاولات التى جرت
للاعتماذ على الدين حولت الى فوضى . الديكتاتورية فشلت
والديمقراطية والشيوعية وأصابتها جميعا الأزمة ، ولم يعد
هناك أمل فى السيطرة على الناس بغير اللجوء الى الأساليب
العلمية والتكنولوجية الحديثة التى تعتمد على دراسة
الانسان دراسة تفصيلية شاملة أصبحت ممكنة بعد اختراع
سلالات من العقول الالكترونية تستطيع أن تجمع وتدرس
وتحلل بلايين التفاصيل .

أصبحت حياة الانسان غير معقدة التعقيد الذى يعجز
عن تحليله عقل الكترونى ، وأصبح من الممكن التوصل
بالدراسة الى اكتشاف سمات وملامح وظواهر تسود بين
البشر فى العصر الحالى ، وأصبح من الممكن بعد تحديد هذه
الظواهر تحديد وسائل رقابتها والتحكم فيها وتغييرها
وتطويرها بما يساعد على استقرار السلطة .

وقبض الحوت على ثراع يوسف بشدة وهمس :
- نحن هنا عينات من البشر اختارها للدراسة والتحليل .
هذا هو الهدف . . . وسوف تبقى هنا حتى تنتهى هذه الدراسة
الى نتيجة . . . اننا لسنا أكثر من هيران أو خنازير هندية
يستخدمونها فى المعمل .

كان يسمع ولا يصدق ما يسمعه ، بل بدا يرتاب فى سلامة
قوى الحوت العقلية ، الرجل ينظر الى كل شئ بمنظار رجل
المباحث والمخابرات . . . انه لم يأت الى هذا المكان بأمر من
سلطة ، لقد جاء طواعية ، برغبته ، ويعد اقتراح من صديقه
ممراد .

سأل الحوت ليختبر مدى ما وصل اليه من تدهور عقلى :
- وأية سلطة هى التى يهمها أن تختارنا كعينات بشرية ؟
قال الحوت :

- لقد وصلت الى قناعة أن السلطة واحدة . . . انها فى
واشنطن وهى فى موسكو . . . وهى فى بكين . . .
وهى فى أى مكان فيه سلطة . . .

وتوقف الحوت فجأة وفتح شففيه المبتسمتين لكشفها عن
أسنانه بينهما خرسان من الذهب رأهما يوسف لأول مرة ،
وعاد الحوت يقول :

- مهلا . . . مهلا . . . أتريد أن تعرف سر المهنة ؟
قال يوسف متشجعا بابتسامة الحوت :

وتوقف الحوت لحظة وتلفت حوله قبل أن يهمس :

- كريم شاكر هو مندوبهم الرسمي في هذا المكان ، وهو المشرف على المشروع في هذا المركز .. وهناك صلة لم اتبينها بعد بينه وبين آدم ريشفسكى ، كما ان ميرزا الفلكى لم اتبين حتى الآن اذا كان أحد العينات أم هو من جانب الإدارة .

كانت المعلومات التى يسمعها أكبر من أن يفهمها دفعة واحدة ، وكان مازال تحت تأثير شعوره الأول أن الرجل يهذى ، ولكن بعض المخاوف تسربت اليه ، وكان السبيل الوحيد أمامه لكى تتضح له بعض المعانى التى يرددها الحوت ، ان يسأله عن معرفته الشخصية به .

سأله هامسا بصعوبة :

- منذ متى وأنت تعرفنى ؟

وسكت فقال الحوت كأنه يكمل السؤال :

- منذ متى أعرفك .. وتتبع أخبارك .. منذ زمن

طويل ..

عاد يهمس وصدره يدق ، وكأنه يدوس صدره ، وكان

دقات قلبه هى دقات قدميه :

- وتعرف كل شيء .

أسرع الحوت بخطاه ، وقال كلماته للفضاء أمامه :

- أعرف أشياء عنك .. لا أظن أنك تعرفها .

قال وهو يسرع خلفه كلماته تصطدم بقفا الحوت ، ففـا

- أنت الذى فتح الموضوع .

قال الصوت :

- نعم لآتى أعرفك .

همس :

- تعرفنى ؟

أوما الحوت برأسه ، محتفظا بابتسامته مسمرا نظراته فى عينيه ، صوته دافىء ناعم :

- وهل كنت تتوقع غير ذلك .. كما ان أصحاب السلطة يعرفون بعضهم بعضا .. كذلك نحن الذين اختارونا نعرف بعضنا بعضا .. هم كالعائلة الواحدة .. يتصادقون ويتحالفون ويتشاجرون ويتحاربون .. ولكنهم أخوة .. أخى جلالة الملك .. أخى فخامة الرئيس .. ولسوف يأتى يوم تتحقق فيه نظريتى هذه .. عندما نكتشف انهم جميعا شرقا وغربا على اختلاف مذاهبهم ودياناتهم قد اتفقوا على اقامة هذه المؤسسة الدولية ، لتنفيذ مشروع الوصول لا الى الكواكب .. ولا الى قاعة الدومينو ، ولكن الى أسهل وأقل الوسائل تكلفة للسيطرة والتحكم فى الخاضعين للسلطة ، ونحن العينة التى يجرون عليها التجارب ومن شروط العينة وجود صلات بين أفرادها ، ولذلك قانا أعرفك او على الأصح أعرف جانباً من حياتك .. وأنت لك صلة وثيقة بجانب من حياتى .

كان يرتكب

وقد اجتاحه غضب أفقده القدرة على التفكير أو التصرف .. صيحات هوجاء تدوى فى رأسه وتزلزل كيانه أن اللواء الحوت مجرم يعترف بوقاحة لا مثيل لها بجريمته ، يضرب الحوت ، أيقطله منتهزا الفرصة أنه فى هذا المكان الذى تحرر من القوانين وسيطرة الدولة ، أيقبض عليه ويضطره أن يعود معه الى القاهرة ليعترف أمام القضاء بما اعترف به الآن ، لابد أن يتصرف ، لابد أن يفعل ما لم يقو على فعله من قبل ، أليس هذا هو ما يريد أن يحققه فى هذا المكان .. بالأمس كان مشغولا بحرية ممارسة الغريزة مع تلك المرأة الشقراء ، كانت أحلامه متجهة الى اباحية بلا حدود ، الى اطلاق غرائزه لتعويض كل ما فاتته من عجز أو كبت ، ولكن هذا الاعتراف الذى أعلنه الحوت يفرض عليه مواجهة أهم وأخطر ، مواجهة لها الأولوية على كل ما عداها .. أن يدافع عن نفسه ، عن ابنه ، عن كيانه المستمر فى حسن الحوت يعترف ببساطة أنه هو الذى صنع منه الارهابى .. رجل الشرطة المسئول عن الأمن ، هو الذى صنع المجرم وهو الذى قبض على المجرم بعد أن ارتكب جريمته ، ولقد عجز عن معرفة هذه الحقائق ، ولم

طويل حليق :

• تقارير المباحث

استدار اليه الحوت ومد يده وربت بها على كتفه ، ثم شدد قبضته على كتفه الأيسر ، وقال وعيناه مسماران تخقرقان عينيه ، مسماران من زجاج حاد مديب :

• نعم تقارير المباحث .. ومعلومات من روسيا ومعلومات من أمريكا ، ومعلومات من كل مكان •

ثم تنهد الحوت وقال :

• ولكن أهم من ذلك كله .. أنى أترك الآن سبب لقائنا •

وسكت الحوت ، وتفحصه قبل أن يكمل :

• أنت يوسف منصور الذى أنجب حسن يوسف منصور •

وأنا سعد الحوت .. الذى صنع الارهابى حسن يوسف

منصور .. وعلينا الآن أن نصى هذا الحساب •

وانفجر يوسف والألم يشق صدره وحلقه ولسانه :

• أنت .. تقول صنعتك ثم تقبض عليه وتودعه السجن •

الأفيال

غير ما وجهته اليه .. وانت السبب وآخرون غيرك كانوا
السبب .

وامسك الحوت بذراع يوسف وهزه :
- يرفق يا أستاذ من أوهامك .. فإذا كنت قد جئت الى هنا
لتستريح فليس أمامك الا أن تعترف مثلي بنفوسك .. فتستفيد
وتستريح .. وتأخذ طريقك الى الدومينو أو الكروكيه ..
أو لعلك تساعدني على اكتشاف هذا المكان .. وفي نفس
الوقت سوف تستفيد تلك السلطة الحاكمة التي جمعتنا
هنا .. ستعرف كل شيء عن خبايا نفوسنا .. وستحصل
على مزيد من المعلومات تهيب لها فرصة اكتشاف أساليب
حديثة للسيطرة على البشر .

قال يوسف وصوته فصيح :

- ابني في السجن .. وأريد انقاذه .

قامطه الحوت وقد اتسعت ابتسامته :

- هل أنت قادر على انقاذ نفسك .. لتسعى الى انقاذ

أحد غيرك .. قال يوسف والفحيح يتحول الى زئير :

- لن أتركك حتى تعود معي .. وتروى اعترافاتك أمام

القضاء .

اهتز جسد الحوت مقهقها كأنه سمع دعابة تثير ما هو

أشد من الضحك وقال :

- كيف تغادر هذا المكان .. اننا لن نستطيع ..

ولم يفلح في مواجهتها وحسن خلف القضبان يتلقى الحكم
عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة .. ولكن الظروف قد اختلفت
الآن المكان غير المكان ، وهو حر ان يفعل ما يريد .

أصابته هذه الصيحات التي تدور في رأسه وتزلزل كيانه
بذهول وشلل ، وأسرع الحوت يمسك بذراعه قائلا :

- أرجوك لا تقع في الخطأ وتتورط في ذكريات الماضي ..
انني اعتسرف لك لأنني أريد أن أتخلص نهائيا من هذه
الذكريات .. لتفرغ لما هو أهم .

رد « يوسف » ذاهلا والغضب ينهشه :

- أنت مجرم .. مجرم .

قال الحوت بصوت

صارم لا انفعال فيه وكان

يحتفظ بابتسامته :

- مهلا يا سيد يوسف

.. قبل ان توجه الاتهام

الى اسمع ما اعرفه

عنه .. فقد توجه

الاتهام الى نفسك .. ان

ابنك حسن قد وصل الينا

وهو لا يصلح لشيء آخر



صاح يوسف :

— من الذى يجرو على منعى ؟!

قال الحوت وهو يتوقف عن الضحك بجهد ملحوظ .. كأنه يطرد القهقهة لتختفى فى الفضاء ..

— أنت .. أنت نفسك يا أستاذ ..

صاح فى عناد :

— أبدا .. سوف أطلب العودة هذه اللحظة .. وسوف

تأتى معى ..

قال الحوت وقد تخلص من الضحك وبرزت البرودة فى

زجاج عينيه :

— لا أحد يمنعك .. ولا أحد يعترض طريقك .. ولا أحد من

الذين تراهم من حولك لم تراوده هذه الرغبة أكثر من مرة ..

مصحوبة أحيانا بهياج شديد لا يقارن بما أنت عليه الآن ..

ولكنهم جميعهم بقوا .. ما عدا ثلاث حالات أو ربما أربع إذا

لم تخنى الذاكرة .. خرجوا من هنا الى هذه الصحراء ..

واختفوا ..

وأشار الحوت بذراعه الى الأفق البعيد حيث يلتقى التراب

بالسمااء وقال :

— لا أظن أن هذا هو طريق العودة ..

ألح يوسف :

— لا أصدقك .. وأنا مصمم على العودة .. فهل لك أن

تأتى معى ؟

قال الحوت ساخرا :

— بكل سرور .. ولكن ليس قبل أن تسمع اعترافاتى ..

قال يوسف مسترييا :

— وما الذى يمنعك من أن تعترف ونحن فى طريق العودة ؟

قال الحوت وهو يهز رأسه يعلن رفضه لما يسمع :

— هذه فرصتك .. الآن فى هذا المكان أريد أن أتكلم ..

ولكننى غير واثق أتنى سابوح لك بشىء إذا طلبنا العودة .. قد

تصيبنى نكسة لا أفوق منها الا بعد سنوات ..

سأله يوسف فى دهشة :

— نكسة .. أية نكسة .. ؟

قال الحوت باسماء :

— مثل تلك التى أصبت أنت بها .. ولم تفق منها الا هذا

الصباح ..

قال يوسف :

— انها لم تدم أكثر من ليلة ..

هز الحوت رأسه منكرا ..

— ليلة .. انى لا أستطيع أن أحصى كم مرة أشرقت فيها

الشمس وغابت منذ رأيتك تدخل قاعة الدومينو لأول مرة ..

همس يوسف ومخاوف غامضة تتسرب اليه :

— هذا غير صحيح .. لا أحد يستطيع أن يخدعنى .. لقد

جئت الى هنا بالأمس .. وكنت ليلة أول أمس فى زيوريخ ..

اليوم هو السبت ..

قال الحوت متجاهلاً مقاومته :

... سيأتى يوم ستقتنع فيه بما أقوله لك .. سترى وافداً جديداً يأتى .. ويختفى حتى تنسى أنه جاء .. ثم سيقابلك بعد أن يستيقظ .. وسيدمّشك أنه يظن أنه جاء بالأمس فقط .. هذا بالضبط هو ما حدث لكوساً .. وشهدته بعيني .. وكان سبباً مباشراً لإزالة أى شك فى نفسى حول هذا الأمر ..

همس يوسف وقد اشتدت مخاوفه :

... أتريد منى أن أصدق هذا .. أننا فى نزهة سياحية ولسنا فى سجن أو معتقل والذي جاء بى الى هنا .. صديق .. هز الحوت رأسه لسماعه يوسف يذكر الصديق .. وقال :

... نعم .. لا بد أنه صديقك مراد .. اضطرب يوسف .. وخشى أن يسقط كما سقط عندما ذكر له ميرزا الفلكى اسم أمه .. وأسرع الحوت يمسك به بقوة قائلاً وكأنه يدرك ما يعانى منه :

... لا تخف .. لقد استرحت بما فيه الكفاية ويمكنك أن تصمد لما تسمعه وتعرفه .. أنك الآن أقوى بكثير .. مما كنت عليه فى يومك الأول ..

همس يوسف بصعوبة :

... أنت تعرف مراد ؟

قال الحوت مشجعاً :

... نعم .. ولكن دعنى أحدثك أولاً عن ابنك حسن .. فهذا هو ما يعينى .. أما معلوماتى عن مراد فهي معلومات لا بد أن يعرفها رجل مثلى كان مسئولاً عن المباحث يوماً ما ..

أهتج .. أراد أن يقول كلمات حاسمة ، ولكن اضطرابه يؤدى به الى نوع من الاستسلام .. الوقت طبعاً .. وكان الحوت مازال يشجعه قائلاً بنعومة كاملة :

... ليس لديك مانع أن تكمل مشوارنا .. لا مانع من الفرجة .. المشى فى الصحراء مفيد .. ولسوف أشعر بقدرة أكبر على الإفصاح والتعبير ونحن نتقدم ونتوغل فى هذه الصحراء .. ولا تقلق .. بعد أن أفرغ من حكايتى سوف نعود .. ولك أن تأمرهم أن يعدوا اجراءات السفر .. الأمر بالنسبة لهم لا يحتاج الى بذل أى جهد .. سوف تحضر السيارة فى الحال .. ويحملون حقائبك .. والهليوكبتر فى انتظارك فى أية لحظة .. نظر اليه متشككاً وهو يمشى بخطوات ثقيلة بجواره وقال :

... منذ لحظة كنت تقول أن العودة مستحيلة ..

قال الحوت :

... لم أقل هذا .. كل ما قلته أنك الذى سوف تمتنع عن العودة .. وربما هنا أفضل .. وربما لأنهم يمارسون تجاربهم فى السيطرة على البشر بالاضافة الى عمليات جمع المعلومات عنا .. ولا أظن أنهم ينفقون أموالاً طائلة على هذا المشروع ، لينتهى الأمر بأن

يقبلوا خداع أنفسهم .. انهم يمارسون تجاريهم للابقاء عليك .
مستخدمين وسائل لو أفلحت هنا فسيطبقونها على البشر في
العالم كله وهي وسائل لا تستطيع أن ندركها أو نلم بأبعادها
.. وأنا شخصيا لا يعنيني الآن معرفة هذه الوسائل .. أنا
رجل مسالم ، خدمت يا سيد يوسف ثمانية وثلاثين عاما ولم
يضم ملف خدمتي جزاء واحدا ، حتى لفت نظر .. ملف خدمة
من أنظف الملفات التي عرفها تاريخ الخدمة في الشرطة ..
لأنني كنت أعرف حدودي ، أطيع الرؤساء طاعة أفر بانها
مطلقة ، لا أثير مشاكل ، بل أتجنبها ولا أتورط فيها . وطوال
مدة خدمتي كنت موضع ثقة جميع الحكام .. عندك آدم
ريشفسكي الذي قابلته في قاعة الدومينو .. هل تذكره ..

همس يوسف وهو يتذكر أنه رآه فيما يشبه الأحلام وهو
يجلس مع حاشية الملك في الأريزونا بينما كان يرقص مع
جاني ..

– نعم .. أنكره ..

قال الحوت :

– أنه يروى لك ويشهد بأن المباحث لم تجد من هو أصلح
منى لمراقبة أم فاروق أثناء خلافها معه .. كنت أتعرض
لمواقف محرجة .

وانحنى الحوت فجأة وقبض في يده حفنة من القراب ،
أو الرمال المسحوقة الناعمة كالقراب وقال :

– سوف تعود .. إذا نجحت في العودة .. وإن تعرف
أبدا أين كنت .. ولكن المؤسسة التي تجرى تجاربها علينا
سوف تعرف أن هناك خلا في وسائل سيطرتها .. وسوف
تستفيد من قدرتك على اتخاذ قرار العودة وتنفيذه .. وسوف
تدرسه وتكتشف مصلا جديدا أقوى وأشد فاعلية للسيطرة ..
أما أنا فساواصل بحثي لأعرف أين أكون .. أحيانا أشعر أن
هذا امر لابد منه .. لو لم أعرف فلن يكون هناك معنى لأي
شيء .. وعندئذ ألتحق نهائيا بقاعة الدومينو حيث ينتظرني
الاستاذ كريم شاكر .

وتسرب القراب بين يدي الحوت وهو ينظر في اتجاه الأفق
قبل أن يواصل السير وهو يتبعه ، قدماه تغوصان في القراب ،
لا يدري معنى لهذا السير ، سوى أن يبدأ الحوت في رواية
حكايته ، كانت مشاعره نافرة من حديث الحوت عن عدم
استطاعته العودة ، وعقله يرفض ، وخياله يرفض أن ترتبط
عودته بأرادته هو شخصيا ، يفرضها وينتصر بها ضد ارادة
المؤسسة السياحية الدولية ، ومع ذلك هناك شيء يتولد في
اعماقه ، لا صلة له بالمشاعر أو العقل أو الخيال ، شيء خافت
غامض غبي ، جرثومة ما تنتقل اليه عن طريق آخر غير الوعي
أو الشعور أو حتى الالهام ، أن الحوت صادق فيما يقول ..
وأنه ليس مجنونا تماما كما خيل إليه أول الأمر .. وقبل أن
يكتمل المعنى الذي يريد أن يصيغه وجد نفسه يستحث الحوت
أن يتكلم :

- ساستمع الى حكايتك .
- قال الحوت وعيناه مشدودتان الى الأفق :
- طبعاً .. حتى نستريح جميعاً .
- ثم التفت الحوت اليه وابتسم :
- اطمئن .. لابد ان نصل الى ما نريد .

وعاود الحوت المشى صامتا بعض الوقت .. والصحراء هي الصحراء ، والأفق مازال بعيداً ، والمباني والأرض الخضراء وملاعب الكروكية تبعد خلفهما ، والشمس فوق راسيهما ، وظلالهما قصيران يهولان بجواريهما ، تابعين ابلهين ، ووقف الحوت قائلاً فجأة :

- اسمع لي قبل ان أحكى حكايتي .. ان أصلى فقد جاء موعد صلاة الظهر .

قال للحوت وخاطر مفاجيء يلمع في راسه :

- معنى ذلك أنك اكتشفت اتجاه القبلة ؟

اجاب الحوت بصوت ناعم كالمخاطب نفسه :

- لم أستطع جغرافياً .. فلست أدري موقعنا من الشرق سوى ان الشمس تشرق من هناك .

وأشار الحوت بيده في اتجاه يميل الى يسار المباني والأرض الخضراء خلفهما ثم اربف قائلاً :

- لو ان هذا المكان في شرق آسيا لوجب ان نتجه في صلاتنا الى الغرب أو الجنوب الغربي .. ولو كان في افريقيا لاتجهنا

الى الشرق .. ولو كان في الشمال لاتجهنا الى الجنوب والشرق ، ولو كنا في استراليا لاتجهنا الى الشمال والغرب .

قاطعه باهتمام :

- ألم تصل في بحثك الى رأى ؟

اجاب الحوت :

- لا ..

فسأله :

- ولكن من حقك ان تسالهم .. من حقك ان تعرف ..

لا يستطيع احد ان يحرمك من الصلاة .. هذا حق مقدس .

اجاب الحوت :

- لا احد يعرف هنا .

فسأله :

- وماذا تفعل .. كيف تختار القبلة .

قال الحوت :

- اختار بقلبي .

فسأله :

- الا تشك فيما يختاره قلبك ؟

اجاب الحوت بنعومة وثقة :

- لا ، لأنى اختار ما تعودت عليه ، اتجه الى الجنوب

الشرقي .. من الصعب ان تغير عادات رجل يؤمن

بالانضباط .

ثم اضاف بنعومة ساخرة :

- رغم أن آخرين يصلون في اتجاهات أخرى .. ابراهيم المنجى يغير القبلة مع كل صلاة .. ويردد أن الله في كل مكان .. وأنه يغفر لنا جهلنا .. ولكنّه يسـمـع في نفس الوقت الى أن تكون صلاته نحو القبلة الصحيحة في وقت ما .. أما اذا اختار قبلة معينة بقلبه فقد لا تكون صحيحة .. فتكون صلاته كلها محرومة من الاتجاه السليم .

انه طبيب مولد كما تعلم .

قال يوسف :

- نعم اذكره .. انه الذى سخر منى .. وقال انى مصاب

بالتهاب البروستاتا .

قال الحوت بصوت غريب عنه اقرب الى الهمس :

- لقد جاء الى هنا قبلى .. وهو الذى اشرف على ولادة

البتنين .. اما الولد فقد أخرجه .

وسكت الحوت كأن الكلمة ضاعت منه .. وعاد يقول

هامسا :

- وقيت البنتان .. انهما مجبنة .. حتى وانت رئيس

جهاز الشرطة .. البنات مجبنة .

وهز رأسه ليخرج من همسه ورفع صوته مغيرا الحديث

وقاطعا التكريات :

آدم ريشفسكى يصلى وهو يدور في كل اتجاه .. القيام

في اتجاه والسجود في اتجاه .

سأله يوسف :

- أهو مسلم ؟

قال الحوت :

- أسلم على يد فاروق .. كان جالسا معه على مائدة

البوكر .. ودفع فاروق خمسين ألف جنيه الى وسط المائدة ..

وقبل آدم وهو يدفع بكل أمواله ثمانين ألفا .. وهنا تصرف

فاروق على غير عادته .. قهقهه وقال : يا ليفى .. كان اسمه

ليفى - سأعفيك حتى لا تخسر فقال آدم واثقا من نفسه : لن

أخسر يا مولاي .. قال فاروق : بل ستخسر فظن آدم أن

الملك يخدعه .. كانت أوراقه « كنت رويال » ليس هناك أقوى

منها عندئذ قال الملك وهو مازال يقهقه ، مازلت أعطيك فرصة

أخرى .. فقال آدم مصرا : يا مولاي .. لو خسرت بالأوراق

التي في يدي فأقسم أنى سأخرج من دينى .. قال له فاروق :

وتشهر اسمك .. قال آدم .. نعم يا مولاي .. وكشف

فاروق أوراقه .. فإذا هى كنت رويال بالأس .. وآدم أوراقه

كنت رويال بالروا .. معجزة لا تحدث الا كل ألف عام ..

وكسب الملك .. ولطم آدم وجهه يكلتا يديه والملك يبكي بدموع

النشوة .. وأشهر اسمه .. وغير اسمه من ليفى الى آدم

وزادت صلاته بالملك .. وكسب الملايين فى عمليات توريد

الأسلحة أيام حرب فلسطين .

وقال الصوت وهو يغمز بعينه الزجاجيتين :

- اسلام من نوع آخر .. غير اسلام ابنك حسن .

همس يوسف :

- انه يقول اننا جميعا كفار .

قال الصوت بلهجة عملية :

- دعني أصلي أولا .. واذا أردت أن تشاركني .. فاختر

بقلبك القبلة .. فما تختاره القلوب يختلف بين قلب وقلب ..

المهم أن تثق أن اختيارك هو الصحيح .. وصلاتنا جميعا

مقبولة .. فهو أعلم بظروفنا وهو الذي يهدينا ويضلنا كما

يشاء وله في ذلك حكمة .

وقال الصوت مكلا وهو يتجه الى قبلته في اتجاه المباني

والملاعب :

- بالطبع لقد حرمتنا من صلاة الجماعة .. وحرمتنا من

صلاة الجمعة .. فلا أحد يتفق مع الآخر بقلبه على القبلة التي

نتجه اليها .

ثم قطع الصوت كلامه وابتسم قبل أن يقول بنعومته

الساخرة :

- طبعاً أنت لن تصلي .. لأنني أعرف أنك لم تركع ركعة

واحدة في حياتك .

قال يوسف في دهشة :

- حتى هذا تعرفه .

قال الصوت :

قلت لك اني أعرف الكثير .

قال يوسف وقد تملكته رغبة مفاجئة في الفرار بأسرع وقت

من هذا المكان :

- لا تحاسبني .. هو وحده الذي يحاسبني .

فتنظر اليه الصوت نظرة طويلة

من خلال عينيه الزجاجيتين ،

ويدا أنه سيقول شيئاً ، ولكنه

استدار الى قبلته التي اختارها

الجنوب الشرقي . نفس الاتجاه

الذي اعتاد عليه طوال حياته ..

وانشغل عنه وعن الصحراء

والتراب وعن الأفق ، بالصلاة .

وقف يرقبه حائراً ثم تلفت

حوله ، الفضاء صامت ، والأفق

يعيد .. والسماء عالية ، وهو

جامد مكانه ، قدماء في التراب

ووجه ابنه حسن يملأ عينيه ،

وصوته المتهدج الغاضب

اليائس يصرخ : أنت كافر .

وهي كافرة . رفض حسن أن

يتنطق بكلمة أمي ..



كأنه ولد من أم أخسرى غدير زينب .. وسأل ابنه بأى حق تحكم على أبيك وبأى حق تتهم أمك التى ولدتك بالكفر .. ومن الذى يتولى اطلاق الاتهامات والأحكام والقيام بعملية الحساب قبل يوم الحساب ، ورفض حسن أن يدخل معه فى مناقشة ، قال حسن : أسئلتك هذه هى وسوسة الشيطان ، وأدار له ظهره فانقطع الكلام .. انقطع ما بينهما ، انقطع كل ما كان بينهما .. انقطع كل ما يمكن أن يكون بينهما .. ومع ذلك لم ينقطع شيء .. فهو مازال حسن ابنه ، وها هو وجه حسن يملأ عينيه أينما ذهب وسيظل هذا الوجه يملأ عينيه .. لا الغيبة ولا قضبان السجن ولا اتهام الكفر ولا وسوسة الشيطان ، ولا أى شيء بقادر على أن يقطع ما انقطع ، ما أعجب هذه الدنيا .

لقد التجأ الى هذا المكان المجهول طالبا للراحة من كل هذا الذى أفسد حياته ، فاذا به وجها لوجه مع هذا الرجل الذى يقول له أنا السبب فيما حدث لابنك وأريد أن أعترف لك . أهذا لقاء من تدبير الله ، أم هو لقاء من تدبير تلك القوى المسيطرة الحاكمة التى يتحدث عنها اللواء الحوت .. ترى ما الذى يريدون اضافته الى آلتهم الحاسوبية وعقولهم الالكترونية من معلومات .. أهى دراسة لأجراءات صنع الارهابى .. دراسة للبيئة التى يخرج منها الولد الذى يتهم كل من حوله بالكفر .. دراسة تشمل المشاعر والتصرفات

والخلجات والخواطر وكل شيء ممكن حتى يتحول الانسان الى جهاز معروف ومدرس شأنه شأن أى جهاز آخر تديره بالأزرار أو التوجيه عن بعد وهو خاضع مستسلم تماما لكل ما تريده منه السلطة .. لا يشور ولا يفعل ولا يغضب ولا يقاوم .. ان حسن على النقيض من هذا كله وأنه الأمر عجيب أن يكون رجل السلطة هو الذى صنعه . كان يسأله وهو واقف وراء القضبان فى قاعة محكمة الجنايات :

- هل يرضيك يا حسن هذا الذى أصبحنا فيه .
قال الولد :

- نعم يرضينى .
همس وقلبه يتمزق :
- يرضيك السجن .

قال الولد :

- السجن أحب الى مما تدعونى اليه .
قال :

- أنا لا أدعوك الى شر .. لا أدعوك الى ما يغضب الله .
قال حسن متحديا :

- أنت لا تدعونى الى الجهاد .

قال يائسا :

- الجهاد ضد من .. أنت تدمر نفسك .

قال حسن بجرأة :

• بل أنقذها •

قال وهو يرى حسن من خلال غشاوة دموع :

• تنقذها بالسجن • • بالانتحار •

قال حسن :

• ليس هذا انتحارا • • أنا أحارب • • والسجن والحرب

سيان • • لست أتوقع غير هذا ما دمت أحارب الكفر والفساد

والانحلال •

غاب حسن عن البيت أول يوم في العيد الكبير • • كان في

الرابعة عشرة من عمره ، ليلة العيد قال لأمه :

• أنت متبرجة •

صاحت غاضبة :

• اخرس يا قليل الأدب •

قال مصرا :

• لست قليل الأدب • • التبرج هو قلة الأدب •

فهجمت زينب عليه تريد أن تصفعه • • فأمسك بذراعها ،

وصرخ في وجهها :

• أياك أن تمدى يدك على •

خافت زينب • • عندما دخل يوسف البيت حاملا معه

صندوق الحلاوى • • وجدها أغلقت باب حجرة النوم عليها

بالمفتاح ، قالت له :

• أنا أو ابنك •

قال لها :

• إنه ابنك أيضا •

قالت :

• أنت المسئول عن تربيته في هذه السن •

كانت لا تدرك أنها تفجر كل ما في نفسه من مرارة وغضب

ورغبة مجذونة في الانتقام • • وهو في الرابعة عشرة كان

أبوه قد ذهب ، وكانت أمه تتزوج لطيف صبرى • • وكانت

عصابة اليد السوداء تنذره بالفضيحة • • كانت الصبور

والمشاهد تتداعى في رأسه وهو مندفع نحو حجرة حسن ،

كان مندفعاً نحو نفسه ، نحو يوسف المراهق ، يوسف الذى

يرى الدنيا سوداء سافلة دنيئة • • يوسف الذى يريد أن ينتقم

من أمه • • كلما أراد أن يتخلص من هذا اليوسف عاد إليه ،

ها هو يوسف الجديد ، حسن يوسف منصور ، يكرر المشهد

القديم ، ويهدد أمه •

صاح وهو يصفع الولد :

• اذهب واعتذر لأمك :

قال الولد متحديا :

• لن أعتذر •

قال له ثائرا :

• اخرج من البيت •

قصة يوسف

الى حيث يذهب .. يغور في سستين
داهية ، قالها يوسف ، وهو يزفر هواء الغضب ويشعر لدهشته
أنه تخلص بطرد ابنه من البيت ، من شيء في نفسه أراد أن
يتخلص منه منذ زمن بعيد فلم يفلح ، ولكنه نجح الآن في
ازاحة هذا الكابوس الذي جثم على صدره لسنوات وسنوات ،
لقد خرج مطروداً مع حسن ، ذلك الصبي المراهق الذي كان
اسمه يوسف ، ان باب المسكن ينطلق بشده محدثاً دويماً هائلاً
فيقيم سداً سميكاً بينه وبين حسن وبينه وبين يوسف الذي
كان في مثل سن حسن ، كلاهما خرجا الولد بلحمه ودمه
ووقاحته وقلة أدبه ، وتكريات الأب عن صباه ، بآلامها
وعجزها وسخفها بلا حدود .

كان يلهث ، قواه خائرة ، قلبه يدق بعنف ، ولكن آن الأوان
ليستريح بعض الشيء بعد هذا المجهود الذي بذله والذي مكنه
من أن يفرض إرادته .. نعم يفرض إرادته في هذا البيت
الذي جمعهم ثلاثتهم ، هو وزينب وحسن ، ليواجه في كل
يوم ، في كل ساعة ، أنهم أصبحوا غريباء ، لا يطيق أحدهم
الآخر ، التحدى في نظراتهم ، الغضب في صدورهم ، التحفز

قال الولد :

— لا .. هذا بيتي .

فهجم على ابنه .. يدفعه .. والولد يقاوم .. يصرفه
والولد يتحاشى الصفعات ، يركله والولد يريد أن يفلت ..
كان يوسف يلهث .. وكان يدرك أن قواه سوف تخور سريعاً ،
وكان يخشى اللحظة التي يتحول فيها دفاع الولد عن نفسه
الى هجوم عليه .. وملاً الرعب قلبه .. فازداد شراسة
وهاجت صرخاته ، وجاءت تلك اللحظة التي انتصب فيها
حسن رافعاً رأسه وقد شد قامته .. حانت اللحظة التي سيبرد
فيها الصفعات والركلات .. ولكنه .. لأمر ما نظر لأبيه ،
وأدار ظهره وخرج من البيت بالبيجامه والشبشب .



للاقتضاض في حركاتهم ، الآن
تعلم زينب أنه قادر على اتخاذ
القرار ، تستطيع أن تفهم ، بل
لقد فهمت بكل تأكيد ، انه اذا
كان يستطيع أن يطرد ابنه كما
فعل منذ لحظات ، فهو قادر
على أن يطردها ، يطلقها .

انها لن تخطيء فهم ما حدث ، وفوق ذلك انها لا تدرك أنه
الآن في لحظة من لحظات قوته ، لقد انتصر على نفسه ،
واجتاح ذكريات واشباح ماضية ، فأصبح من السهل عليه
أن يجتاحها ويسحقها بلا تردد .

مشى الى حجرة المكتب ، وألقى بجسده على المقعد الذي
اعتاد الجلوس عليه لساعات بالقرب من النافذة ، يقرأ
أو يترك لأفكاره حرية التشرد ، المقعد ضخم مكسو بالجلد
الأخضر ذو مسندين عريضين ، انه الشيء الوحيد الذي يضم
جسده بين أحضانها عندما يحتدم الشجار بينه وبين زينب
فيترك لها حجرة النوم ، لم يقل لها أبدا انه اختار هذا المقعد ،
والح في شرائه لأنه يشبه المقعد الذي كان يجلس عليه أبوه في
بيت جاردن سيتي ، ويشبه المقعد الذي كان يجلس عليه جده
في بيت محرم بك بالأسكندرية .

كان يريد أن يحمي المقعد من غيرتها ، ثم اكتشف أنه لابد
أن يحمي المقعد من جام انتقامها فلو عرفت أنه يستريح اليه
ويجد دفئا بين أحضانها لمزقته اربا لأنها لا تحتمل ان تتركه
يستريح أو يشعر بالدفء . . يتوسل اليها أن تتركه في حاله ،
لم أعد أتحمّل مواصلة الصراع يا زينب ، أمستحيل أن أجد
بعض الهدوء ، أحرام أن ننعم ببعض السكينة ! فكأنه
يستفزها ، تزمجر . . أتريد أن تستريح من الراحة ؟! أتريد
أن أشقى وأتعب ويضيع عمري معك وأنت تستريح كالرمة ،
لا يا زينب ، الآن أنا لا أستريح كالرمة ، أنا أجلس على هذا
المقعد واثقا قادرا ، هذا المقعد لا يمنحني الآن الدفء ، أنا
الذي أمنحه اياه ، أمنحه ما هو أكثر من الدفء ، أنى أرفعه
الى مستوى مقعد أبى ومقعد جدى ، أنا أجلس عليه ، أنا
أضع ذراعى وكفائى على مسنديه ، أنا أستقر عليه بثقلى ،
أنا اضغط عليه بظهري ، هكذا يجب أن تكون المقاعد التي
يجلس عليها أمثالى القادرون على اتخاذ القرارات .

انتبه على الباب يفتح ، حول رأسه ليراها ، ها هي واقفة
عند الباب ، عيناها السوداوتان ساهمتان ، شعرها الكستنائى
المقصوص مشعث على غير عادتها ، خصلاته ناعمة ، وجهها
شاحب مستطيل ، وشفتها السفلى متدلّية ناعمة من شففتها
العليى ، تنظر اليه ولا تتكلم ، وهو ينظر اليها ولا يتكلم ،
أهى مباراة فى النظرات ؟! العيون تلتقى وتتصادم ، ولا صوت

ولا معنى ولا أى شيء تتناقله النظرات الجامدة المتصادمة ،
لم تقو على الاستمرار وتحقق من قوته عندما سمعها وقد
خرجت عن الصمت ولجأت الى الكلام بعد فشل النظرات ..
كانت تقول بصوت غلبه الانفعال :

- كان لابد من تأديبه .

استسلام كامل من جانبها ، اعتراف لا ريب فيه بأنه اتخذ
القرار ونفذه ، واصل ارسال نظراته القوية اليها وهو يقول
لنفسه :

كان لابد من تأديبك أولا .

ولكنه لا يريد أن يتكلم ، ليس بحاجة الى أن يقول أى شيء ،
بل هو يستطيع الآن أن يحول نظراته عنها ، وهذا هو ما فعله ،
اتجه بنظراته الى النافذة ، ففى زينب ، وقد خطر له أنه لو
نهض من المقعد وأطل من خلف الزجاج فربما رأى حسن وهو
يسير فى الشارع ، يسير بالبيجامة والشبشب .

وسمعها تقول :

- ليس معه نقود .

التفت اليها وصرخ فى شراسة :

- لا يهمنى .. عليه ان يواجه مسئولية تمرده .. ان
مثله فى بلاد أخرى يقول له أبوه .. تحمل نفقات تعليمك
وطعامك وشرابك .

همست كأنها تخاطب نفسها :

- لكنه ..

لم يدعها تكمل ، لن يتركها تواصل الحديث معه ، ضرب
مسند المقعد بكفيه يريد أن يحطمه ، وانطلقت ساقه قرص
الفضاء أمامه .

وقال بكل ما لديه من طاقة غضب :

- يغور فى ستين داهية .. لن يستعبدنى .. ولو ضعفت
أمامه أو تخاذلت فسيأتى اليوم الذى يضربنى فيه .. وسأكون
فى حال أضعف .

همست لدهشة :

- كاد أن يضربنى .

انها تستسلم تماما .. تشكو له تصرفات الولد .. تعترف
بأنها خافت .. انها منهارة تماما .

قال بقوة وكفه تضرب على المسند :

- انن لا داعى للكلام .. ولا للتخاذل .

همست :

- لست متخاذلة .

فمضى يقول كأنه لم يسمعها :

- لا تقولى انه خرج بلا نقود .. ولا تسألينى أين ذهب
فى هذه الساعة .. ولا تذكرينى بأن اليوم عيد .. كل هذا
لا يعنينى .. ان هذا الولد قد فسد ولن أسمح له بأن يفرض
فساده على بيتى .. أنا حر فى بيتى .. وهو حر يفعل

ما يشاء في أى مكان آخر .. أرض الله واسعة .
وصوب إليها نظرات قوية ، وهو يراجع نفسه في أمر
ارتفاع صوته ، مقررًا أن الأفضل هو أن يخفض صوته ليبدو
في مظهر أفضل من الاتزان والوقار .

قال بصوته الجديد الوقور :

- اذهبى .. أنت .. ونامى .

همست وهى تنظر إليه وشحوبها يزداد ، وعيناها تدمعان :
- وأنت ..

ولم تكمل .. كانت الدموع قد وصلت الى صوتها .
قال متجاهلاً دموعها بصوته الخفيض الوقور وكأنه يتحدث
في أمر لا يهمه :

- أريد أن أجلس هنا وحدى بعض الوقت .

ثم قال بلهجة سريعة :

- اذهبى .. ونامى .. لا داعى للوقوف هكذا .. نحن فى
الفجر .

نظرت إليه ، تفحصه ، كأنها تراه من جديد ، وتتعرف فيه
على شخص لم تعرفه من قبل ، هكذا خيل إليه ، بدا أنها
مترددة ، وأوشكت أن تقول شيئًا ، ثم تراجعته ، وأدارت له
ظهرها وأغلقت الباب .

استنشق الهواء بعد اختفائها ، فشعر به يملأ رئتيه ،
وشعر فى نفس الوقت بقوة فى جلد بطنه ، فضغط عليها

بكفه ، وهو يستشعر معنى جديدًا مدهشًا يتمدد فى نفسه ،
لقد عاقب زينب بطرده لحسن ، وأنها حيث أرادت أن تلومه
على إفساده للولد ، وإهماله لتربيته ، قد وجه إليها صفقة
فى الصميم عندما طرد ابنها أمامها ، عندما شكت له حسن ،
كانت قتهمة هو بالوقاحة ، عندما قالت انها خافت اعتداء الولد
عليها ، وانها أغلقت على نفسها حجرة النوم بالمفتاح ، كانت
تريد أن تقول له : انى لا أريدك وأنفرك منك ، نعم هذا هو
الأقرب الى الحقيقة من تصوره السابق ، أنه كان يعاقب الصبى
المراهق الكامن فى أعماقه بذكرياته وأشباهه وهو يعاقب
حسن ، ليس صحيحًا أن حسن هو يوسف الذى تصادم مع
أمه كوثر هانم منصور التى غيرت اسمها الى كوثر هانم
صبرى ، وليس صحيحًا أن خروج حسن الآن هو ما كان يجب
أن يفعله يوسف منذ خمسة وثلاثين عاما عندما عجز عن ترك
بيت أمه ، الأمر مختلف تماما ، ولقد حمل يوسف عجزه عن
التصرف معه ، وفرضه على حياته وعلى كل من اختلط بهم فى
هذه الحياة ، أما حسن فقد خرج يواجه القحدى ، ومن يدري
لعله يفلح ويصبح له شأن عظيم حتى لو بدأ الآن حياته شحاذًا
فى الطرقات .

على أية حال ان الأمر لن يصل الى هذا الحضيض ،
فأغلب الظن أنه سيسير فى شوارع مصر الجديدة حتى يصل
الى بيت عمته كريمة ، ولنسوف تنزعج عندما تراه يدخل عليها

بالبيجاما والشبشب ، وسيروى لها قصة مختلفة ، وسيحاول أن يكسبها الى صفه ، ولكن كريمة عاقلة وستحسن التصرف ولنسوف تعود به ليعتذر بعد أن تتصل به بالتليفون لتطمئنه ، وعليه ان يفكر من الآن فيما سيقوله لكريمة غاضبا ، عليه ان يضع شروطا لدخوله البيت مرة أخرى ، ان يكف الولد عن استخدام تلك اللهجة الوقحة وهو يتهم أباه بالكفر ، عليه ان يحترم الصور التي يطالب بتزعها من الجدران ، ان يبين هذه الصور صورة جدك يا كريمة ، الصورة التي كنت تريد تعطيها في بيتك .

ألم تقولى لحسن أنه يشبه جده في ملامح الوجه ، وعيناه الضيقتان الماكرتان ورأسه الكبير وجبهته البارزة ، وشفتاه الرفيعتان والذقن المستديره والأنف القصير كالمنقار ، كم مضى من عمره وهو يراقب هذه الصورة ويتبعها قبل مجيء حسن ، وكم مضى من عمره وهو يراقب هذه الصورة ويتفحصها ليعقد مقارنة بين ملامح حسن ولامحه ولامح أبيه ولامح جده .

هل يحرم الدين أن يتعرف الانسان على ملامح أبنائه وآبائه وأجداده ، الشيخ عبد السلام صبرى لم يعترض أبدا على نشر صورته في المجلات والصحف ، وكانت صورته وهو مجلس الى مكتبه شبيها جليلا مهيبا للأزهر تحتل مكان الصدارة في حجرة الضيوف ببيته في جاردن سيتي ، لم يسمع منه أبدا أن صورة شقيقه لطيف صبرى مع زوجته الجديدة

كوثر هانم حرام .

قال له : يا بنى ان ما فعلته أمك حلال وفيه صون لها ولك ولم يقل له ان الزواج حرام وان صورة الزواج حرام ، وبعد أن تحمل الزواج والصورة كل هذه السنوات يأتى هذا الولد ليقول له فى وقاحة انزع صورة جدك وصور جدى وكل صورة فى البيت لأنها كلها صور حرام ، وقاحة لا حدود لها تزداد حتى تصل الى درجة الاستفزاز وهو يقول له بلهجة أمره : لابد أن تصلى .

الحاج واستفزاز يريكه لأنه لا يجد اجابات واضحة يرد بها مفسرا أنه مسلم لا يصلى ، يؤمن بالله ورسوله وملائكته واليوم الآخر ولا يصلى ، كان يكتفى بأن يقول له لا شأن لك بى ، أنا حر فيما أفعل ، الله وحده هو الذى يحاسبنى ، وهو وحده يعلم ما فى صدرى ، لم يقل له انه كان له هو أيضا أب ، وكان هذا الأب هو جدك لا يصلى ، ولم يطلب منى أن أصلى ، مع ذلك لم يشك أحد فى اسلامى ، حتى الشيخ عبد السلام صبرى الذى يتبارك الناس به ويقبلون يده وهو يهبط من سيارته أمام البيت فى جاردن سيتي لم يتهمه يوما ما بالكفر ، كان يسأله برفق ، لماذا لا تصلى يا يوسف ، فيقول له ، أنا مسلم يا عمى ، فيقول الشيخ بصوته العريض المهيب ، حاشا لله أن تكون غير ذلك يا بنى ولكن الصلاة واجبة ، وما هى أمك تصلى وعمك لطيف يصلى ، لم يقل له زوج أمك ،

ولم يهدده ولم يتوعده ، كان يقول له بصوت أجش يفيض عاطفة ، الله تعالى ليس بحاجة الى صلاتك يا يوسف ، أنت الذى فى حاجة اليها ، ولست تخدم كثيرا لو أهملت هذا الفرض الذى فيه أمنك وراحة بالك .

كانت كلمات الشيخ تنفجر فى أعماقه بين وقت وآخر ، حتى أدرك أنه كان يصلى لأنه مصمم على أن يتمرد على كل ما تتميز به تلك العائلة المتدينة التى سلبت منه أمه . سيتبع أباه الذى لا يذكر أنه رآه يصلى حتى أخفى من هذه الدنيا ، ولن يتبع عائلة الشيخ صبرى حتى لو كان فى ذلك أمنه وراحة باله .

كيف يستريح وأمه زوجة رجل غير أبيه ، أنه يتعذب ، ويشعر بالمرارة والقهر ، بل يشعر بالفضيحة ، ولست تبق الأزيمة فى صدره ، لن يعالجها ، ولن يطفى لهيبها ، ولست يحمل قلبه المصدوع الى يوم الحساب ، ولست يقبل الحكم الذى قد يغفر وقد ينتقم ، قد يقهر ولكنه لا بد أن يعدل ، انها أزيمة لن يرضى فيها بحكم بشر مهما كان هؤلاء البشر ، ثم يأتى ابنه ليحدثه كعدو يتحداه كأنه خصم لدود لا والد له حق الاحترام والطاعة .

لماذا لم يفتح صدره لحسن ويحكى له مشاعره الحقيقية ، يقول له انه لم يتمرد على الدين ، ولكنه تمرد على أمه وزوجها ، كما تمرد على الجامعة وقرر أن يرسم فى كل امتحان مجرد أن يتمتع برؤية أمه تبكى يائسة . ربما لو كان

أفصح عن تمرد القديم لخفف من وطأة تمرد ابنه ، ذلك التمرد الجديد الذى ينقلب عليه كأنه انتقام مدير يريد أن يفرض عليه الاعتراف بهزيمته ، والاقرار بأن كل ما فعله كان عبثا وضياعا وهباء .

تملأ يوسف فى مقعده ، ونهض قبل أن يفكر لماذا نهض ، ونظر عبر الزجاج الى الشارع الذى اكتسى بضياء الفجر ندى الزرقة الناعمة ، كان يتوقع أن يرى حسن . وكان يوشك أن يقول لنفسه ، لو رأيت فلسوف اهبط اليه وأمضى معه الى صلاة العيد . ففوجئ بما روعه ، جموع يسرون فى ملابسهم البيضاء مهرولين صفوفًا بعد صفوف ، جماعة وراء جماعة ، وفتح الزجاج وأطل برأسه باحثا عن حسن واقفا على الرصيف تحت العمارة ، كان الرصيف خاليا ، والشارع مزدحما ، وسمع الله اكبر الله اكبر والله الحمد .

وكانت عربة جيب فيها رجال شرطة تسير على مهل على يمين الشارع وعلى الجانب الآخر كان بعض الرجال والنساء فى العمارات المواجهة يطلون من النوافذ والشرفات على السائرين المكبرين ، وقال يوسف لنفسه : لا بد أنه انضم هؤلاء الذاهبين الى صلاة العيد . لن يكون منظره شاذًا بينهم وهو سائر بالبيجامة والشبشب فأغلبهم يرتدون الجلابيب البيضاء ، وبينهم أولاد أصغر من حسن يرتدون البيجامات وينتعلون الشباشب . وقال لنفسه الولد لن يحتاج الى نقود للصلاة .

وقال لنفسه وقلبه يدق بشدة ، تركنى حسن لينضم الى هذه الحشود التى لا ينقطع تدفقها ولا ينقطع تكبيرها ، لابد أنه يشعر بينهم أنه الأقوى ، وهذا الشعور لابد أنه يرضيه ، وقال لنفسه والخوف يجتاحه لقد ضاع الولد .

كان يفكر فى أن حسن قد ورث عن جده الأكبر حب الزعامة والقيادة ، كانت أبلة هناء مدرسته فى روضة الأطفال هى أول من اكتشف فيه موهبة الزعامة ، فكانت تلعب بأصابعها فى شعر رأسه وتقول ليوسف :

— الولد عفريت . . كله حيوية وشقاوة .
قال لها :

— لعل المدرسة تستطيع كبح جماحه .
فاحتجت أبلة هناء قائلة :

— بالعكس . . ان شقاوته دليل على أن شخصيته ستكون قوية . . لقد لاحظت أنه القائد بين الأولاد فى الفصل .
قال لها مزهوا بما يسمع :

— نحن نقول أنه يشبه جده الكبير . . أى جدى أنا .

وأصبح من المألوف أن يردد فى كل مناسبة أن حسن سوف يكون قائدا عسكريا عظيما . . وأنه ورث هذه القيادة عن جده الكبير يوسف باشا منصور ، واقتنعت زينب بأن هذا هو مستقبل ابنها ، رغم كراهيتها للحرب ، واتهامها للحياة العسكرية بأنها حياة مظاهر وعجرفة ولا شيء أكثر من هذا .

عندما وصل حسن الى المرحلة الإعدادية كانت الحال قد تغيرت ، وأصبح المدرسون يطلبون من الأولاد الخضوع والطاعة العمياء . لا يعترفون بالشقاوة ولا بشيء اسمه الشخصية القوية . وواجه حسن ناظر المدرسة وهو يجمع شلة الأولاد الأشقياء وعلى رأسهم حسن وقال لهم وهو يضغط على اسنانه متوعدا :

— سوف أشقتكم . . لن يجمعكم فصل واحد . . سأبطش بكم بلا رحمة اذا صدر منكم أى شيء ضد النظام . فلما تزعم حسن فريق كرة القدم يلعب فى الفناء أثناء الفسحة ويثير ضجة غير عادية بين التلاميذ ، ألغى الناظر الفريق ، ونادى حسن . وقال له :

— سوف أحافظ على النظام فى المدرسة بمعاونتك . . لقد قررت انشاء فرقة للشرطة من تلاميذ المدرسة لمعاونتى فى الاشراف على النظام أثناء الفسحة . . وستكون أنت رئيس الفرقة .

وعاد حسن الى البيت وعلى رأسه طاقيّة حمراء بها خطوط بيضاء ، وعلى ذراعه شريط أحمر . وقال لأبيه مزهوا :

— أنا رئيس الشرطة فى المدرسة .
فسأله متعجبا :

— وماذا تفعل . . ؟

قال حسن بكبرياء القائد فيذكر يوسف بجده :

- أقف على باب الناظر أثناء الفسحة ، وأطل على الفناء
.. وإذا حدث شغب .. أقبض على التلاميذ المشاغبين ..
لحاكمتهم وتوقيع العقاب .

قال يوسف ضاحكا :

- عظيم « لقد أصبحت ذا سلطة » .

ثم أردف قائلا :

- هذا ما كانت تتوقعه أبله هناء وأنت في الروضة .. هل
تذكرها ..

وفوجيء بوجوم ينتاب حسن ، اختفى الزهو ومعالم
الكبرياء من وجهه ، وكأنه تذكر شيئا أفزعته . وقال وقد تغير
وجهه :

- نعم أذكرها ..

فسأله :

- مالك .. هل هناك ما يضايقك .. ؟

قال حسن شامدا :

- أبدا ..

بعد يوم كشف حسن عن همومه إذ قال له بعد أن عاد من
المدرسة على رأسه القبعة الحمراء ذات الخطوط البيضاء
وعلى ذراعه الشريط الأحمر .

- لا أظن أنني سأستمر كرئيس للمدرسة ..

فسأله في دهشة :

- ولماذا تتخلي عن مسئولياتك .. ليس هذا ما أتوقعه
منك .. ؟

قال حسن ببساطة :

- لأن هذا الوضع الجديد .. هو رشوة من المدرسة لأقف
ضد أصحابي ..

رشوة ، أتحدث هذا الولد الصغير عن الرشوة ، أفهم
معنى ما يقوله . أم هو يستعيد حوارا سمعه في تمثيلية في
التليفزيون .. ربما تمثيلية هو الذي كتبها ؟ !

قال لحسن وهو يحاول أن يتذكر بسرعة أية تمثيلية كتبها
فيها حديث عن الرشوة :

- لو سمعت أبله هناء بأنك تتخلي عن القيادة .. سوف
يخيب ظنها فيك .

قال حسن بسرعة :

- أبدا .. عندما ذكرتني بأبله هناء .. ساعدتني على أن
أأخذ قرارى ..

الولد يتحدث عن اتخاذ القرار . ماشاء الله .. وتذكر
ملف التحقيقات الذى نقل منه تمثيلية الرشوة ، فصاح :

- أنت تقلد بغباء ما تراه في التليفزيون .. المدرسة
لا ترشو .. والمحافطة على النظام شيء ضرورى لضمان
حسن تعليمكم .

ولكن حسن عاد الى البيت في اليوم التالي وقد نفذ قراره ،
خلع القبة الحمراء ذات الخيوط البيضاء ونزع الشريط
الأحمر عن ذراعه . تمرد على النظام ، ورفض ما يسميه
رشوة وانضم الى أصحابه المشاغبيين وجاء خطاب فصله
لمدة أسبوع ، وقال ناظر المدرسة ليوسف : انه لم يشهد في
حياته فوضى أو تمردا مثل هذا الذي يواجهه في ابنه حسن .
ورسب الولد في نهاية العام .

وقال حسن وهو يبكي :

- هذا ظلم . تعمدوا رسوبي . حتى يفرقوا بيني وبين
أصحابي .

قال له يوسف :

- مستحيل .

فصرخ حسن متحديا غاضبا . كانت أول مرة يصرخ فيها
في وجه أبيه :

- أنت لا تريد أن تدافع عني .

فبادله الصراخ :

- أنت الذي تبرر رسوبك وخيبتك .

ولكن حسن كان قد فقد احترامه للمدرسة . سقطت
هيبتها .

كان يردد :

- كل ما يهمهم النقود التي يقبضونها في الدروس
الخصوصية . . كان يكيل الاتهامات ، مدافعا عن زعامته ،
عن شخصيته التي أرادت أبله هذاء يوما ما أن تتيح لها أكبر
قدر من النمو . كان يدافع عن كلمات قديمة سسمها وهو
طفل ، انه يملك موهبة الزعامة والقيادة ، ان شخصيته قوية
كان مصرا على أن يحمي كل هذه الأوصاف والألقاب التي
اكتسبها في طفولته الأولى ، ضد الذين يريدون أن يحرموه
ويجردوه من صفاته وأسمائه التي امتلكها . ويهاجمونه
بأوصاف وأسماء أخرى ، انه فاشل وانه راسب ، وانه
مستهتر ، وانه كسول ، وانه غير فالح ولا يصلح لشيء .
ولم يفقد احترامه للمدرسة وحدها ، بل فقد احترامه في
نفس الوقت للمبيت . . كيف حدث هذا . . متى بدأ تمرد في
البيت أكون ذلك منذ تلك اللحظة التي حذر فيها الطبيب أمه
زينب من الاكتفاء بولد واحد ؟
كان حسن هو الذي ألح عليها أن تأتي له بأخ أو أخت ،
وكانت تضحك أو تسخر . فاذا بالغ في الحاحه سألقه اذا
كان يفضل أخا أو أختا ، وكانت تقول له : الأخ سوف
ينافسك . والأخت سوف تحملك مسئولية ، وكان يقول لها :
أخا أو أختا . . المهم أن تأتي لي بمن يكون معي ، ولكنني
بعد تفكير اعترف لزينب . انه يفضل أن تكون أختا . .
وفوجيء حسن ذات يوم عندما قالت له أمه : انه كانت له
أخت ذهبت بعد شهور من ولادتها . فلما عرف أن أمه تحتفظ

بصور لشقيقته سعاد ، تلك الشقيقة التي كانت • صمم على أن يرى الصور وجعل يحدق في وجه سعاد السمين المكبظ ، وعيناها الواسعتان تعبران عن كل دهشة الدنيا من رؤية الدنيا ، وابتسامة خفيفة تكاد لا ترى على الشفتين • ورفض حسن أن يترك الصور جعل يقبلها ، وفجأة قبلها وبكى ولم تجد زينب مفرا من انتزاعها من بين يديه فلم تعد تحتمل بكاءه ولا نظراته وما يثيره الموقف في نفسها من آلام وأحزان • ورغم ذلك صممت زينب ألا تكون لها تجربة أخرى في الولادة • كانت قد اقتنعت بأن كيانها وكرامتها لن يتأكدا في الحياة • وهي تتسول نقود ملايسها من يوسف ••

وكانت تدرك أن أعباء الحياة تزداد ، وأن قدرة يوسف على الكسب تضعف فهو مضطر الى انفاق الكثير مما يحصل عليه من الكتابة لتدعيم وجوده في السوق • الحفلات والرشاوى ودفع نصف ما يحصل عليه للمخرج الذي يرضى بإخراج أعماله • وانفاق كل ما يأتيه من ناشر رواية له على نقاد يكتبون عنه سطورا أو ينشرون له صورة • لابد من الدعاية يا حبيبتى • خمسون في المائة من رأس المال في أمريكا

ينفقونه على الدعاية • هذه هي روح العصر • عندما أعلنت زينب أنها ستكف عن الانجاب ، وافقها ، وعندما قررت أن تتعلم لتعمل أحس بالاهانة ، أتريد أن تحصل على شهادة جامعية رفض هو أن يحصل عليها •

قالت له : أنت خدعتني لست متعلما ولا مثقفا • أنت مجرد تاجر ورق مكتوب • وكل ما تكتبه تسرقه من ملفات التحقيقات • وندم أنه وافقها على عدم الانجاب ولكن فات الأوان فها هي تتحداه معلنة أنها ليست مصنعا لانتاج الأولاد من حقى أن أعيش ومن حقى أن أعمل لن أعيش حياتي خادمة لزوج وأولاد •

ورأى حسن والديه يتصارعان ويتششمان • كان في الثانية عشرة عندما استيقظ فزعا من النوم ليرى أمه تصرخ خارجة من المطبخ في يدها سكين ، وأباه يصرخ تريدين قتلى يا مجنونة ••

وهجم حسن على أمه وانتزع من يدها السكين • قاومته ولكنه لم يتراجع ، فلما أفلح في انتزاعه منها انتابته حالة هستيريا فجعلت تاطم خديها مولولة • نادبة حظها التعس • طالبة الطلاق في الحال • أن يحضر المأذون في الثالثة صباحا ليطلقها •

والتفت حسن الى أبيه والسكين في يده ، وقال له بلهجة غاضبة : لا تقف هكذا امامها •• اذهب الى حجرتك ••

وأذعن يوسف • فتقهقر ولكن حسن سارع ينبهه أن يذهب الى حجرته هو • فذهب مذعنا الى حجرة ابنه • وجلس على سريريه في انتظار عودته • وعاد اليه حسن • وقال له في هدوء : انها قد هدأت ثم أردف بلهجة خطيرة كأنه هو الكبير الذي

يحدث طفلا ، ليس لك الحق يا أبى أن تمنعها من العمل .
حسن هو الذى يتحدث عن الحقوق ويحدد من هو صاحب الحق .

هو الذى يتحدث عن الخطأ والصواب . انه لا يتحدث بل يتصرف يهجم على اليد المسكة بالسكين وينتزع السكين .
يواجه هسـتريا زينب ويهدئها . يأمر أباه بالابتعاد . أباه الذى يتفرج . أباه الذى لا يفصح عن حقيقة أعماقه .

أكان من الضرورى فى ذلك اليوم أن يقول لحسن أمك تغضبني لأنها تثير فى نفسى أحقادا لا أستطيع أن أسيطر عليها فتهمنى بأنى لم أتعلم وهى لا تعلم الثمن الذى دفعته حتى أفرض نفسى على عالم التأليف وأتخذ مظهر الأديب المتعلم المثقف . بل لم تكلف نفسها السعى لفهم الدوافع التى أدت بى الى الرسوب فى الامتحانات .

أكان من الضرورى فى تلك اللحظة أن يقول لحسن بعد أن يسمح للدموع أن تتفجر من عينيه ومن قلبه ، انه يريد حنانا ضاع منه يريد عطفاً افتقده منذ زمن بعيد ، يريد معايشرة فيها طيبة وقبولا له كما هو ، بالظروف التى صنعته بالأزمة التى تلازمه وأصبحت جزءا أساسيا من كيانه . ما كان يستطيع أن يصيغ ما فى قلبه . وما كان يستطيع أن ينهار أمام ابنه . أبوه كان لا ينهار ، وجده كان مهيبا عظيما كان أسطورة ولا يستطيع أن يدنس أباه أو جده ، بأن يعترف

للحفيد الأصغر بأنه نفاية ، أنه بقايا رجال لم يعد يأتى الزمان بمثلهم . وأن أمه كوثر هانم تنكرت لهم فأصبح لزاما عليه أن يحافظ على ذلك الذى ذهب وأن يتمسك بذلك الذى ضاع وأن يتشبت بتاريخ لا يعترف به أحد .

لأنه لم يقو على أن يقول لابنه شيئا . لم يبق له غير تبادل الشتائم مع كوثر هانم الجديدة التى تريد أن تتنكر له قبل أن يذهب ويختفى .

وفقد حسن احترامه للأب والأم بعد أن فقد احترامه للمدرسة والمدرسين . الكل سقطوا أمامه . أو أسقطوا أنفسهم أمامه . الكل أعلنوا فى صراحة متناهية عجزهم وعدم قدرتهم على التعامل الانسانى . الأخ يحرم عمدا من الأخ . صاحب فى المدرسة يحرم عمدا من صاحب . الزوج والأب يشتم الزوجة والأم . والأم والزوجة تعلن انكارها وعدم احترامها للأب والزوج .

لا يدري يوسف كم من الوقت مضى وهذا الشريط من النكريات الجارحة يشق رأسه ويدمى قلبه حتى انتبه على زينب واقفة عند الباب وقد ارتدت ملابس الخروج .

وسمعها تقول فى جزع :

— انه مازال واقفا خلف الباب .

قال لها متعجبا :

— ولماذا ارتديت ملابسك ؟

قالت بلهجة حاسمة :

- سأخرج لأبحث عنه ..

قال :

- ولكنك تقولين انه واقف خلف الباب ..

قالت كالمجنونة :

- سأذهب وأفتش عنه حتى أعثر عليه

أراد أن يستعيد كل قوته التي تمتع بها في تلك الملاحظات التي أعقبت طرده لحسن . ولكن التوتر الذي يقبض على أعضائه ويشد جلد بطنه كان يشتد ويعنف . وسمعها تقول :
- لقد وقفت عند الباب أنصت .. وسمعت أقدامه تتمايل ..

سكت عاجزا عن النطق . لا يريد أن يورط نفسه بكلمة تفضح عجزه وضعفه . وكان يتمنى في أعماقه أن يسمعها تقول :

- سأفتح الباب وأدعوه للدخول .

وسمعها تحقق أمنيته :

- سأفتح الباب وأدعوه للدخول .

تمسك بصمته . ولكنها رفضت أن يلوذ بشيء . لا بد أن يقول كلمة . لا بد أن يفضح مشاعره واضطر أن يقول :
افتحي الباب وانظري .

واقبعت الى الباب فتحرك خلفها ببطء وقد استولى عليه الخوف . وسمع الباب يفتح وساد الصمت . لم يتحمله وأطل برأسه . الباب مفتوح وهي قد اختفت . ولا صوت . لا بد أنها التقت به لا بد أنها تراه . ولكنه لا يسمعها تتحدث ولا يسمع أقدامها تبتعد . ولا يراها تدخل . ماذا حدث ؟
الباب مفتوح ، كفجوة على مجهول . هوة تغفر فاها على ظلام بلا قرار .

أختفى هي الأخرى .. تضيق منه كما ضاع ابنه . أم يراها في هذه اللحظة داخلين من هذه الفجوة التي هي الباب ؟

ولكنهما لا يدخلان .. وتجمد مكانه وقد استولى عليه الهلع . الهلع في قلبه والهلع في فجوة الباب .



اللواء الصوت يركع عند فجوة الباب
الذي خرجت منه زينب تبحث عن حسن .

انه يسجد . انه يصلي . مازال يصلي . متى يفرغ من
صلاته لتتحدد المسئوليات .

قال يوسف لنفسه وهو يحاول الخروج من نكرياته ،
لا أظن أن هذا الرجل الذي يسجد لاهسقا جبهته بالقرب
مصليا لله ، حيث لا رقيب الا الله ، حيث لا مجال للمتظاهر أو
الخداع ، سوف يخذلني ، انه لن يضيع هذه الصلاة الخالصة
لوجه الله ، بالكذب أو النكوص عن الشهادة . المشكلة
الحقيقية تنحصر في أنه لا يريد أن يتكلم الا هنا ولأنه واثق
لسبب غامض أنه لن أعود واكشف اعترافاته وأطالب باعادة
التحقيق . انه يسعى الى اعتراف يخلص به ضميره . كان

مجرد الاعتراف يصح تصرفاته التي ارتكبها . سأطلب منه
ان يكتب اعترافاته وأن يوقعها ، سأبحث في هذا المكان عن
جهاز تسجيل أسجل فيه بصوت الصوت كل كلمة يقولها حتى
أضمن بقاء شهادته ، فلو امتنع عن العودة معي . أو حدث

ما يمنع عودته ، فسأضئ وحدي الى القاهرة ومعى
المستندات .

متى يفرغ من صلاته . يعتمد الاطالة ليتخلص من وعده ،
أيصلي حقا أم هو يقوم بتمثيلية بارعة ليدير لى أمرا ؟
تذكر يوسف كريم شاكر وهو يقول له: ان اللواء الصوت
مازال يواصل أعمال التحري كمبعوث في مهمة من المباحث ،
وانه يتوقع أن يكشف وكرا في الصحراء لأفراد جمعية دينية

ارهابية هل هذه مهمته
الحقيقية . هل جاء
الصوت وراء الاب بعد
أن أودع الابن السجن ،
أهوى حيلة مأكرة من
رجل المباحث للكشف
عن مؤامرة يتوهم
أوجسودها ويبحث عن
مزيد من الضحايا لها ؟
لماذا سعى اليه الصوت
منذ أول لقاء ، لماذا
جذبه من يده الى هذه
الصحراء . . لماذا ذكر
له اسم مراد حسنين ؟
ثم ما الذي يدفعه



الى الاعتراف بهذه الجسارة الوقحة ،
انه المستول عن الكارثة التي لحقت بحسن . هل من المعقول
أن يعترف رجل المباحث بمثل هذا الاعتراف الذي يدينه
الا اذا كان يريد استفزازة وشن حرب أعصاب عليه ليثور
ويغضب ويتهور ويسب ويشتم ويعترف له بأنه شريك في
المؤامرة : لكن أية مؤامرة ؟ ان في الأمر خدعة ، كم من
الخدع تعرض لها منذ أن غاب حسن فجر ذلك العيد الكبير .

ألقي يوسف نظرة حذرة على الحوت الساجد ، فخيل اليه
أن جسد الرجل يرتجف ، وهز رأسه وابتعد خطوات يريد أن
يراجع ما مر به من أحداث قبل أن يخرج الحوت من صلاته .
يخرج طاهرا من لقاء صادق بريه . أو يخرج شيطانا مدنسا
ليعد مكيدة غادرة . قرى من أين ينفذ اليه الحوت بمكيدته ،
وهو لم يخرج في تصرفاته عما قد يفعله أى أب آخر ضاع منه
ابنه الوحيد ؟ عندما عاد اليه زينب فجر ذلك اليوم نظرت
اليه يائسة . اختلطت ملامح وجهها بالهلع والقسوة وقالت
بصوت كله أنين :

- انه غير موجود .

قال لها محاولا أن يتماسك :

- لعله هبط الى تحت .

قالها ورأسه مزدهم بحشود المتجهين الى صلاة العيد ،

وعيناه تبحثان عن حسن بين صفوفهم بلا جدوى .
قالت :

- بحثت عنه عند البواب .

وسكنت خائفة ، فلم يحتمل أن تتوقف لحظة واندفع في
لهفة .

- وماذا قال البواب . هل رآه .

همست وقد تجمع الذعر كله في وجهها :

- لم يره .

جرى خارجا من البيت . هاريا من وجه زينب ، ساعيا
وراء وجه حسن ، تلقفه التيار المتدفق . . الله أكبر والله
الحمد . طوفان يجرف من يعترضه في الطريق . أجساد
وجلايب وأقدام تحتك بالارض ، وانفعاها عامة تجرفه ،
كأنه لم يعد شيئا ، غير قادر على أن يرى أو يسمع . فلما عاد
الى زينب وحده ، انفجرت باكية ، انهار كيانه ، سقط الأب
المنتصر الذي طرد الولد من البيت ، سقط الزوج المنتصر الذي
عاقب الزوجة بطرد ابنها ، تحول في لحظة الى المجرم المنتب
الذي طرد الولد الصغير . الحيوان الشرس الذي داس فوق
ابنه بقدميه ورماء تحت أقدام هذا الطوفان الجارف في
الطريق .

أهذه هي الجريمة التي يسعى اللواء سعد الحوت لمحاكمته عليها • أيعتقله باسم سلطات الدولة لأنه الأب الذي دفع ابنه الى سلوك الجريمة ؟

التفت الى الحوت ، كان ينهض من سجوده مستمرا في صلاته ، ليس من اختصاص الشرطة ولا قوانين الدولة محاسبة الآباء على ما يرتكبونه في حق الأبناء • لا أحد يهتم أو حتى يجروا على التدخل في هذه العلاقة بالغة الخصوصية بين أب وابن • زينب هي التي اتهمته •

مشى يوسف مبتعدا عن الحوت ، كأن رجل المباحث سوف يراقب أفكاره خلسة ، كانت زينب تصرخ :
- اذهب وابحث عنه • لا أريد أن أراك قبل أن تعود الى به •

طأ الرأس وخرج • الناس في عيد ، موجة فرح ونشاط ، وجوه باسمة ، ملابس زاهية ، أصوات مرحة ، الكل القى بأحزانه وهمومه في قلب يوسف وبیت يوسف وانطلق طليقا يستقبل أول أيام العيد •

قالت كريمة شقيقته :

- اطمئن • الولد زهق منك أنت وزينب • لقد قال لي انكما تكثران من الشجار • وهو الذي يصلح بينكما •

أعقل منكما •• صدقني سوف يعود بعد أن يقضى بعض الوقت مع أصحابه •

كانت تتكلم باسمه في عصبية • لعلها كانت تلومه لأنه جاء يفسد عليها العيد ، حولها أولادها ومعها زوجها ، وأمامهم الملبس والشيكولاته وحديث كامل زوجها عن خوف الولد الصغير حمادة من أكل اللحم المسلوق على الإفطار بعد أن رأى الخروف وهم يذبحونه • وسأوى تصرخ في أذن يوسف بالحاح ليسمعها ، انها لاتخاف وأنها ستأكل الخروف كله • استسلم للتفاؤل الذي فرضته عليه كريمة وزوجها والأولاد ، انهم يدافعون عن عيدهم الذي انتظروه واستعدوا له ليفرحوا ، ليس لديهم أية رغبة أو استعداد للتورط فيما يعكر عليهم فرحة العيد ، لابد ان يكتف الاثني وصراخ الألم الذي يتمنى لو استطاع أن يخرج من صدره ، معلنا أن قلبه يحدثه أن ابنه الوحيد قد ضاع الى غير رجعة •

عندما وصل الى التليفزيون ، لم يجد أحدا يستمع اليه ، الكل مشغول بنفسه ، حكاية خروج حسن من البيت لا تثير انزعاج أحد ، كان البعض يتركه يروي حكايته وهو لا يسمع أو يقاطعه ليروي له خبرا أو نقطة سمعها ، كان يقف في الكونترول باستوديو ٥ - شاشات متراصة تجمد فيها مشهد ممثلة الكوميديا « بطة » وهي تخرج لسانها ومحمد صفوت الذي أخرج له أول تمثيلية في التليفزيون في بدايته أيام كانت

هذه الأجهزة لتركيب المشاهد ومزج الأصوات حلما من الأفلام . يهرش رأسه . انه الآن مشرف على الأفلام التليفزيونية . وهو غير مرتاح لمشهد اخراج اللسان . يخشى أن يكون التعبير بذيئاً ، أيقطع المشهد ؟ يحذف الصوت ؟ التعليقات لا تنتهى ، وبطة تختفى وتعود على الشاشة وتخرج لسانها ، اقطع لسانها ، المشهد جديد وحلو ، نترك الأمر للرقابة .

فجأة التفت اليه صفوت وسأله :

— ما الذى جاء بك فى يوم العيد . . أليس لك أهل ؟
لم يسمع صفوت الحكاية قبل أن تمضى ساعة . نظر فى ساعته وقال معاتبا :

— لا تجعل من الحبة قبة . . كل الأولاد يتطفش فى هذه الأيام .

ثم أردف ساخرا وهو يربت على كتف يوسف .
— كله مكسب . . سوف تخرج من هذه الحكاية بمسلسل جديد . . لكن صفوت كان ملجأ حيويا ليوسف فى هذه اللحظة . بذل جهدا ليقتنع صفوت بخطورة موقفه . البيت فى مناحة . لو عدت الى أم الولد وهو ليس معى ستقتل نفسها .

بذل صفوت آخر محاولاته لتهدئته والخلص من هذه المشكلة التى لا تتناسب فى تفاهتها مع خطورة قرار قطع لسان بطة وضياع مشهد ناجح .

— اتركها تقتل نفسها . . فرصة وتستريح .
فلما رفض يوسف أن يضحك ، شعر صفوت أنه قد تورط فى أزمة صديق لجأ ليساعده . قال مقربدا :
— ماذا تفعل الآن اليوم عيد والكل فى أجازة . . ولا بد أن تنتظر . . لا داعى لإبلاغ الأقسام والمستشفيات . . سوف يسخرون منك . . على أية حال اذا تأخر سوف نذيع نشرة عنه مع صورته .

همس يوسف والذعر يخفق صوته :

— لا أستطيع الانتظار .

فقاطعه صفوت :

— أنت متسرع ومتشائم بلا مبرر .

الوجوه التى أحاطت بيوسف وصفوت تحاصرهما لا يعنهم ما يسمعون ، أب يبحث عن ابنه ، ليس فى هذا ما يدعو الى تعطيل العمل ، وتأخير خروجهم للعيد ولأولادهم الذين لم يضيعوا . قال المونتير بلهجة من يريد حسم الأمر :

— حدث هذا لجارنا منذ أسبوع .

سأل يوسف بلهفة .

— ووجدوه .

قال الرجل :

— لا أعرف .

والتفت الى صفوت يسأله اذا كانوا قد أعدوا لاحضار طعام الغداء لمن يضطرون البقاء فى الاستوديو .

عاد يوسف الى البيت ليجد زينب قد اخفت ، لا اكل ولا شراب في البيت المهجور ، لا لحم مسلوق ولا مشوى ، اضحيه هذا العيد لحمها لا يؤكل . فجر هذا اليوم ضحى بابنه حسن . أطل من النافذة لعله يراه . الشارع مزدحم بالأولاد ، ضجيجهم مرتفع . صراخ وباليونات وبومب ، أصوات تملأ الكون الا صوت حسن .

عندما ذهبت سعاد شقيقة حسن الكبرى ، أول من أنجب ، عندما غابت عن هذا الوجود ، كان للغيبة بكل قساوتها ومرارتها ما يبررها . مرضت وشاء صاحب الشأن أن يجعل من المرض سببا مقنعا لذهابها . لا شيء أكثر ايلاما للنفس مثل فقد الولد ، كل شيء يهون ما عداه . ولا مبرر يقنعه بأنه لابد وان يفقده . وأن يصاب في حسن بهذا الزلزال يزلزل كيانه ، أسوأ ألف مرة من فقد سعاد ، عندما ذهبت سعاد . آه من تلك الليلة بأوجاعها . . . قضت الليل تنظر اليه نظرة من وراء النظر ، نظرة جامدة قاسية ، لم يتوقع أبدا أن تكون هذه النظرة في عيون طفلة رضيعة . نظرة لا ترحم في وجه يرى . لا شيء أقسى من عدم فهم نظرة ، من عدم القدرة على التجاوب مع عينيْن مصويتين الى عينيْكَ . ولكنه توجس أن هذه النظرة السخيلة على سعاد ، هي نظرة المجهول الذي يختطفها الى حيث لا تعود . منذ أن ظهر هذا المجهول في عينيْ ابتقه وهي تبتعد عنه ، ترفض ما يقدمه لها من دواء ،

ليل بطوله ترفض وتتقيأ ، ليل بطوله وهو يحاول أن يسكب قطرات الدواء في الفم الملتهب ، ليل بطوله وهو يضع كمادات الثلج على جبينها . . مع نسمات الفجر اخفت نسمات الصدر . مع نسمات الصباح هبت لسعات من الذعر في رأسه وقلبه ، انطلق وسعاد بين يديه الى ذلك المستشفى . صعد سلالم ، دخل حجرات ، صرخ في ممرضة ، صرخ في طبيب ، صرخ ولعن وهدد وبكى وتوسل وتضرع . . ونهبت سعاد . اخفت وجهها .

ووجد أمامه وجه زينب يتشبث به ، حبيبتى زينب ، انقذيني يا زينب ، أخذوها منها ، سنجدتها سنعيد لها ، سنخرجها من نفس البطن التي جاءت منها . أخذ زينب الى الاسكندرية لتستريح ، سارا على الرمال والصخور ، أمامهما أمواج البحر تزار ، تتلاطم ، والأفق بلا نهاية ، وصرخ بأعلى صوته يتحدى الأمواج والرياح ، كان أقوى من كل ما يراه أو سوف يراه . سوف نعوض ما فقدناه . سوف ننجب يا زينب . سوف تلدين عشرات وعشرات . سنملأ الكون بأولادنا ، بأفراحنا .

ضربتان في الرأس . . حسن بعد سعاد . حسن والسجن بعد القتل . بعد التكفير . بعد أن ظهر في عينيْه مجهول غامض يصنع بينه وبين أبيه وأمه عزلة صارمة ، سدودا من الوقاحة والكرامية . . ماذا بقى . . أصرخ من جديد ؟ أعييد المهزلة ؟ يصحبها الى مكان ويهتف بسوف تنجب هذه

البطن عشرات .. سوف تملأ الدنيا بالأولاد .. كل شيء قد انتهى .. زينب ووطنها وحسن ومعنى الانجاب .. كل شيء اتهار وتحطم .

كانت الدموع في مآقيه . وزينب تفتح باب البيت ، تدخل مشعثة الشعر ، عينان مجنونتان . طافت بكل بيوت أصحاب حسن في المدرسة . ذهبت الى الأقسام واتصلت بالمستشفيات كل إدارة فندق « برستيج » تبحث معها عن حسن . لن تعتمد عليه ، زملاؤها في الفندق سيتصرفون خيرا منه . ماذا يقول لها ؟ عندما ذهبت سعاد قاوم الحزان بأفراح حسن . الذى يذهب الى مملكة الله تستطيع أن تعوضه بالانجاب من مملكة الله . أما الذى يضع منك فى مملكة البشر فالويل لك من البشر . لن يعوضوا أحزانك بأفراح ، وما هي زينب تلجأ الى فندق « برستيج » كما لجأ هو الى التليفزيون .

ودق جرس التليفون ، فأسرع كلاهما اليه اصطدمتا وتشابكت أيديهما ، واختلطت منه السماعة لتعيدها له . صفوت يسأل هل عاد حسن . اتصلت يا يوسف بمدير التليفزيون ، اهتم واتصل بمدير الأمن . اذا لم يظهر الولد حتى الغد اذهب اليه وقابله .

زينب تصرخ . اذا لم يظهر حتى الغد فلن يظهر أبدا ، وأنت السبب . صرخ :

— كفى يا زينب .. لست وحدك الذى يتعذب .

صرخت ترد عليه بكل ما تملك من قسوة .
— وما الذى أخذناه من عذابك .. هل هذا هو كل ما أفلحت فى تقديمه لأسرتك فى العيد .

قال له مدير الأمن وقد اكتسى وجهه بوقار غلبت عليه المجاملة واطهار تقديره لشعور الأب الذى فقد ابنه .
— لا تنزعج يا سيد يوسف .. لابد أن تواجه الأمر بهدوء وثبات أعصاب .

سأله عن عمر حسن .. مدرسته . أحواله . قدم له يوسف صورة حسن .

— هذه صورته منذ عامين وهو فى الثانية عشرة .. وجهه تغير قليلا .. كان وهو طفل يشبهنى .. كلما كبر تحولت ملامحه حتى أصبح أقرب الى جده . انه الآن يرفض التصوير .

أطال مدير الأمن النظر الى الصورة .. كان يفكر فيما سوف يقوله .. وانقبض صدر يوسف . من يفكر قبل أن يتكلم ، يدرك أنه لن يقول ما يريح سامعه .

قال المدير وهو يضع الصورة أمامه وأصبعه ينقر عليها :
— هناك أحد احتمالين كبيرين .. اما أنه قرر أن يخرج فى رحلة .. ذهب الى مكان ما .. الاسكندرية مثلا .. كثير من الأولاد يفعلون هذا .. قاطعه يوسف :

- سافر بالبيجا وما والشبشب
- قال المدير :
- أخذ ملابس صديق له ..
- قال يوسف :
- مررنا ببيوت كل أصحابه
- قال المدير :
- ربما صديق لا تعرفونه ؟

وتوقف وقد شعر أن هذا الاحتمال ليس هو الأرجح وسأل
ببطء :

- تقول انه متدين

قال يوسف :

- بصورة غير عادية

هو الرجل رأسه قائلاً :

- نعم .. تكفيرك .. وتكفير والدته .. ورفض الصور
والتماثيل في البيت ..

وأطرق برأسه برهة قبل أن يرفعها ويقول بصوت قوى :

- الاحتمال الثاني .. هو أن المسألة أكثر تعقيدا ..
- فبعض الأولاد ينضمون الى جماعات دينية .. هذا قد تكرر
بصورة ملحوظة في الأشهر الأخيرة .. وهم يجمعون
الأولاد في أماكن منعزلة .. في الصعيد .. نواحي المنيا كما
حدث مرة .. أو في إحدى الصحارى

- وضرب الرجل برفق على المكتب بيده مؤكدا ما يقوله :
- على أية حال لو حدث هذا .. فسنعلم به ..
- سأل يوسف واجفا :
- ماذا يفعلون في الجبل أو الصحراء ؟
- قال المدير :
- معسكرات تدريب ..
- سأل يوسف بلهفة وجزع :
- لماذا ؟

نظر اليه الرجل متفحصا .. كأنه يسأل نفسه اذا كان
صاحب السؤال يتظاهر بأنه لا يعلم أو هو في حقيقة الأمر
يجهل تماما ما قد تورط فيه ابنه :

- حسب الجماعة التي تضمه .. تدريب على السلاح ..
- أو تدريب تمهيدى استعدادا لأن يترك البلاد ..
- سأل يوسف منهارا ..
- الى أين ؟

قال الرجل يهدئه :

- لا داعي للتسرع وراء احتمالات لا تنتهى .. اترك لنا
الأمر وسنبذل كل ما في استطاعتنا ..
- وأردف ضاحكا :

- من يدري .. لعله يكون الآن في البيت .. الأمر يتوقف
على الأيام القادمة .. كل ما أستطيع أن أقوله الآن : انه

لو طالعت غيبته .. فسيكون الاحتمال الأغلب أنه انضم الى
احدى الجمعيات الدينية التى ينجذب اليها الشبان فى مثل
سن ابنك فى هذه الأيام .. وثق أنه لو حدث هذا .. فسنعلم
به .. اطمئن من هذه الناحية .. واصبر وتمالك نفسك ..

حاول أن يسأل عن هذه الجمعيات ، كيف الوصول اليها ،
من هم الذين يتولون أمرها ، ولكن مدير الأمن رفض بلباقة أن
يجيب على أسئلته ، هذه جماعات سرية تنكر وجودها ..
قياداتها سرية .. لو كان ابنك قد انضم اليها ، فهو لا يتصل
بأكثر من مجموعة لا تزيد على خمسة أشخاص . خلايا
سرية .

ومضت الأيام ، ولم يظهر حسن ، وذهب لمقابلة مدير الأمن
مرة أخرى . كان الرجل أكثر وقارا وأكثر تكلفا وأكثر أدبا
ومجاملة . مازلنا نبحث ، تأكد انى مهتم شخصيا بالأمر .
ثق أن نشاط هؤلاء الأولاد يعيننا ، ونتابعه فى كل مكان ،
وإذا كان ابنك فى مصر فسوف نبحث عليه سريعا . اما إذا
كان قد سافر الى الخارج ، فسنحتاج الى بعض الوقت قبل
أن تحدد مكانه .

وتهض الرجل يودعه الى الباب وهو يطمئنه بكلمات
غريبة :

— على أية حال . لم يصب فى حادث .. لا سمح الله ..

هذا شيء يطمئنك على وجوده .. هنا أو هناك .. المهم أنه
بخير .

كيف يطمئن الى المجهول . قال له الدكتور صبرى
عبد السلام ابن الشيخ عبد السلام صبرى وهو جالس فى
داره بجاردن سیتی . الفيلا الوحيدة التى لم تتهدم فى
الشارع الذى عاش فيه يوسف صباه .

— هكذا حال الأولاد .. لا يشعرون بما فى قلب الأم أو
الأب . ها هو ابنك يعلم أين أنت .. وأنت لا تعلم أين هو ..
الأب بالنسبة له ماض . شيء انتهى .
همس يوسف :

— والابن هو مستقبلى ..
امتداد حياتى .. لقد ضاع
منى مستقبلى .. لم يعد لى
وجود فى هذه الحياة .

صبرى عبد السلام ابن
شيخ الأزهر الذى كان يتنافس
على مرضاته الملك فؤاد ، فى
قصر عابدين ، والمنادوب
السامى فى قصر الدوبارة ،
إذا غضب اهتزت الدنيا ،



وإذا رضى عاد التوازن والاستقرار للمجتمع المصرى .
ابن الشيخ طيب أسنان ، هو الذى خلع لحسن جميع
أسنان اللبن . يعالج ضروس وأسنان علماء الأزهر وكأنه
مسئول عن العلم والحكمة اللذين يصدران من فم به هذه
الضروس والأسنان التى يعالجها ، ولكن أفواه الحكمة تقل
والضروس تتآكل والاهتمام بنفوذ المنصب يشهد ويتقوى
والاهتمام بنفوذ الحكمة يضعف ويتحسر .

قال الطبيب صبرى عبد السلام وهو يتنهد :
- ذهبت تلك الأيام يا أستاذ يوسف . . . عندما كنت أراهم
هنا يجتمعون فى هذه الحجرة مع أبى . . . كلامهم . . . ماذا
أقول .

وتوقف يبحث عن الوصف المناسب ثم قال :

- كلام عظيم . . . له مهابة . . . يخرج واثقا جليلا . . .
يتحدثون عن الملك . . . أو المندوب السامى . . . حديث الند
للند . . . بل حديث الند الأقوى . . . الذى يقول كلمته فيحترمها
كل الناس . . . لا حديث الموظف الذى يسعى الى تدعيم منصبه
أو الحصول على ترقية أو ميزة . . . أو مكافأة من هنا أو من
الخارج . . . السلطة الوحيدة التى كانوا يؤمنون باستخدامها
. . . هى سلطة الشرع وكلمة الدين . . . أما غيرها من سلطات
الدنيا . . . فلها من يعرفها ويعرف خباياها ولا شأن لهم بها
. . . وهكذا حصنوا الدين . . . ولم يسمحوا للسياسة أن تلون

أو تتلاعب به . . . كما يحدث من هذه الجمعيات والجماعات
التي تحركها أطماع السياسة ومناوراتها . . . ولا تدري إذا
كانت سياسة مسلم أو درزى . . . سياسة أطماع شخصية . . .
أو أطماع أجنبية غازية متسللة . . . رأوندية وقرامطة العصر
الحديث .

كان على يوسف أن يستمع الى محاضرة طويلة ، يحقق
بها صبرى عبد السلام ذاقه ، ويحدد ردود أفعاله فى مواجهة
الأزمة التى نقلها اليه يوسف « أن ابنه قد اختفى » . . . وأن
الاتجاه السائد عند الشرطة ، أنه انضم الى جماعة دينية
سرية . . . وأنه فى أغلب الكُن قد غادر البلاد .

انتهت المقابلة ، وقد وعده صبرى عبد السلام ، أن يدبر له
لقاء مع عمر بك السلماوى شيخ طريقة صوفية ، وله صلات
عديدة بالجمعيات الدينية التى نسمع عنها أو لم نسمع عنها ،
هنا وفى الخارج ، فى السعودية والكويت والخليج . . .
وايران ، وقد يستطيع أن يدلك على وسيلة ما للاتصال بمن
يرشدك الى حسن .

استد عمر بك السلماوى ظهره الى مقعده الجلدى الكبير ،
أمام مكتبه ذى السطح اللامع من الأبنوس الأسود فى شركته
« آراب اكسبورت » وقال بتؤدة وصوت خفيض كأنه يخاطب
نفسه :

— ما سمعته منك يا أستاذ يوسف .. يدل على أن ابنك قد خرج من مصر فعلا .

الرجفة التي سرت في جسد يوسف لا صلة لها بجهـاز التكيف القوى ، ولا بسحابة دخان سيجار قشرشـل الذي يضعه الرجل بين شفـتيه أو ربما أستانه ويستخدمه كـماسورة تخرج الدخان فينتشر في الحجرة ويثير في البطن شعورا بالغثيان ، كان وجه عمر بك سمينا مشوبا بحمرة صبوحا ، وجه سمين وثقن حليق ، وعينان كسولتان سوادهما يلتهم مساحة البيضاء . وعطر رقيق نفاذ يفوح منه ممتزجا برائحة الدخان .

أسبل شيخ الطريقة السلماوية عينيه ، كأنه يتأمل أعماقه ، وقال بصوته الخفيض الذي يطغى عليه طنين صادر من جهاز التكيف .

— ولكني لا أستطيع أن أعدك الآن بشيء .. كل ما أستطيع أن أعدك به هو أنني سأبذل كل ما في وسعي .. سأسأل عنه أصدقاء لنا . ومن يدري .. لعل وعسى .

فتح يوسف فمه بصعوبة ، وسمع صوته غريبا .

— أي خبر .. أية كلمة أنه ابني الوحيد .. و ..

لم يكمل الجملة . كان يريد أن يقول أنه لا يستطيع الآن أن ينجب غيره ، ولكنه وجد أنه سيثير موضوعا شديدا

التعقيد ، خاص بحياته الشخصية مع زينب ، ولا معنى للخوض في هذه الأمور مع هذا الرجل .

ولم ينتظر عمر بك سماع بقية كلام يوسف . كان جرس التليفون قد جذبته إلى حديث بدا أنه مهتم به . كل ما فعله أن همس :

— ميونيخ على التليفون .

حدثت عمر بك الانجليزية بطلاقة . لو كانت زينب معه لفهمت كل كلمة قالها . اللغة الانجليزية هي علامة التفوق والمائتي جنيه التي تقبضها شهريا من عملها في استقبال فندق « برستيج » جمهورها من الأجانب ، من ميونيخ ونيويورك ولندن وباريس ، لا صلة له يا أستاذ بجمهورك البلدي المتخلف الذي يتتبع تمثيلاتك .. أنت الذي أورت ابنك التخلف .. الولد منذ عرف أنك لم تكمل تعليمك فقد رغبته في اتمام دراسته .

فرغ عمر بك من حديثه مع ميونيخ ، وشرد ببصره قبل أن يكتشف وجود يوسف أمامه . كأنه نسي لماذا هو جالس قبالة . أسبل عينيه من جديد لعله يحاول أن يتذكر الغرض من هذه المقابلة . ها هو يفتح عينيه ويتسم ويقول بصوت برىء كالأطفال .

على العموم إذا كان ابنك قد هجر الدنيا للعبادة .. فهذا

فضل عظيم من الله ونعمة كبرى • ولسوف يشفع لك هذا عند الله فيما تقدم من ذنبك وتأخر •

ها هو الشيخ السلماوى الصوفى الذى يركب الحصان الأبيض ، ويمسك بكلتا يديه العمامة حتى لا يختطفها أحد • ويمضى موكبه بين الأتباع والمرتدين • يتلقون المدد والبركات ويتقظرون الكرامات •

وابتسم الشيخ السلماوى فبدا وجهه بريئا وقد اكتست عيناه الكسولتان بصفاء يكاد يبدد دخان السيجار وقال :
- ابنك معذور • انه حفيد الشيخ عبد السلام • من شابه جده فما ظلم •

تقبل الطعنة البريئة الغادرة مستسلما ••• لقد اختلطت على الرجل الأمور •• لم يقل له الدكتور صبرى ان لطيف شقيق الشيخ عبد السلام هو زوج أم يوسف منصور الذى سيقابله • لعله وجد أنه سيثير موضوعا معقدا لا داعى للخوض فيه •

واتسعت ابتسامة عمر بك • وهو يسترد كسل عينيه ، ويرتضى مسندا ظهره الى مقعده ومضى يقول :

- احمد ريك •• ان عندى فى عائلتنا اولادا لا أستطيع مهما قلت أن أصف لك المستوى الذى انحسروا اليه •• يتركون المدرسة ويتبجحون على المدرسين •• ويضبطونهم فى تلك

الركب التى ترسو عند الشاطئ أمام النادى •• يدخنون كل ما يخطر أو لا يخطر ببالك من أنواع المخدرات •• أنواع جديدة مستوردة •• تكنولوجيا حديثة •• أقراص وسفوف وحقن وأنواع ملابس وشيكولاته • أولاد يدمرون أنفسهم •• ويطالبون أهلهم بالمصروف الذى يشترون به هذه السموم خمسة جنيهات فى اليوم غير البنزين فى العربية لم تعد تكفى الولد •• يتبجح على أهله •• يحاسبهم على القرش الذى ينفقونه ويقول انه أحق به • لا احترام لكبير ولا رغبة فى تعليم ولا اكتراث بأى شئ •• منذ يومين جاءتنى احدى قريباتى أرملة • كانت تشكو ان ابنها الكبير الذى كان المفروض فيه أن يتولى المسئولية بعد أبيه ، ويرعاها ويصونها طلب منها أن تترك له حجرة نومها ، وتذهب وتنام فى أية حجرة أخرى •• تصور • حجرة النوم التى عاش فيها أبوه مع أمه •• الولد الفاجر يريد أن يطرد أمه من حجرتها لأنه يريد أن يتزوج وهو فى الثامنة عشرة •• لم يكمل تعليمه ، يسقط ومعرض هذه السنة للطرد من كلية الزراعة ، لا يكسب مليما ، يريد أن يحضر زوجة ، بنتا لا ندرى عنها أى شئ •• لا أصل ولا فصل لتعيش فى البيت وتحمل مكان أمه ، وتحول أمه الى مجرد خادمة تورد النقود وتشرف على نظافة سيدتها الجديدة •

هذا الولد تشاجر مع أمه لأنها أرادت تنجيد طقم قديم فى مدخل البيت • لماذا تنفق هذه النقود وهو أحق بها • أحق بها

وقت طويل عن تلك الممثلة التي ظهرت في تمثيلية لك في التليفزيون .. ما اسمها ؟
هل يحاول اخفاء اهتمامه ، أم هو يريد أن يتذكر الاسم فعلا ؟

أضواء وجهه بشقاوة أطفال .. عيناه الكسولتان تنفضان الكسل .. وابتهامة خجولة عذبة ترتسم على وجهه السمين ..
- آه .. اسمها لطيفة .. ليس كذلك ؟

الله يسأل عن لطيفة ، كانت تجلس بجواره على المائدة الطويلة في أثناء البروفة - فتحت حقيبتها وأخرجت منها مذكرة صغيرة ووضعها أمامه هامسة « أستاذ يوسف اكتب رقم تليفونك » لابد أنه تردد لأنها رفعت صوتها ليسمعها كل من حول المائدة .. لن أعضك يا أستاذ .. ضحكوا وكتب رقم التليفون .. كانت تريد أن يكتب لها مشاهد أكثر وأطول رآها حسن كان في الثامنة أو التاسعة .. أعاد المخرج صلاح المعى تصوير المشهد أربع عشرة مرة فقد أعصابه .. بطئك تهتز يا لطيفة ألا ترتعش كورسيه .. حكى حسن ما شاهدته لزينب .. مطت شفيتها ، ممثلات يأكلن الفتنة ..

سمع عمر بك يسأله :

- ألا تذكرها ؟

أجابته بسرعة :

ليصرفها على المخدرات والتسكع مع بنات متشردات والسهر طوال الليل وعدم الذهاب إلى الكلية في الصباح .. ماذا تقول في هذا .. أليست هذه هي المصيبة الحقيقية ؟! أحمد ربك أن ابنك لم يفعل هذا ..

طرد الرجل الذي نادته أمه لتتجيد الطقم ، وشتمها لأنها كذبت عليه وقالت له انها ليس معها نقود .. فلما رفضت أن تعطيه النقود التي أعدتها للتجيد ضربها وانتزع منها النقود بالقوة .. بلطجة واجرام داخل البيت .. لا خارجه يا أستاذ يوسف .. ابنك المختفي يبحث عنه رجال الشرطة خسارج البيت .. الآن مطلوب رجال شرطة داخل البيوت لحماية الأمهات والآباء .. حمايتهم من من ؟ من أبنائهم ..

نظر إليه يوسف مستعظفا ، يكاد يتوسل إليه ألا يضطره إلى أن يقول له .. حتى حسن الذي تحسده على نعمة التدين قد شرع في ضرب أمه ، ماذا جرى في هذه الدنيا الأولاد تضرب الأمهات ، تتمرد على الآباء .. ماذا جرى ، أصبح هجر الولد لأبويه نعمة يحسده عليها الذين لم يهجرهم أولادهم ..

وقف عمر بك السلماوى يودع يوسف ، المليونير يقف في مقر قيادة شركاته للاستيراد والتصدير ..

- على فكرة يا أستاذ يوسف .. كنت أريد أن أسألك منذ

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

- نعم .. أنكرها ..

قال عمر متخذاً مظهرها جادا والسيجار متوهج في فمه بين أسنانه ..

- لى صديق من اخواتنا الذين يعملون معنا في الخليج .. كان موجودا معي بالصدفة عندما اتصل بي الدكتور صبرى بخصوص لقائنا .. هو الذى أخبرني أنها مثلت في رواية لك .. اتصلت به لطيفة مع منتج يريدون منه تمويل شركة إنتاج تليفزيونى .. ما رأيك .. هل يطمئن للتعامل معها ؟ مجرد رأى ..

ضحك يوسف .. خرج من تلك الدوامة التى سقط فيها منذ أن اختفى حسن .. نسي ما جاء له وقال وهو يشد قامته استعدادا لمواجهة فرصة جديدة وصفقة جديدة .. لطيفة ممثلة كبيرة .. وأحسن أدوارها التى شهرتها كانت في تمثيلياتي ..

قال عمر بك وقد أشرق وجهه :

- طبعا .. سيلجأون اليك ..

قال يوسف باعتداد ساخرا :

- اذا أرادوا النجاح ..

حدثه عمر بك عن جهله بالتليفزيون .. أراد أن ينفي أية شبهة .. البرامج الوحيدة التى يهتم بها مباريات الكرة .. ولكن مباريات كأس العالم يشاهدها فى الملعب .. شاهدت

مباراة ألمانيا وهولندا على نهائى الكأس .. كانت متعة .. كان كينجرج وزير خارجية أمريكا يجلس بالقرب منى .. أمريكا .. سى أى ايه .. الحوت .. أين الحوت .. خرج يوسف من عالمه الذى غرق فيه .. أما زال الحوت يصلى ؟ أين هو ؟ لم يجد له أثرا .. لم يجد سوى صحراء التراب تحيط به من كل جانب .. اختفى الحوت .. اختفت المباني .. ماذا حدث هل ابتعد وتوغل بعيدا بعيدا فى هذا القيه .. سيكون قد تاه ؟!

ر — ر

الى السماء فرأى الشمس ، لعلها تهديه الى العودة في الاتجاه السليم تذكر وهو يتقدم في الصحراء وبجواره الحوت ، أنه لاحظ ظليهما قصيرين يهروان بجوارهما ، وأنه قال لنفسه وهما يلهتان ، ماذا يفعل هذان الأبلهان ؟ الآن يرى أبله واحدا يلاحقه ، كان الأبلهان يلهتان على اليمين مثل هذا الأبله الذي يتبعه الآن فليستدر وليجعل الأبله على يساره ويعود .

وانتفض على خاطر يومض في رأسه كأنه اكتشف خطير ، اذا كان يستعين بالشمس ليعود ، أليس من الممكن تحديد موقع هذا المكان على الأرض بمتابعة مسار الشمس في انتقالها من مدار السرطان الى مدار الجدى ؟ لابد من أجهزة أو خبراء في علم الفلك على أية حال من المستحيل أن يكون هذا المكان قريبا من المنطقة القطبية شمالا أو جنوبا حيث تطول الليالي أى يطول النهار ، أنه في منطقة وسط والمناخ معتدل لابد أن يسأل المقيمين لفترة طويلة عن تغيرات الطقس وتقلباته .

•• ان العقل البشرى يستطيع أن يستنتج ويستقرى الظواهر ويصل الى نتائج وقوانين •• نظر الى ساعته ، الثانية عشرة والثلاث ، كيف عرف الحوت مواقيت الصلاة ، لابد أن يسأله ، ترى هل هو يسير في الاتجاه الصحيح ، هذه

الصحراء موحشة ، ولكنها ليست مخيفة على الأقل لا تخيفه الآن ، لأنه واثق أنه سوف يعود ، لم يتعد كثيرا ، ان المباني من طابق واحد أو طابقين ، ولعل تبة أو ارتفاعا بسيطاً في الأرض يحجب الرؤية ، لن يفقد أعصابه ، عليه أن يقبل ما هو فيه وأن يواصل السير وسط هذا الهدوء الذى لا يسمع فيه سوى أنفاسه ووقع أقدامه وخطوات أفكاره ، أيخيب ظنه ويتوه ، أيفشل في العودة ، أهنالك قوى قاهرة تقف حائلاً بينه وبين ابنه ، تحرمه من أن يستمتع الى اعترافات الحوت ، أيتكرر نفس ما حدث له في السودان ، عندما أحاطت به السكينة بعد الترانيم والانشاد وظن أنه وجد طريقه الى حسن ، أيقن أنه سيعثر عليه .

كانت الرحلة الى السودان مفاجأة ليوسف ، كان مدير التليفزيون قد طلب من رئيس هيئة الاستعلامات أن يهيئ فرصة ليوسف يتخفف فيها من أزمته النفسية ، فكان أن أدرج اسمه في وفد اعلامى الى الخرطوم بمناسبة أعياد ثورة مايو .

قال يوسف لزينب وهو —
يكذب، ويتعمد الكذب بكل ما في
قلبه من يأس :

— أنا مسافر لأبحث عن
حسن .



نظرت إليه غير مصدقة ، وخافت أن تسأله المزيد ، ولكن نظراتها كانت تطلب منه أن يفصح ، أن يخبرها بما وصل إلى علمه ، هل عرف أين هو ، في أى بلد ، هل هو واثق مما يقول ، من قال له المعلومات التي وصلت إليه ؟

أسئلة تلقاها نظرات زينب ، ويترجمها عقل يوسف كأنه يكتب مشهدا في مسلسل يتخيل حركة أبطالها ويجرى الحوار المناسب على ألسنتهم .

تضخمت الكذبة ، ما أسهل الكذب ، ما أسهل التأليف ، انه خبير في الصنعة ، بدأ التأليف منذ تزوجت أمه لطيف صبرى ، أطلق ذلك الحادث الفاجع في حياته كل مواهبه في التمثيل والتأليف ، وأصبحت حياته ضحية التأليف ، حتى وصل إلى هذا الوضع الشاذ ، ربا لأسرة مفككة ، ضاع ثلثها الذي هو الابن ، وبقي ثلثان متفانان ، ثلث الزوجة والأم ، وثلث المؤلف الزوج والأب .

وبدا التأليف ، قال لزينب :

- هناك أخبار .. أنه يعيش بين جماعة اسلامية هناك .. اخبار وصلت الشرطة .. لا يريدون التدخل بأنفسهم .. الجماعات الدينية في السودان لها حساسيات مفرطة .. رأوا أن الأفضل أن أذهب بنفسى في مناسبة رسمية ، وأحاول بصفة شخصية أن أحقق فى الأمر .

صدفته ، أو لعلها كما قال لنفسه ، استسلمت لما يؤلفه .. وهتفت :

- ولكنهم عرفوا انه هناك .. رأوه .
المسكينة ، تريد أن تراه بأعينهم .. ولكنه أيضا مسكين ، لا يستطيع أن يتمادى فى التأليف حتى يخدع نفسه فيقطع الشعرة الفاصلة بين التأليف والجنون .
قال ببطء :

- لا يريدون التورط بالتصريح بشيء محدد .. ولكن ما تفسير أنهم طلبوا منى السفر الى الخرطوم .. لست صحفيا .. ولا موظفا فى الاعلام .. مجرد كاتب له صلة بالتليفزيون .

ورفع صوته محاولا أن يقنع نفسه :
- لابد أن لديهم معلومات أكيدة عن وجوده هناك .. ولكنهم لا يريدون الإفصاح عنها .
قالت محتجة :

- لماذا لا يقولون لك ؟
اعترض وقد اقتنع بما يقوله :

- ربما تورط الولد .. فى شيء ضد الحكومة هناك ، على أية حال سأسافر .
قالت بلهجة حاسمة :
- وتحضره معك .

ثم أردفت بسرعة وانفعال :

— أو أسافر معك .

انشغل بتهدئتها ، واقناعها بأنه لا بد أن يعثر على حسن

ويعيده .

جاءه رجل صعد الى حجرته بفندق « الواحة » بالخرطوم ، وقال له ان السيارة تنتظره بالباب ، ليذهب ويقابل المعلم محمد زكريا ، معلم جماعة « المحمديين » ، كانت الشمس توشك على المغيب ، ويغيب معها بعض القيظ الذي عجز عن مقاومته جهاز تكييف يئن مرتعشا مجهدا من العمل ليل نهار ، وتعجز عن مقاومته مروحتان كبيرتان تدوران في سقف الحجرة تلهثان لتخففا ثقل الحرارة في جفنيه وأذنيه وأنفـه وحلقه ، الرجل في الثلاثين يرتدى جلبابا أبيض وعلى رأسه عمامة بيضاء ضخمة ، يبدو رأسه تحتها صغيرا ملامحه وسيمة دقيقة ، عيناه تومضان في سمرة وجهه بأشعة نفاذة من ذكاء أو عاطفة مشبوبة ، الرجل يتقسم ، صوته مرح ، يسأل عن اقامته وهل هي مريحة ، يسخر من شكواه من الحر ، يا أستاذ مشيت القاهرة من أسبوع حرها فظيع .

كان قد التقى منذ يومين ببعض الوزراء في حفل ببيت تاجر سوداني زوجته مصرية . . الوزراء يشربون الشاي لأنهم ارتبطوا في خطابات شخصية تبادلها معهم رئيس الجمهورية ألا يقربوا الخمر ، ضيف من الجنوب ، يقول ان اله قبيلته يتقبل المريسة ويتقسم ، انه لن يشرب الخمر تضامنا مع

الوزراء ، ولكنه لن يحرم اله القبيلة من حقه في المريسة ، جاء رئيس الوفد الذي تجمعه بصاحب البيت صلة قرابة بزوجته المصرية وهمس في أذنه :

— يا أخ يوسف . . لقد دبرت لك لقاء مع معلم المحمديين . . جماعة اسلامية لها نشاط هنا ينضم اليها الشبان والشابات . . يتركون كل شيء وينصرفون الى الدعوة لقمعاليم معلمهم . . سمعت أن بعض الشباب من مصر جاء الى هنا وانضم اليهم .

سأل بقلب واجف :

— هل سمعت شيئا عن حسن ابني .

قال الرجل :

— لا . . ولكن اذهب بنفسك واسأل من يدري .

الخيال لم يعد خيالا . . التأليف أصبح حقيقة واقعة ، أيقن أن مجيئه الى هنا كان مديرا ، ولا بد أن حسن قد تورط بالفعل في أمر يريدون التخلص منه ، حتى لا تتورط السلطة في مصر بسبب حماقة يرتكبها مصري في السودان .

كانت عربة « أويل » قديمة تنتظر عند باب فندق « الواحة » وبها رجلان آخران ، أحدهما يحتل مقعد القيادة يرتدى قميصا أبيض ، والثاني معمم يجلس بجسواره ، وبينهما أكوام من نشرات وكتيبات ، وجلس يوسف في المقعد الخلفي مع الرجل الذي صعد اليه .

تحركت السيارة متمهلة ، انطلقوا يحدثونه عن « المحمديين »

كان لا شيء في الوجود يستحق أن يهتم به الإنسان في هذه الدنيا غير رسالتهم ، اكتشف يوسف سر تمهل السيارة ، وقفت عند تقاطع الطريق وصاح الرجل بجواره بصوت عنيف ، وقد صوب اليه نظراته الحادة .
- انظر يا أستاذ .. ها هم في كل مكان .. يناقشون .. يجادلون .. يقنعون ..

رأى يوسف بعض الشبان يقفون على الرصيف في حلقة ، التفتوا الى السيارة ، فتقدم أحد الشبان ، وتبادل التحية مع الرجل بجوار السائق ، الذي ناوله بعض الكتيبات .. وتحركت السيارة ، وعينا يوسف تبحثان بين الواقفين عن حسن .. في جلاباب أبيض وعلى رأسه عمامة ، أو في قميص وبنطلون .. محاولا التخلص من صورتى البيجاما والشبشب ..

وتوقفت السيارة مرة أخرى في ميدان تتوسطه حديقة صغيرة ، يقف تحت شجرة ذات أغصان كثيفة شبان وبنات في أيديهم الكتيبات ، وتقدمت امرأة ضخمة تلف جسدها بالثوب الأبيض تجعل منه طرحه فوق رأسها ، خدودها بارزة بابتسامة تفيض من عينيها واسعتين ، لم يفهم يوسف ما تقوله بلهجتها السريعة ، أخذت نشرات وكتبا ، وتحركت العربة ، ويوسف يبحث عن حسن بين الأولاد والبنات حتى سمع الرجل بجانبه يقول بصوته البالغ الحماس ، هاهم يا أستاذ يبيعون

الكتب اليوم يبيعون ، وغدا يناقشون ، من قرأ ويريد أن يناقش ، اتنا نزداد انصارا كل يوم ، هذا المشهد سوف تراه يتكرر طوال طريقنا ، وهو لا ينقطع من الصباح حتى المساء ، هنا وفي ام درمان وفي واد مدني وفي عطيره وفي كسلا .. في الجنوب والغرب والنوبة .. حتى عندكم في أسوان ..

كان لا يسمع ، فقد تحولت كل حواسه الى عينيها يتسابع حلقات الشبان والبنات يريد أن ينفذ بينهم ليجد حسن ، شعر أنه قريب منه ، أن معجزة سوف تتحقق ، سمع خفقات قلبه فاللحظة أكبر من أن يحتملها قلب بشر ، سوف يلتقى بنفسه بمسقبله ، سوف يلتقى ببقية حياته التي انفصلت عنه وتركت له بقايا حياة وبقايا جسد ونكريات ولا شيء غير الذكريات ..

عبرت السيارة النيل وأشاروا الى « المقرن » المجرن يا أستاذ حيث يلتقى النيل الأبيض بالأزرق ليتوحدا هنا في الخرطوم في نيل واحد كما تعرفونه عندكم .. وعبروا سوقا ، العربات مكدسة بالبضائع تضيئها ، وقد أقبل المساء .. مصابيح غاز ، وحلقات الشبان مستمرة في النقاش ولكن العتمة تحجب الوجوه أطل برأسه من النافذة ، يمت رقبتة ، أيقف السيارة ليقترب من هؤلاء الأولاد ..

امتد الطريق بعد السوق فسيحا .. اختفت منه الأشجار وبدت البيوت ذات الطابق الواحد على جانبي الطريق متباعدة ، بينها أراضى خرابات منحدره متجهمة ، وانحرفت السيارة في

طريق ترابي، وتوقفوا عند سور مرتفع له بوابة مضاعة
بمصباحين كهربائيين ودخلوا منها الى فناء واسع امام بيت
أبيض من طابق واحد، الفناء به حلقة كبيرة من رجال
معممين ساروا به الى مقعد ذي مستدين ووسائتين من القطن،
مقعد أسبوطي كالذي كان جده يجلس عليه في بيت محرم بك
في الاسكندرية، أجلسوه والى جواره المقعد الوحيد الشبيه
بمقعه، خاليا، وتركوه ينظر الى الجالسين وينظرون اليه،
الوجوه طيبة بعضها عابس أو شارد النظرات أو حالم
أو فاحص يقظ، الوقار يحوم فوق العمائم والأجساد المتراسة
تصنع كيانا متماسكا من الرهبة، مخلوق هائل كالأخطبوط
أذرعه الكثيرة هؤلاء الرجال

قال لنفسه : هذا المقعد الخالي لشيخهم الذي يقولون انه
المعلم، التفت خلفه حيث كان البيت له شرفة طويلة بينها وبين
أرض الفناء الذي يجلسون فيه درجات حجرية قليلة، وباب
مفتوح في منتصف الشرفة أمام الدرج الحجري يقضى الى
داخل مضاع بالكهرباء، ولا أحد يظهر من الداخل، متى يخرج
الشيخ، لم يطل اللقائته الى الراء

كان عليه أن يواجه الحشد في الحلقة الكبيرة التي انضم
اليها وارتفع صوت لم يفهم ماذا يقول، وارتفع صوت آخر
ورد عليه وهو لا يفهم، انناه لا تتبينان مقاطع الكلمات وارتفع
صوت ثالث ورابع، انهم ينشدون، يترنمون، وايد تصفق في

ايقاع بطيء ولكنه حاد، الأصوات تندمج في صوت واحد
أجش عريض عميق، صوت هائر، وظهر الرجل الذي جاء
الى حجرته في الفندق ابتسامة في عينيه

يا استاذ .. لماذا لا تنشد ؟

.. انشد .. انشد

همس مرتبكا :

متى يجيء الشيخ .. ؟

صوب الرجل اليه نظرة حادة، واختفت الابتسامة من
وجهه، ويدا انه يفكر في أمر ما ثم تقدم وجلس بجواره في
المقعد الخالي وهمس :

يا استاذ .. لا تقول الشيخ .. انه المعلم .. انه يرفض
لقب الشيخ .. ويرفض ما يقوله الشيوخ .. انه ليس مثل
شيوخ الأزهر عندكم وليس مثل أي شيخ تعرفه انه المعلم ..
الاستاذ .. الذي يخرجنا من الجاهلية الى دين محمد
الصحيح

وجم يوسف .. ما كان يسعى الى اشارة مناقشة، وانقذه
انشغال الرجل بالتصفيق وهو يترنم، ثم التفت الى يوسف
والعاطفة تجيش وتتدفق من وجهه وقال :

انشد يا استاذ، سوف تشعر بالراحة وسكينة النفس ..
ستعرف لونا من الصفاء لم تعرفه من قبل

ارتبك وأجهد نفسه في اخفاء ارتبাকে، الرعوس تتمايل
والعمائم تتمايل برفق، كأنها نسيمات رقيقة، والصوت العريض

الأجش ينساب في وقار ، والأيدي تصفق ، والرجل ينتظر الى يوسف باسم ، عاطفته تستعطف في الحاح أن يشترك ، وصفق يوسف بيديه ، انضم الى الكائن الاخطبوطي وأصبح واحدا من أذرعته ، وحمله الايقاع الى مياه النيل العجوز الذي قطع مراحل طفولته المتوثبة في شلالات بوسط افريقيا ، وشبابه الجريء المقتحم بأفرعه وسدوده الى المجرن حيث عقد قرانه في الخرطوم مع النيل الأزرق ، ثم انطلق وحيدا ، بلا أفرع ، لا ينجب غير المجري الكهل الوحيد ينساب في مصر قبل أن تنتهي عذوبته ويفقد مجراه في البحر المالح ، النيل بلا أبناء ولكنه باق ، وهذا الكيان الاخطبوطي تضيع فيه الحاجة الى الأبناء ، تتلاشى الأفراد .

هذا الكائن ابتلع حسن ، كيف يخرج منه ، لو ترى زينب ما يراه لصعقت ، لهريت فزعة مرتعدة ، تعالى واجهى معنى هذا العالم الذي يختطف الأولاد ، لا يكفي أن تتحصن في فندق « برستيج » تستقبلي سواح العالم بابتسامة ، وهالوه ، وأوكى ، ثم تمطين شفئك الى كل ما يحدث خارج نطاق قلعتك التي تتحصنين وراءها ، وتظنين أنك تتخلصين منه بكلمات عن دنيا متأخرة ، بلدى ، متخلفة ، مبتذلة ليست في مستواك .

لا مهرب يا زينب ، لا نجاة لنا بخصمون من طراز

« برستيج » .

قال الرجل بجواره كلاما لم يسمعه ، فنظر اليه ، مبتسما

معتبرا ، محاولا أن يسأله ماذا يقول ، ولكن السؤال لم يخرج من شفقيه كان يحدث زينب والانتقال من حديثها الى حديث هذا الرجل الذي يطلبه بالانشاد قفزه فوق هوة سحابة بلا قرار ، وحدث هرج عند الباب الخارجى للقناء ، وقفز الرجل مسرعا الى الباب ، وتوقف الانشاد ودخل رجال يتوسلهم رجل طويل مقين البنيان ، وجهه مربع مكتنز ، عيناه قويتان .

كان الرجل يتقدم نحوه ويجواره صاحب يوسف . . . يكون القادم هو الشيخ . . . لا . . . المعلم . . . يجب أن يحذر مثل هذه الهفوات ، انه المعلم يجب أن يتذكر هذا هاهو مقبل نحوه ، وقف قبل أن يصل اليه الرجل . انه نوع من الرجال يفرض عليك أن تقف له اذا اقترب منك بادلته التحية . كلمات الرجل طنين في أذن يوسف . يرد عليها بكلمات مبهمه يتمتم بها - الانفعال في الوجه والصدر ونشاط الذراع واليد والمصافحة أبلغ من الكلمات . جلس الرجل في المقعد الخالى بجواره والبسمة تفيض من وجهه ، بسمة فيها شيء ينكره بوجهه عمر بك السلماوى . فيها نفاذ وتفحص .

بدأت كلمات الرجل تتضح . انه يسأله عن أحواله ، عن مصر . هل هذه هي زيارته الأولى للسودان ، كم يوما قضى في الخرطوم هل يزعم المشى الى مدن أخرى . الرجل يسأل مصوبا عينيه في عينيه . فاذا ما شرع في الاجابة

حول الرجل بصره عنه ، كأنه عرف الإجابة من العينين فلم يعد بحاجة الى اجابة باللسان . واكتفى الرجل بأسئلته القليلة ، وانشغل بحديث هامس مع رجل يجواره ، حتى عادت الأصوات تتجمع في قرنية جديدة واشترك الرجل في الانشاد . . . لم يسأله أن يشاركهم ولم يلتفت اليه ، كان يهز رأسه راضيا بما يراه ويسمعه .

وسقط يوسف في وحدة بلا قرار ، عاجزا عن الفهم عاجزا عن التصرف ، غير قادر على التركيز ، كأنه يحلم ، كأنه يشم رائحة غريبة كالبحور ، دوار خفيف في رأسه ، دوار ناعم كما لو كانت الأصوات محفة تحمله بين طيات سحب ، انتفض صوت يحتج في أعماقه . أفق يا يوسف . انتبه . ان هذا الذي يحيط بك له تأثير التثويم المغنطيسي عليك . لابد أن تتحمل هذه المشاهد والمواقف المتلاحقة التي تمر بها .

أزعجه هذا الصوت الذي يحذره . وساوره الخوف وهو يسأل نفسه كيف يصل الى حسن غير هذا الانشاد ، وهذه الحلقة المشابكة المترابطة حوله ، وعبر تلك الجماعات المنبثقة في الطرقات والميادين والأسواق ، وعبر هذه الكتيبات التي تخرج الناس من جاهليتهم لتدخلهم في شيء لم يسمع عنه ولم يعرفه من قبل . شيء لا صلة له بالشيخوخ لا صلة له بالشيخ عبد السلام صبرى ، ولا هيئة كبار علماء الأزهر ولا المذاهب الأربعة ولا كل ما عاش عليه كدين عاش به الناس أبا عن جد ؟

انتبه وقد انقطع الانشاد ، وقدموا له كوب شاي ، وصحنا فيه قطعة تورتة ، بالله تاكل يا أستاذ يوسف . التورته ليست من الجاهلية ، وانطلق يوسف يثرثر محاولا انقاذ نفسه من دوامة عدم التركيز التي تهاجمه وتجذبه اليها . قال مجاملا ومدافعا عن نفسه وسط هذا الحشد :

— هذا الانشاد يشيع الراحة والسكينة في النفس . .

كان يردد نفس الكلمات التي سمعها منذ قليل . . نظر إليه الرجل بجواره نظرة فاحصة ، ولم يجب كأن الأمر لا يعنيه .

وانطلق يوسف .

— منذ زمن بعيد . . وأنا في حاجة الى الخلاص من حياة القلق والانفعالات العصبية التي نعيشها . . هذا الانشاد يدعم النفس ويغذيها بمعنويات هي في أشد الحاجة اليها . . ان العلاج النفسي الحديث له نظريات مشابهة لما تفعلونه لعلاج النفوس المضطربة . .

أتى الرجل بإشارة فتقدم منه صاحب يوسف وانحنى عليه وتبادلا كلمات همسا ، ثم التفت اليه الرجل ونهض ، ونهض يوسف وصافحه الرجل وتحرك متجها الى باب الخروج ، ووقف يوسف ذاهلا حتى أسعفه صاحبه فقبض على ذراعيه وقد غمرت وجهه فرحة .

الكهل عيناه نفاذتان ضيقتان ، نقنه لم يحلقه تغطيه شعيرات
بيضاء والأطفال يلعبون تحت قدميه ومن حوله وقال صاحبه
هامسا :

المعلم .

كانت مفاجأة ليوسف . كل ما مر به من حلقات نقاش
وقرائيم وأسئلة اختبار ، وشساي وتورته ، انتهى الى ذلك
الكهل الواقف عند الباب ، لو رآه في الشارع بالقاهرة لظن
أنه شحات . أهذا هو الرجل الذي يتسول نفوس البشر ،
ويطلبها لتجبه معه الى الله في طريقه الذي يقودهم فيه ؟
كانت تحية الرجل صامئة ، عيناه حزيتان ، ليس فيهما
فرح ، لم يتحرك من مكانه ، لعله خشى أن يصطدم بأطفال
تحت قدميه ، دفعوا بيوسف داخل البيت ، مرقوا من باب
صغير الى ممر ضيق يفترشه أكثر من جسد ، أهم نائمون ،
أم مرضى ، أم ماذا ؟ في نهاية الممر الصغير حجرة يسدها
حاجز خشبي طوله شبر ، الحاجز الذي يعترض من يدخل
المسجد ، وطلبوا من يوسف أن يخلع نعليه قبل أن يطأ بقدمه
حصير الحجرة التي هي أرض طاهرة . حجرة ضيقة بها
امرأة نائمة على سرير من عنجريب أيقظوها أو هشوها كما
كما نهش الدجاجة من التقيصة ، امرأة في الأربعين ، النعاس
في وجهها المنتفخ بالنوم ، خرجت تتمتم ، طلاء الحجرة من
الأزرق تآكل وسقطت أجزاء منه وظهرت خدوش تكشف
الجبس الأبيض تحت الطلاء ، أمام العنجريب الذي تركته

سوف تلقى بالمعلم .

همس يوسف :

أين ؟

قال الرجل :

سنذهب اليه في داره .

اذن فقد اجتاز مرحلة الاختبار . ومر بإجراءات التحضير
والاعداد للقاء . ترى كيف يكون هذا اللقاء . أية طقوس
سوف تحيط به . . أية فداسة سوف تكشف عن مظاهرها له ؟
لقد جاء من أجل قضية شخصية . ولكنهم يقابلونه على أنه
رجل اعلام يحيطونه بكل المظاهر والدعاية لقوتهم بدرسونه
ويفحصونه ويراقبونه قبل أن يصلوا به الى قيادتهم .
دخل العرية الأولى من جديد ، تاركا وراءه مشهد الحلقة
بوجوها الطيبة العابثة المتفحصة الحاملة ، وقطعوا طريقا
متربا على جانبيه بيوت ريفية ودخلوا زقاقا ضيقا مظلما ،
تضيئه أنوار السيارة لتكشف جدران مهدمة وأطرافا وأشباحا
غير محددة . تنحشر السيارة في الزقاق حتى تقف أمام بيت
من طين .

كشفت الأنوار عيالا حفاة يلعبون ورجالا ونساء يتحركون
في ملابس رثة ، يقف بينهم كهل قصير نحيف له غطاء رقيق
من الشعر الأشيب فوق رأسه الأسمر ، ظهره منحني وهو
يتكى على عصا غليظة طويلة كالتي يمسك بها الرعاة .
هبطوا من السيارة وتقدموا في طريقهم الى باب الدار من

المرأة تستند الى الجدار اريكة خشبية عالية يغطيها سجاد
رث ذهبت ألوانه . بجوار الأريكة في ركن الحجرة مكتب
صغير خشبه البنى به خدوش وشقوق ، بجواره دولا بكتب
صغير من نفس خشب المكتب له زجاج مكسور به رفان عليهما
كتب قديمه وفوق المكتب نافذه صغيرة عالية مغلقة بضلفة
خشبية وبجوار المكتب وبين الباب مقعد اسسويوطى
بالوسادتين القطنيتين ، وجلس عليه يوسف ، بينما أقبل رجال
خلعوا نعالهم ، يحملون مقاعد خشبية رصوها في ثلاثة
صفوف بين العنجريب والاريكة وجلسوا صامتين ينظرون اليه
بعيون بلهاء وعيون مأكرة وعيون حذرة وعيون حزينة او
باسمة .

كل هذه العيون تحولت فجأة الى الباب قبل ان يظهر
المعلم وهبوا واقفين لابد انهم شعروا بحركة تنبىء بمقدمه ،
تردد يوسف في الوقوف حتى ظهر المعلم فوقف ، ومر به الرجل
متجها الى الأريكة وجلس عند طرفها الملتصق بالمكتب واستند
كوعه على طرفه ، ونظر اليه بعينه الحزينتين وتمتم بكلمات
ترحيب بصوت ضعيف ، ثم سكت يدعو الى الكلام ، يفرض
عليه ان يتكلم والا غرقت الحجرة بمن فيها في صمت رهيب .
انطلق يوسف مثرثرا لقد استنفاد من الاختبارات التي
اجتازها ، تحدث عن الراحة النفسية والسكينة . هذه الترانيم
الجميلة ذات الإيقاع المؤثر ، انها تمس المشاعر الدفينة في
النفس ، ثم هؤلاء الشبان والشابات في كل مكان ، منظر مؤثر

لا بد أنكم قوة . . هذه نعمة كبرى من الله .
قال جملته الأخيرة وهو يتذكر عمر بك السلماوى وهو
يحدثه عن نعمة تدين حسن .
استمع المعلم اليه حتى اطمأن بلفظة سريعة الى الحاضرين
أنهم حصلوا من هذا الغريب القادم من القاهرة على اعتراف
شامل وكامل بوجوده وأهميته . خيل ليوسف وهو يتكلم أنه
يتورط وأنه يدلى بتصريحات رسمية ومع ذلك كان لا يستطيع
أن يتراجع ، وكان لا يدري لماذا يتراجع . ان المجاملة والكلمة
الطيبة هي الطباع الأصلية في المصريين ثم ان كل ما يقوله
هو مقدمة لابد منها للوصول الى ما يبتغيه . ان يسأل الشيخ
على مكان حسن . من يدري . قد تكون لهذا الرجل كرامات
قد تتحقق على يديه « المعجزة » .

ومع ذلك انتاب يوسف احساس غامض ، بأنه قد يخطئ
لو اندفع فى اطراء هذا المعلم انهم يعاملونه كعضو فى وفد
رسمى وقد يفسرون كلامه على أنه تأييد من مصر لهذه
الجماعة الدينية التي لم يعرف عنها شيئا حتى ساعات قليلة
مضت .

أخرجه المعلم من حيرته بأن شرع فى الكلام عن طريقته ،
منهاجه فى الدين . القرآن له تفسير للعوام . وله تفسير
للخاصة ، الجاهلية الاولى انتهت ، ولكن تلتها جاهلية ثانية لم
تنقته بعد . الناس تمشى فى طريق الضلال . يحاربون بعضهم
بعضا ، يتقاتلون على المصالح الدنيوية وينشغلون عن الله .

الله أكبر من أن نتشغل عنه بالتوافه التي يتوهمون أنها أشياء خطيرة .. الله أكبر من أن نتشغل بما يسمونه محاربة الاستعمار وتأميم القناة ، الله أكبر من أن نتشغل عنه بهذه العلوم الفاسدة التي يدرسونها في جامعاتهم لينصرف الناس إلى عبادة صروح مشيدة ، ويروج لا تحميتهم من غضب الله . كل ما في الدنيا من مذاهب وأفكار وسياسة لا قيمة له ولا طائل من ورائه . ما قيمته إذا وضعته في كفة ووضعت في كفة أخرى التهجد والخشوع لله بالليل .

تدفقت الكلمات من الشيخ في صوت كان أول الأمر خفياً لنا ، ثم بدأ يقوى ويشدد حتى أصبح له صليل وحدة صدمت الكلمات يوسف وبقدرة ما أدهشته وأفرعته بقدر ما شعر بتجاوب خفي بينه وبينها لا يدري كيف تسلسل إليه .. ولكنه يعرف أن أي حديث يسمعه يقوض دعائم الذين يتشددون بالعلم والشهادات ، ويحتقر الجامعات ويسخر من الأفكار ، يجد صدى في نفسه ، أنه لم يصنع حياته الأعلى إلا على دعائم القصدى لكل هذا رفض التعليم الجامعي ، وخرج من السفة الثانية من كلية الحقوق ضارباً بكل المستقبل الذي أرادوا أن يفرضوه عليه عرض الحائط .. لا يشعر بكراهية ونفور أكبر من ذلك الذي يستولى عليه وهو يقابل مؤلفاً يتحدث عن النقد الأدبي والفني الذي درسه في كلية الآداب .

استطاع أن يقنع المخرجين بأنه صاحب الموهبة . حارب بكل الأسلحة ليصل إلى ما يريد ، وليصل إليه بغير الطريق

الذي أرادوا أن يفرضوه عليه . الغلبة للأقوى ، والويل للمغلوب ، كل الأسلحة مباحة في الحب والحرب ، ومع ذلك فهو يتعلم ، ويقرأ ، ولقد أقبل في السنوات الأخيرة على قراءة شكسبير وتوماس مان وميكافيللي - أنه يتسلح بكل الأسلحة الثقيلة ليقتضي على كل من يتهمة بأنه رخيص وتجاري ومبتذل .

تهدج صوت يوسف وقال متفعلاً :
- أنت رجل صالح .. ولقد أكرمتني بمقابلتك لي .. ولقد جئت إليك .. لأنني في حاجة إليك .

نظر الرجل إليه مشجعاً ، واتجهت كل العيون إلى يوسف .
قال يوسف في ضراعة :

- ليترك ترشدني إلى ابني الذي هجرني .. ترك البيت واختفى .. كان لا يرضيه شيء في دنيانا .. وقالوا إنه قد يكون قد جاء إليك ..

وجه المعلم نظرة حزينة إليه وسأل بصوت ضعيف :
- ما اسمه ؟

أجاب يوسف بلهفة :

- حسن .. حسن يوسف منصور .

سأل المعلم :

- من أي بلد أنت ؟

أجاب يوسف بسرعة :

٠ من مصر ٠

قال وقد أحتد صوته :

٠ أعرف ٠٠ لكن هل أنتم من الصعيد ؟

أجاب يوسف :

٠ لا ٠٠ أصلنا من الاسكندرية ٠٠

قال المعلم :

٠ لا أظن أنه قد جاء إلينا ٠

أينكر الرجل وجسود ابنه ٠ أيرفض تحقيق المعجزة أمام أتباعه ٠ أيتقبل منه كل هذا المديح والاطراء والمجاملات ٠ ثم لا يقدم له شيئاً ٠

كان يبحث في نظرات الشيخ عن حسن ٠ لماذا يخفيه ٠٠
أهو يدبر شيئاً في الخفاء ؟

وفجأة خطر ليوسف ٠ أن كلامه الذي صرح به للمعلم محمد زكريا ٠٠ قد يكون وراء محاولات اللواء الصوت لاستدراجه ٠٠ هناك من نقل اليهم أنه يؤيد هذا الرجل ونهب إليه رغم أنه في وفد اعلامي رسمي ، وبإيعه رغم أنه قال له ان قأميم قناة السويس كان خطأ وانشغالا عن الله ٠

أهذا هو ما يسعى إليه الحوت ٠٠ ا يكون هناك مؤامرة قد تورط فيها وهو لا يدري ، حدث شيء ما في السودان استغلوا فيه اسمه ٠

وسمع يوسف صوتاً يناديه ٠٠

أفاق من خيالاته ليرى عيني زجاج تحدثان في عينيه ٠٠
الحوت وقف أمامه ٠ يهتف :

٠ أين أنت ؟ لقد فرغت من صلاتي ٠٠ فلم أجـدك ٠٠
فانتظرتك ٠

وانقبض صدر يوسف ٠٠ ولم يعد واثقاً مما يسعى إليه
الحوت ٠٠ لم يعد واثقاً من شيء على الإطلاق ٠

وجهه بيده .. فاخفتت عيناه
الزجاجيتان وراء أصابعه ، فلما انزاحت عنهما الأصابع ،
كانتا أكثر لعانا عينا مصقولتان ، تذكران يوسف بعيني
طائر غريب رآه محنطاً وهو طفل يزور مقف هديقة الحيوان
مع أبيه . كان يتذكر عيني الطائر وهو راقد في فراشه فيفرغ ،
ليال طويلة وهو يستيقظ صارخاً فتحتضنه أمه ليكتمش في
صدرها الحنون الدافئ .. ويتمنى لو يغيب .. يختفي في
هذا الصدر ولا يخرج منه أبداً . أين صدرك يا أمي لأحتضني
به من الحوت ؟

همس الحوت وقد فرغ من مسح وجهه .

— نمشي قليلاً .. الحديث طويل .

تردد يوسف وهمس بدوره :

— كدت أن أتوه ..

ابتسم الحوت ، وأطمأن ، وجذبه برفق من ذراعه ، وهو
يفتح صدره ليستنشق هواء جلبيه نسيم منعش ، رفع يوسف
بصره إلى السماء ، كأنه يريد أن يؤكد من وجود الشمس ،
أشعتها ناعمة لينة ، لا تتناسب مع أشعة الظهيرة في أية سماء

بلا سحاب . ورأى الظلين الأبلهين يتبعانها تحت اقدامهما
بينما انساب صوت الحوت حنونا طيباً ، على وجهه امارات
أسى ، جعلت يوسف يستقرب في وساوسه وشكوكه .

بدأ الحوت بالحديث عن عمله في المباحث وتخصصه في
مكافحة الجرائم السياسية ، خبرتي القديمة منذ أيام فاروق
هي التي رشحتني لهذا التخصص . رحبت به لأنه أنقذني من
شحططة العمل في الأرياف . وبقيت في عملي لأنني كما قلت لك
أعرف حدودي . لم يركب رأسى الغرور يوماً ما . لم أتوهم
أنى صاحب سلطة . هذا الوهم هو أخطر ما يصيب رجل
الشرطة الذي يتعامل مع الجرائم السياسية . أنها مجرد
مهنة ، حرفة من الحرف ، أخطاءك تبدأ في اللحظة التي تظن
فيها أنك صاحب رسالة أو تتبنى سياسة حاكم ثم تدور الدوائر
وتجد نفسك مطروداً معه وقد حملوك كل ذنوبه .

العملية بالنسبة لي انحصرت في اثبات كفاءتي باليقظة
الدائمة ، كنت ألزم مكتبي في الأيام العصبية ليل نهار . أحياناً
أغيب عن البيت ثلاثة أيام متواصلة ، وأحياناً أعود إلى البيت
في الفجر لأكون في مكتبي في الثامنة صباحاً ، لأن كل شيء
يتوقف على سرعة الاستجابة للأحداث ، أن تحاصرها في بيت
أفضل من أن تواجهها في مدرج بالجامعة ، وأن تواجهها في
المدرج ، أفضل ألف مرة من أن تضطر إلى مواجهتها في الشارع
لذلك كانوا يقولون : إذا طلبت الحوت في أية ساعة من النهار

أو الليل ، سوف تجده يجيب بنفسه على التليفون ، طبعاً أنا
أنا لست ساحراً ، ولا أدعى أنى أقوم بالمعجزات ولكنها مجموعة
من الصدف ، وتوفيق من الله لأنى رجل طيب واحترم
عملى ، كل ذلك جعل الرياسات تطمئن الى . لن أطيل عليك
فأنت تريد أن أصل بك الى موضوع ابنك وهذا هو أيضاً ما
أريده ليستريح ضميرى ، لأنى أب مثلك وقد أراد الله أن يحفظ
لى بنتين ، أما الأولاد الذكور فشاءت حكمته أن أرى اثنين
مفهم مجهضين ، وثالثاً تذكره ربه قبل أن يبلغ العام .

أتصدقنى أو قلت لك انه الحسد ، نعم العيون الفاجسة
التي تحسد ، هذا فى القرآن ومن شر حاسد اذا حسد ،
يا بختك يا سعد على الأقل تستطيع أن تربي أولادك فى بيئة
نظيفة ومدارس محترمة فى القاهرة . سمعتها وبعد يومين
رأيت الجنين الذكر مجهضاً فى شهره السابع .

الولد راح بعد أن أصبحت رئيساً على زملائى بشهر . لم
تبق الا البنتان ، وأنا راض بما اختاره الله ، كل شئ قسمة
ونصيب . ولكنى أريد منك أن تعرف أن سعد الصوت الذى
يقف أمامك وأمام خالق الكون ، يعرف تماماً حرقه الحرمان
من الولد . كنت عندما الخيب عن البيت ولا أرى مديونة
وخديجة اشعر بالألم كالخناجر تمزق صدرى . كانت مديونة
وهى الصغيرة تقول لى وحشتنى يا بابا فأغلب دموى . لن
انسى وهى مريضة راقدة فى السرير عندها الحصبية ، ووجهها

ملتهب وصوتها مختنق وحرارتها أربعون ، وهى تقول لى
تحاول الابتسام . لا أريد أن أشفى لأنى أراك كثير الآن .

حياة غلب فى غلب . ولكنك تعود الى المكتب ، فجدد
التليفونات والتقارير ، وطلبات من الوزير ، وأحياناً من الرجل
الكبير . والدنيا مقلوبة . ولابد أن تطمئن الى تنفيذ
التعليمات .

المهم ، كان أحد هذه التعليمات فى فترة من الفترات أن
أدعم اتصالنا بالجماعات الإسلامية ، استعداداً لخطة عمل
جديدة . طبعاً نحن على اتصال بكل من لهم نشاط سياسى فى
البلد أياً كانوا . الشيوعيون بكافة أنواعهم واتجاهاتهم ،
الصينى والروسى والأوروبى والكوبى أشكال واللوان فوضويين
وبعثيين وقوميين وناصريين . جمعيات دينية اسلامية .
قبطية . يهودية . بهائية . جمعيات نشاط ثقافى أو
اجتماعى فى الجامعات ، فى النوادى فى المقاهى ، فى البيوت
. . . كله . . . لدينا عيون وأعضاء منضمون الى هذه
التجمعات . قيادات بينهم تعمل لحسابنا . . . يعنى آية
جماعة يخطر ببالها ان تدخل فى موضوع السلطة والسياسة
والحكم . . . كانت مهمتى أن أكون بينها . . . أجمع المعلومات
وانظم الارشيف وأستكمل بيانات كل مجموعة . . . فإذا سألتونى
. . . ما هى حكاية فلان يا سيادة اللواء ؟ يسألوننى وهم
مطمئنون مائة فى المائة أن سعد الصوت مستعد وجاهز .

عندما طلبوا منى تدعيم اتصالاتى بالجماعات الإسلامية لم أكن أنتظر حتى يصلنى هذا الطلب .. كنت على اتصال بها بالفعل وعندى أخبارها بالكامل .. الى درجة أنه كان بين جماعة من التقوى والتقية .. ضابط من أولادى ، وبينى وبينك لم يكن متدينا .. ولكنه كان نشيطا وذكيا وله طاقة كبيرة على العمل ، وبينى وبينك كنت لا أستريح لشخصيته .. وهذا هو الخطأ الكبير الذى وقعت فيه . أرجوك يا أستاذ يوسف .. لا تنتظر الى هكذا .. أصبر .. حتى أقول لك كل شيء .

كان يوسف يواجهه بعينين غاضبتين وقد بدا عليه الضيق وهمس :

— تحدثنى عن زياد الأسمر ؟

قال الحوت :

— طبعاً .. أنت تعرفه .. والعالم كله يعرف حكايته .. رفع يوسف صوته المختنق بالغضب :

— هو أيضا اخترته لتصل به الى حبل المشنقة .. كما وصلت بابنى الى المؤبد .

قال الحوت وهو يتشبث بذراع يوسف :

— أرجوك .. أصبر .. أنا لا أحدثك الآن عن قتل الدكتور أبو الفضل . عميد الحقوق . أنا أحدثك عما لا تعرفه .. ولا يعرفه الا قلة نعدما على أصابع اليد الواحدة .. الجريمة كانت ستحدث سواء كان المعرض زياد الأسمر أو غيره .

وسواء كان الذى طعن أبو الفضل بالخنجر كان حسن يوسف منصور .. أو عبد السميع .. أو أى شاب آخر .

صاح يوسف :

— هل أنت واثق من هذا ..

قال الحوت متوسلاً :

— لو تسمعنى .. أجل الحكم حتى تسمعنى .. اسمعنى ثم قل ما تشاء .. ان ما أريد أن أبوح لك به يورق ضميرى .. وأكنى أشعر أن هناك أملاً .. ولو بصيص من الأمل فى أن تفهمنى وتقدر ما أنا فيه .. أنت من دون الناس كلهم .. لأنك أب منكوب فى ابنه الذى كنت مسئولا عنه .. قلت لك انى أريد أن أصفى الحساب .. فأما أنا . مجرم كما اتهمتنى أو أنا مجرد سبب من الأسباب لما حدث ..

هز يوسف رأسه مستنكراً ما يسمعه .

— لست أفهمك ..

هتف الحوت يائساً :

— ولا أنا أفهم نفسى .. ولا أفهم ما الذى يدفعنى دفعا الى هذا المكان ويفرض على أن أتكلم .. أرجوك اعطنى فرصتى . وأسرع الحوت يتحدث عن زياد الأسمر قبل أن يقاطعه يوسف ، ذات يوم دخل زياد على ضابط مرعوس له ليبلغه تعليمات أصدرها الحوت ، فوجد الضابط يصلى ساجدا لله ، فناداه ، فلم يلتفت اليه الضابط ، فركله زياد الأسمر هاتجا

وأخرجه من صلاته ، لينطلق وينفذ الأوامر ، كان قاسياً لا يرحم . فيه غلظة وميل إلى التسلط وممارسة الجبروت . وكان معتدا بنفسه إلى حد الهوس ، أبوه عمدة من برارى الدلقا ، حيث استطاع الأقوياء الشرسون الاستيلاء على المساحات الشاسعة من الأراضى . بصراحة اخترته لمهمة التسلل إلى جماعة « التقوى والتقية » وأنا أقول لنفسي ، هذه عقوبة له ، فلي انضم إلى جماعة متدينة تمارس الطقوس الدينية بمنتهى التزمّت والتشدد ولسوف يضطر للخضوع إلى طقوسها . ومن يدري لعل نفسه الشرسة تنهذب من هذه التبعية الاجبارية . والدهش أنه بعد شهور قليلة كان زياد الأسمر فى قيادة هذا الجماعة .

وكان يأتينى بكل ما أريده عنهم من معلومات . قام بواجبه على أكمل وجه . عرفت أساليبهم فى الدعوة ، أين يدربون الأولاد ، ما يدور فى اجتماعات القيادة . كانوا يعرفون أنه ضابط شرطة ، ولكنه كان يمثل من وجهة نظرهم انتصارا كبيرا لهم . كانوا يهتفون انفسهم بأنهم تسللوا إلى قيادة المباحث ، مما هيا انهانهم لوضع الخطط للاستيلاء على السلطة ، كل هذا كنت أعرفه عن طريق زياد . وكان ينفذ لنا أى توجيه . يا زياد الشيوعيون يدبرون شغبا فى الجامعة ويمهدون له بجرائد حائط يكتبون فيها مقالات تهيج . كان زياد يتحرك من قيادة جماعته ، فينقض أولاده على الشيوعيين يحاصرونهم ويمزقون جرائدهم ويرهبون من يفكر فى مجرد

السؤال عن أخبارهم ، نفس التكتيك الذى كنت أستخدمة من خلال قيادات للشيوعيين لضرب أى تحرك من الجماعات الدينية أو غيرهم اذا ما أقدموا على حماقة ، وتوهموا أنهم قادرون على فرض رأيهم على السلطة . عملية توازن مستمر ، فاذا حدث التوازن حدث الاستقرار ، ويدخل المتطرفون الشقوق والجحور حتى تحين لهم الفرصة لمعاودة الظهور .

أول مرة قرأت فيها اسم حسن يوسف منصور ، كان فى قائمة لمجندين جدد أرسلهم زياد إلى معسكر تدريب فى البحر الأحمر . كانوا يتدربون تحت سمعنا وبصرنا . الكاراتيه . والجودو . واستخدام الخناجر . وكنت مطمئنا اليهم . لأنهم قوة أمن تحت قيادة ضابط من ضباطى . وقد أستعين بهم فى مواجهة مؤامرة للتخريب ، فيكون الشعب هو الذى تصدى للمؤامرة لا رجال الشرطة .

كنت أضع كل اسم تحت فحص دقيق . أحيانا يتسلل إلى هذه الجماعات مندوبون من جهات متعددة كـ ج . ب . الروسى . الـ س اى ايه الأمريكانى . إسرائيل . البعث . المنظمات الفلسطينية . الفهود السود . الألوية الحمراء . عالمنا اليوم أصبح عالمين : عالم على السطح . وعالم تحت الأرض . فيه من الجمعيات السرية والإرهابية أكثر من الجن والعفاريت وكل سكان العالم السفلى من رعايا إبليس .

بالشيوعيين في التليفزيون • وأنت واقع تحت تأثيرهم •
خاصة مجموعة « ش • ش » شيوعية شعبية • وفي حفل
إقامه الملحق الثقافي لسفارة ألمانيا الغربية ، قلت أن أمريكا
سوف تنهار ، وتدخل في الحديث الملحق الصحفي الأمريكي ،
وكنت تتحدث معه بالإنجليزية رديئة ، وعندما انصرفت قال
الملحق الأمريكي لمن بجواره • لا أدري لماذا يكرهنا ••

طبعاً كانت لدينا تقاريرنا الخاصة وفيها معلومات عن
سهراتك مع مخرجي التليفزيون وشلل الفنانين • ولقد
خرجت من كل هذه التقارير بأنك غير خطر فيما يخصني ••
ولم يدهشني أن جميع الأطراف تتبرأ منك ، وتلحقك بمعسكر
الخصوم • فأنت لا تفكر إلا في نفسك • اتصلت بالشيوعيين
حين كان الاتصال بهم يسهل إذاعة تمثيلياتك والتعليق عليها
في الصحف • ولكنك في أمريكا قلت لهم أنك تريد أن تعيش
بينهم ولعلك كنت تفكر في أن تصبح كاتباً مشهوراً له أفلام
يخرجونها في هوليوود • وعندما قلت في سفارة ألمانيا أن
أمريكا ستتهار ، كنت تجامل الملحق الألماني الذي قلت له كما
قرأت في تقرير لنا أنك رغم كل ما يحدث مازلت معجبة •
بـهتلر •

ولا أدري كيف فانت هذه التفاصيل على الأمريكيان • ولكن
هذا هو عيب التقارير • والعيب الأخطر في الذين يقرأون
التقارير أنهم لا يكلفون أنفسهم مشقة المقارنة والتحليل ••

التحري هو إجراء روتيني لابد منه • طلبت تحريات كاملة
عن حسن • وعنت فأنت أبوه ، ولك نشاط في التليفزيون
والكتابة ، وهذا يجعلنا نحتاج أكثر وأكثر والذي يتعامل مع
أجهزة الإعلام لابد أن تستوفي تحرياتنا عنه من كل جهة ، أيام
كنا على علاقة حسنة بروسيا كانت تصلنا معلومات عن
النشاط السياسي في مراكز كثيرة على سبيل التعاون معنا •

وكانت أغلب معلومات الروس تعتمد على تقارير تصلهم
من الشيوعيين • وكان زعمائهم قد خرجوا من المعتقلات
وانتشروا في أجهزة الثقافة والأعلام • في أحد التقارير قرأت
أنك من ذوي الاتجاهات الرجعية ، وأنت تمت بصلة قرابة
لشيخ الأزهر عبد السلام صبرى ، شيخ بارز في عهد الملك
فؤاد ، وأن شقيقه لطيف صبرى الذي كان سفيراً ووكيل وزارة
هو زوج أمك • وأنت سافرت مع وفد مصلحة الاستعلامات
بدعوة لافتتاح خط جوى إلى أمريكا وحضرت حفل كوكتيل في
نيويورك وشربت حتى فقدت وعيك •

وجلست على الأرض بجوار أحد الأمريكيين تعانقه وتقول
له وأنت تبكى لا أريد أن أعود إلى مصر •• أريد أن أعيش هنا
•• وقال مسئول في التليفزيون أنك رجعى ، وقال آخر أنك
إنسان بغيض مدلل • وأنت غير متعلم ، ولك ميول فاشية
تعوض بها جهلك •• في مقابل هذا كان هناك تقرير أمريكي
عندما تحسنت علاقتنا بالأمريكان يقول أنك كونت صداقات

وأنا سعد الحوت من القطة التي لا تقبل أى تقرير على علاته ،
للأسف يستسهل الآخرون الأمر ، فأنت بعثى أو شيوعى أو
ناصرى أو رجعى حسب السطور التي تقع تحت عينى من يقرأ
تقريراً وهو متعجل يريد أن يتخلص من أكوام التقارير المكسدة
أمام عينيه المجهدتين ، ومع ذلك أقول لنفسى الآن إن أمانتى فى
العمل وحرصى على التدقيق ، هما اللذان أوقعانى فى هذا
الموقف الذى أقفه الآن معك . لو كنت اكتفيت بقراءة التقرير
الذى يقول أنك خاضع لتأثير الشيوعيين ، واستسهلت الأمر .
كنت حسدت زياد من تجنيد ابنك لتأمينه من أى تسرب
شيوعى ، وكنا أعدناه لك . ولكنى وجدت أن له صلة قوية
بعائلة دينية كبيرة ولها اسم مازال الناس يذكرونه ، وهذا
الاسم يعطى نكهة خاصة للمجموعة التي تعمل مع زياد .
ومادام هو راض عن حسن يوسف منصور فليكن له ما يشاء .
لا بد أن يطمئن الى رجاله ، ويستطيع أن يواجههم فى المعارك
التي تنشب كل يوم فى العالم السفلى . النشاط السرى المعادى
الذى نواجهه بنشاط سرى مضاد .

والمثل يقول لا يقل الحديد إلا الحديد ، وداونى بالتى كانت
هى الداء ، ومن المستحب أن تجمع فى صفوفك عينات من البشر
تواجه العينات التي تحاربها . الشبان ينجذبون الى العمل
السرى من كل طبقة ومن كل بيئة . العمل السرى يرضى
شعورهم بالمغامرة وأحلام البطولة والمخاطرة والغريزة

المنطلقة للمراهق تريد تحطيم كل شيء . ولكن فى الوقت نفسه
وجدت بخبرتى ان الشاب من هؤلاء متعطش فى نفس الوقت
للمطاعة العمياء . يبحث بأسنانه وأظافره وبكل طاقات روحه
عن قوة يحترمها الى درجة التقديس ويستسلم لها ويعيش فى
كنفها . ماذا يبقى للولد الذى يفقد احترامه لأبيه وأمه ، ويفقد
احترامه لمدرسته وناظره ومدرسيه ، ويفقد احترامه للكبار ،
يجلس بينهم فيجدهم يتشائمون ، ولا يخرج حديثهم عن نطاق
السرقا والرشاوى يتهمون بها أصدقاءهم بمجرد ان يولوا
ظهورهم .

الولد الذى يتعرض لهذا التغير من حوله ، يتمرد على كل
شيء وينطلق لتدمير كل ما حوله ، حتى ولو اكتفى بتدميره فى
خياله ، ولكنه يفقد توازنه ويحاصره الضياع ، ويتمنى فى
قرارة نفسه ان يستعيد أمنه واستقراره ، والشعور بالحماية
الذى يفتقده ، وهنا يتقدم العمل السرى برهيقه والهالة
الباطشة التي تحيط به . السرية والغموض والاشتراك فى
عمل مع آخرين مجهولين . والانصياع الكامل لأوامر
وتعليمات قيادة عليا مجهولة تصدر قرارات مقدسة لا بد من
احترامها ، ولا تهاون مع من يخالف الأوامر ، انه يفقد حياته .
بطش وارهاب . نعم . ولكنه وضوح واستقرار وأبيض وأسود
لا لف ولا دوران . وهذا هو ما يستهوى الشبان .

وهذا هو ما انفجر فى البلاد كالوباء بعد كارثة ١٩٦٧ ،

هزيمة ساحقة ، وخيبة أمل لا مثيل لها • سقطت هيبة الكبار ، ضاعت الآمال ، القوة الرهيبة المنتصرة تحولت الى رماد في دقائق • سقط الناس في كابوس ، أو استيقظوا من كابوس • هذا ما قاله الأولاد لأنفسهم ، افقنا من خدعة انلقنا واهانلقنا • وانطلقوا وراء قوى سرية تصبدر لهم القرارات وتطالبهم بالطاعة العمياء • وانصاعوا لها ليتخلصوا من ذل الطاعة العلنية لمن قادوهم الى الهزيمة • اتجهوا الى الجمعيات السرية بحثا عن سلطة جديدة أو طمعا في الارتباط بسلطة لم تنهزم ، أو وصولا لسلطة تعوض المهانة العلنية بأعمال سرية فيها بطش وانتقام واستعلاء • أعمال تتم بتدبير في الخفاء • شبان من كل لون ، طبائع مختلفة ، خليط من المثالي والمتعصب والأحمق والأبله والقاسي والخائن والدساس • فقراء وأغنياء ، جهلة أميون ومتعلمون ، جاءوا يضعون ارادتهم تحت تصرف قوة سرية مجهولة لا يعرفون عن أشخاص قيادتها شيئا مصددا ، ولكنهم يثقون في بطش هذه القوة وجبروتها • يستمدون منها الاحساس بالقوة والقدرة على البطش الذي يسترد للنفس المقهورة عزتها وكرامتها • كان أحد التقارير يصف حالة ابنك وصفا رأيت فيه نموذجا متكاملا لكل مواصفات الشاب الذي ينضم الى جمعية سرية • سواء كانت فوضوية شيوعية ، ملحدة ، أو دينية متطرفة • النماذج تتشابه والسبيل التي تختارها تختلف الرهان بالنسبة لهم جميعا هو السلطة ، لا مبادئ ولا يحزنون • ابنك رفض سلطة

البيت فقد احترامه لها • كان قد خرج من مرحلة الاستجابة الى مرحلة الالتصاق • فالذين ينضمون الى « التقوى والتقوى » لهم درجات ومراتب أولا ينضم الى المستجيبين ، فهو يستجيب لما يسمعه من الدعاة ، ثم أصبح من اللاصقين الذين أقسموا على الارتباط بالجماعة ، وقد جاء في التقرير أن اللاصق حسن قد انفصل عن أهله بمحض ارادته ، وأنه لجأ الى أحد زملائه اللاصقين • وطلب منه أن يأويه في داره ، اتصل هذا اللاصق بأحد « الفتيان » وهو من مرتبة أعلا وأخبره بالموضوع ، فرفعه الى القيادة وبحثوا أمره ، فوجدوا أنه قطع شروطا يؤهله لأن ينضم الى زمرة الفدائيين •

كان العضو يمر بمراحل عليه أن يجتازها ليرتقى درجات العضوية • أولا يمر بامتحان التفريس • يفحصونه ويراقبونه فإذا وجدوه صالحا أى مستجيبا لا يكثر من المناقشة ولا يعترض على ما يسمعه بل هو متشوق لسماع المزيد متلهف - مثل حسن - الى الانتماء الى من يرشده ويقوده • أدخلوه في الاختبار التالي ، وهو القانيس ، يطمئنونه ، ويهيئون له الجو الذي يستريح فيه ، فهو دائما على حق ، وهو ضحية الحياة في هذه الدنيا الفاسدة •

ما يلحقه من مضايقات بسبب فساد أهله • وخروجهم على الدين القويم ، هو على حق وأهله على خطأ ، هو الصالح الذي

يُشير بالفلاح ، لأنه مازال محتفظا بفطرته أما أبوه وأمه ومدرسته ومعلموه وكل ما حوله من أهل وأقارب ومجتمع فيه صحف وتلفزيون ودور سينما ومسارح وإذاعة • فهو الشر والفساد والتعفن وغضب الله على الكافرين •

ويشعر الولد أنه يقف قويا قادرا ، مستمسكا بالحق في وجه الشياطين الذين يعيشون في الأرض فسادا • وعندما يتحصن بهذه القوة المعنوية ، حتى يكاد يركبه الغرور ، يتسلمه أحد الدعاة وهو من مرتبة أعلا من مرتبة الفتيان والفدائيين • رجل له خبرة بنفوس الأولاد المراهقين ، يتلذذ بممارسة سيطرته النفسية على الأولاد والشبان ، مهمته أن يستدرج المستأنس إلى الاحساس بأنه لم يفهم شيئا ، كلما فتح فمه ليقول كلمة أو أدلى برأى قال له الداعي • لا • ليس الأمر كما تقول • أنت لم تفهم بعد • أمامك شوط كبير تقطعه قبل أن تدرك حقائق الأمور •

يظل الداعي يحفر الأرض تحت قدمي المستأنس حتى يسقط في هوة الشك ويهاجمه احساس مخيف بالضياء •

وينهار كأي مدمن فقد المادة التي تشرب بها جسده ، وتسمنت بها دماؤه ثم عجز عن الوصول إليها • لقد تعود على تلقى التأييد لكل ما يقول • تعود على الترحيب بآرائه • اطمأن إلى نفسه • أطمأن بأصحابه اللاصقين والفتيان ، أصبحوا المجتمع الذي ينتمي إليه • هم أهله • هم أصحابه •

هم أقرب إليه من أمه وأبيه ، فما الذي حدث حتى يحرم من كل هذا • فلم يعد لكلامه نفس القبول القديم • وما هو الداعي صاحب المرتبة الكبيرة • يرفض ما يسمعه منه ، ويكاد يطرده من مجتمعه الذي التصق به • احساس مخيف بالضياء ينتاب المتشكك • أنه يبحث عن ينقذه • يبحث عن يسعفه ويعود به إلى مكانته في الحظيرة التي يوشك أن يطرد منها •



وهنا يتدخل الداعي وقد وصلت الازمة في نفس المتشكك إلى ذروتها فيلقنه التعاليم والتوجيهات التي تثبت أقدامه بين أعضاء الجماعة • ويتلقفها المتشكك كوحى مقدس • نعمة تهبط إليه • نور يهديه في الظلام الدامس • ليعيد إليه ثقته بنفسه • ويعيد إليه قبول جماعته له • فإذا ما تلقى التعليمات بهذه اللفظة وكل ما لديه من حماس • ادخلوه مرحلة التدليس • يقول له الداعي كلاما كثيرا لا يقبله العقل العادي • كلام لا أصل

له ولا فصل • ولكن المتشكك يقبل كل ما يسمعه على أنه كلام مقدس • لقد استسلم وخضع • لا بعقله وارايدته • بل مسلوب العقل والارادة •

وهذا فقط يدخل العضو مرحلة التأسيس • لتثبيت عقيدة الجماعة في كيانه • فتصبح هذه العقيدة هي الهواء الذي يتنفسه والماء الذي يشربه والطعام الذي يأكله • هي حياته وينفصل تماما عن كل صلة له بما كان فيه في الماضي • ينفصل عن صلة الدم عن العادات والتقاليد التي ورثها من مجتمعه الفاسد • ينفصل عن الدين كما فهمه من أهله وأبائه وأجداده ويصبح انسانا آخر • خلع الماضي كما خلع الضرس الذي نخره السوس • عملية جبارة وخطوات مدروسة غسيل مخ على أحدث طراز • ولكنها نفس الخطوات التي استطاعت بها فرق الباطنية أن تحكم في تاريخ الاسلام في ايران وترهب العالم الاسلامي لقرنين من الزمان قبل أن يدمر هولاكو الدولة العباسية ويحتاج العالم الاسلامي • لا تدهش اذا كنت احديثك عن التاريخ • فتقاريرنا لا تشتمل على معلومات واخباريات فقط • عندنا تقارير فيها دراسات اجتماعية واقتصادية ونفسية وتاريخية • خبراء مكافحة الجرائم السياسية لم يتركوا شسيتها في الحاضر ولا الماضي ولا أيضا ما يحتمل تصوره في المستقبل لم يدرسوه • على أية حال هذا هو ما مر به ابنك •

وجاء يوم سألني فيه مدير الأمن عنه • علمت انك تبحث عنه • وكان من الممكن ان اخبره بمكانه ، أو أن أطلب من زياد ان يستغنى عنه • فالأب الذي يفتش عن ابنه الوحيد يواجهنا بموقف انساني ليس من السهل أبدا تجاهله • وقابلت زياد رغم المشقة التي نتكبد بها والمخاطر التي نتعرض لها عندما ندبر مثل هذه اللقاءات • أية هفوة ، أية خطوة غير محسوبة ، قد تكشف زياد وتعرضه للخطر ، ويضيع كل ما بنينا لحماية الأمن • وسألت زياد عن رأيه • رفض مجرد التفكير في عودة حسن ، الولد خلع • ولن تستطيع قوة على الأرض ان تعيده الى ما كان عليه •• ولو تركناه فلن يعود الى بيته ، سينشئ جماعة أخرى يقودها بنفسه • ومازلت أذكر زياد وهو ينظر الى غاضبا هاتفا :

- كيف يخطر ببالك أن نتخلي عن سلاح من أقوى الأسلحة في أيدينا •• ان حسن هذا لو قلت له أقتل نفسك لن يتردد لحظة في اغماد الخنجر في عنقه • وهو يعرف جيدا كيف يغمده في مقتل •

قلت له مترددا :

- أبوه المسكين يبحث عنه •

فاحتج منكرا ما أقوله :

- ليس هو أول أب أو آخر أب يفقد ابنه •• ولسنا مسئولين عن هجر الولد لأبيه •• هو الذي جاء اليـنا •• وأبوه هو

الذى طرده ٠٠ انتا فى حرب لا بد لها من ضحايا ٠

وحسم زياد المناقشة عندما قال لى :

- اذا فكرت فى اعادة الولد ٠٠ فلست مسئولا عن تنفيذ

خطة بدر الجمالى ٠

وهذا معناه ان جهودنا الكبيرة معرضة للانهايار ٠

كانت خطة تدعيم اتصالاتنا بالجماعات الاسلامية المتطرفة من تصميمى ٠٠ وقد وضعت للخطة اسما ٠٠ سميتها خطة بدر الجمالى نسبة الى بدر الدين الجمالى الذى تعامل مع شيخ اكبر منظمة دينية ارهابية فى تاريخ الاسلام ، وهى منظمة الحشاشين ، استطاع بدر الجمالى ان ينقذ مصر من ارهابهم بخطة بارعة ، فعندما جاء شيخهم الحسن بن الصباح الى مصر عام ٤٧١ هجرية ٠٠ طلب بدر الجمالى كمستول عن الدفاع والامن ووامير للجيش من الخليفة الفاطمى المنتصر بالله ان يرحب بالصباح وان يكرمه اكراما زائدا وان يضع قصرا تحت امره وفى الوقت نفسه يمتنع عن مقابلته بحجة او اخرى ٠ ونشط الصباح وكثر زواره وتعددت الندوات والسهرات فى قصره ، واستغل بدر الجمالى كل هذا ليجمع كل ما يستطيع جمعه من معلومات عن الصباح ، وعن الذين يلتقون به ، وعن المناقشات التى تدور ، والمشتركيين فيها ، ورأى كل زائر ، وكان الحسن الصباح يمهّد لدعوته ، ويجمع الانصار والاعوان ، والجمالى يسجل ويرصد ، حتى استوفى

المعلومات وكملت الصورة ، وعرف أبعاد المخطط ، واتصالات الصباح بالشام وايران وبغداد ، ثم جاء يوم حاصر فيه الاعوان وتمكن منهم وقبض على الحسن الصباح واعتقله فى دمياط ٠

واستطاع الصباح ان يفر ، ولكنه لم يستطيع ان يمد نفوذه بعد ذلك الى مصر أبدا ٠ قتل من قتل وارهب سلاطين وحكام المسلمين فى كل مكان الا مصر ٠

خطط ليختطف أحد أولاد الخليفة الفاطمى ، أو أحدا من أقاربه ليضمه اليه فى قلعة « الموت » التى استولى عليها وتحصن بها فى ايران وليستخدمه فى تهديد السلطة المصرية وارهابها ٠ ولكنه لم يفلح فى اختطاف أحد ٠ لقد عرف الجمالى مسبقا كل من قد يعتمد عليه الصباح وأعوانه ، وكان لهم بالمرصاد ، فهل أضحى بأمن مصر ، وأمن السلطة ، هل أخون أمانة وظيفتى ، من أجل اعادة ابن يرفض أهله بل انه قد يقتلك دون ان يهتز له رمش ٠ وهكذا اتصلت بمدير الامن وقلت له : أترك موضوع حسن يوسف منصور ٠

سألنى ماذا يقول لك عندما تعود اليه وتسأله :

قلت : طمئنته وقل له اننا مازلنا نبحث عنه ، وسنبذل كل

جهدنا للمثور عليه ٠

كنت واثقا انك لن تراه ومع ذلك قلت لا داعى لأن تعيش

بغير أمل ٠

لانخراط يوسف فى البكاء رد فعل غير متوقع عند اللواء سعد الحوت ، اذ بدا كأنه يترنح ثم جلس متهاكاً على التراب وجعل يضرب الأرض بقبضة يده يريد أن يسحق شيئاً ما وقال لاهثاً وقد فاض به الانفعال •

— أتبكي يا أستاذ يوسف • • ليتنى أستطيع أن أبكى مثلك • • أبكى خيبتى التى حرمتك من ابنك وتسببت فى هلاك من هلك • •

وجمع الحوت قبضة من تراب فى يده ، وتركها تنساب بين يديه وهو يتأملها بعينيه الزجاجيتين وصرخ فجأة :
— هذا تراب • • تراب • • يا الهى كيف لم أتبين هذا من قبل • •

والتفت الى يوسف متوسلاً :

— أهذا تراب • • أم أنا واهم • • يا الهى • • أين نحن ؟ هذا المكان لا طير فيه ولا حشرات • • لم أر عصفورة أو حداة أو أى شئ يطير فى السماء • • يقولون انهم عقموا الجو • • وتخلصوا من كل الطيور والحيوانات والحشرات للمحافظة على أجسامنا من الميكروبات • • ولكن هذا التراب يفرغنى •

وأدرك مدير الأمن ان فى الأمر شيئاً ولكنى لم أخبره بأى تفاصيل • • أسرارنا لا يعرفها أقرب الزملاء اليها • • شعارى ، سرك هو دمك لو فرطت فى سرك فأنت تبيع دمك • وبين وقت وآخر كانت الأنباء تصلنى انك تبحث عنه ، حتى فى السودان ، كان قلبى يتمزق •

ولكن كيف أخون واجبى • • وأعرض السلطة التى تأتمنى على حمايتها للأذى من شئ لا طائل من ورائه • السلطة تهمها امور معينة لا بد ان تحافظ عليها والا سحقتك • • أولها كتمان السر •

وتوقف الحوت فجأة • • كان يوسف يجهش بالبكاء •

كان صدر يوسف يجيش بانفعالات أكبر من أن يفصح عنها
ويخرجها في كلمات .. كيف يعبر عن احساسه بفجيئته ،
بشعوره بالظلم ، بافتقاده للفهم ، ولكن صرخات الحوت حطمت
الحواجز التي تعوق يوسف عن الكلام ..
خرجت الكلمات متهدجة شاكية موجهة الى الفضاء ..
الى التراب الممتد حتى الأفق ، فما يريد أن يعبر عنه أكبر من
أن يوجهه الى الحوت وهذه ..
- لو كنت سمحت لى أن أراه .. نظرة .. مقابلة مع امه
.. أب وأم يريدان رؤية ولدهما .. هل هذا كثير ..



وركل يوسف التراب
بقدمه ، فأثار زوبعة صغيرة ،
لم يابه لها الحوت الذى كان
مازال يتلفت حوله فزعاً .
وارتفع صوت يوسف :

- منذ أن جئت معك الى هذا
المكان وعذاب الماضى يطاردنى ،
وحيرة الحاضر وشكوكه
تنهشنى وأنا لا أسبـ...تطيع أن
أواصل هذه المحنة .. لايد أن
تخلص من هذا هـذا كله فى
أسرع وقت .

تمتم الحوت ذاهلاً والتراب يسيل من قبضة يده :
- كيف .. كيف ؟

قال يوسف وقد تخلص من بكائه :

- بأن تنفذ وعدك .. تعود معى الى القاهرة .. تعترف
أمام المحققين .. أمام الناس كلها .. أنك المسئول عما حدث
لابنى .. لا أطلب منك أكثر من أن تكرر أمام الجميع ما سمعته
منك الآن ..

قال الحوت مستسلماً :

- أنا تحت أمرك .. افعل بى ما تشاء ..
صاح يوسف :
- اذن هيا بنا ..

ومد يده للحوت يساعده على النهوض .. ولكن الرجل
نظر اليه فى ضراعة وقال :

- ترفق بى .. دعنى أستريح بعض الوقت .. أرجوك
اجلس حتى نهذا ..

تفحصه يوسف بنظرات مترددة الحوت :

- أتخشى أن يلوث التراب ملابسك ؟ انه تراب جاف معقم
.. تأكد أنهم قادرون على تعقيم كل شىء .. أرجوك لا تقف
أمامى هكذا .. كلما رفعت رأسى اليك أصابنى دوار ..

جلس يوسف بجواره قائلاً لنفسه : انه لن يفلت منى ،
ورفع صوته مخاطباً الحوت .

- لن تطول جلستنا هنا ..

قال الحوت شاردا :

- لا .. لن تطول .. من يريد أن يبقى في هذا التراب ..

ثم وجه نظراته الزجاجية الى يوسف وقال كالمضاطب

نفسه ..

- كنت أظن أنني سأستريح بعد أن أروى لك ما رويته ..

ولكن ..

وسكت الحوت وضرب بقبضته على التراب ..

سأله يوسف :

- لكن .. ماذا ؟

أجاب الحوت بصوت يخنق بضيق أو غيظ ..

- يبدو إلا فائدة .. أدركت هذا في اللحظة التي رأيتك

تجهش بالبكاء ..

لم يسترح يوسف لكلمات الحوت ، أو لعله لم يسترح لأنه

بكى أمامه .. كانت لحظة ضعف لا تتفق مع ما هو مصمم عليه

الآن ، أن يعود ، وأن يواجه ، وأن يدخل معركة مع السلطة

لأنقاذ ابنه ، لقد خدعوه ، اختطفوا حسن وحاولوه الى ارضابى

قاتل ، حرموه من رؤيته ليتحول الولد الى سلاح في أيديهم ..

غسلوا مخه ، دربوه على القتل ، الفوا ارادته .. ماذا يظن

الحوت نفسه .. أيظن أنه مدير الكون ؟ يحكم بأنه لا فائدة

من إعادة الولد الى أبيه .. بل انه جعل يوسف يتوهم في

لحظة ما أن معركته مع ابنه ولا أحد غيره رواية الملك لير في

حجرتة شاهد على ذلك ، وصل به الأمر أنه فكر أن يقتبس منها

تمثيلية ينفث فيها كل ما في صدره من تحد لولده الذي تنكر

له .. لكن حسن الذي رفض أباه من وراء قضبان قفص

الاتهام .. كان يتكلم بلسان آخرين ، لسان من غسلوا مخهم

لأصقيين ومستأنسين ومدلسين .. كان غاضبا من ابنه ، يريد

أن يرد اعتباره ، ويقول له اذا كنت لا تريدنى أيها الولد العاق

فأنا أقوى منك ولست فى حاجة الى احترامك .. أو حتى

وجودك ، آه لو كان يعلم أن الولد لا يعنى ما يقوله ، وأنه يردد

كالبيغاء كلام من تولوا غسل مخه .. لو كان يعلم لأقتحم

جلسة المحاكمة وصرخ فى القضاة .. يا حضرات

المستشارين .. هذا الولد مسلوب الارادة .. انه غير مسئول

عن تصرفاته ، اذا كان القانون يعفى المجنون من العقاب لأنه

لا يدري ماذا يفعل .. انظروا يا حضرات المستشارين ما من

به هذا الولد من محسن ألغت وجوده تماما ..

أنتم تعاقبون جسدا بريئا ، لأنه حقن بآراء وتصرفات ليست

من عنده .. ثم يشير الى الحوت صارخا .. كل ما فعله

ابنى .. هو من فعل هذا الرجل الذى قبض عليه ممثلا لسلطة

وأجهزة لا تعترف بانسانية البشر ..

خرج من تأملاته على صوت الحوت يقول ببطء :

- ان هذا التراب كله لا يستطيع أن يدفن ما حدث .. ولك

الحق كل الحق فى أن تعود وأن تخوض معركتك ، فلعل هذا

هو ما يجعلك ترضى عن نفسك وتجد الراحة التى لا أجدها ..

وزفر الحوت هواء مختنقا في صدره وأردف .
 - الكل سوف يستريح ما عداى .. الكل وصل الى تحديد
 موقفه .. أنت تعود وتثير قضيتك .
 قال يوسف بلهجة حاسمة مقاطعا كلامه :
 - وأنت معى .
 فأجاب الصوت :

- نعم .. نعم .. ولكن أرجوك دعنى أتبين ما يدور فى
 رأسى .. أنت الآن تعرف طريقك .. وهم أيضا يعرفون
 طريقهم .
 سأل يوسف فى دهشة :
 - هم .. من تقصد ؟
 قال الحوت معاتبا :

- أنسيت ؟ ألم أقل لك انهم دبروا هذا اللقاء للحصول
 على معلومات تفصيلية شاملة عن عينات من البشر مثلى
 ومثلك .. لابد أنهم سجلوا كل ما قلته لك .. وكل ما أقوله
 الآن .. وسجلوا كل ماقلته أنت .. ان لديهم من أجهزة
 التصنت ما يستطيعون به تسجيل أية همسة على مجال
 واسع .. وكان علينا أن نقبل هذا ونتكلم .. لأنه لابد أن
 نتكلم .. ولو أردنا أن ننجو من تصنتهم كنا نبتعد فى هذه
 الصحراء حتى نتوه .. ولكنى لا أريد أن اتوه .. فأنا شخصيا
 يائس تماما من أى شيء .. كل ما كنت أتمناه أن أريح ضميرى

بالاعتراف لك ، ثم اتفرغ لقاعة الدومينو .. أتخلص من كل
 نكرياتى ، من كل هواجسى ، لأن الانتصار فى اللعب كما تبين
 لى وقد يتبين لك اذا فكرت فى البقاء .

قاطعه يوسف محمدا :
 - هذا لن أفكر فيه أبدا .
 فردد الصوت مدعنا :

- نعم .. هذا واضح .. ولا اعتراض لى عليه .. سوف
 استسلم لك .. تفعل بى ما تشاء ، وسوف استسلم لهم ..
 والأمر متروك لك ولهم .
 قال يوسف محتفظا بحدته :
 - هؤلاء الذين تتحدث عنهم .. لا شأن لهم بما نحن فيه .
 فقاطعه الصوت :

- لا تتعجل واستمع الى نصيحتى .. انهم يقومون الآن
 بتفريغ أشرطة التسجيل .. ولعل كريم شاكر أرسل بعضها
 بالفعل الى مركز قيادته .. أظن أنهم يهتمون بأحوالك
 الشخصية .. أو بهمومى .. سوف يراجعون هذا اللقاء
 لضمه الى أبحاثهم فى تطوير صناعة عملاء المباحث .. لاحكام
 الرقابة والسيطرة على جميع الأطراف سواء الذين يتولون
 العملية من جانب الشرطة أو الذين يتولونها من جانب العملاء
 بما فيهم آباؤهم وأمهاتهم .. صدقنى ان هذا هو بعض
 ما يريدونه منا ، وسوف يدخلوننا فى أبحاث ودراسات

مقارنة ، مع غيرنا في كل أنحاء العالم .. أننا مجرد قتران في معامل مؤسسة السلطة .

صاح يوسف :

- هذيان .. هذا هذيان ..

قال الحوت وهو يهز رأسه وأنامله تجمع التراب في قبضته :

- ليكن .. فالأمر متروك لك .. فلن أعارضك في شيء .

نهض يوسف قائلاً :

- إذن هيا بنا .

قنهض الحوت وأمسك بذراع يوسف يتكىء عليها وسارا في اتجاه المبانى ، كان المشوار أمامهما طويلا ، وانطلق الحوت يثرثر بذكرياته مع زياد الأسمر .. قال ليوسف انه لو نجح في عودته الى القاهرة وأخذه معه ، فهو يعود الى حيث انهارت كل آماله ، يعود الى المكان الذى لفظه بعد أن خدعه زياد الأسمر ، لم يخطر بباله يا أستاذ يوسف أن خطة بدر الجمالى خطوات في طريق العودة .. ثم أجاب على سؤال الحوت .

التي كنت أفخر بها ستتحول خلف ظهري الى خطة لاغتيال الناس ، كنت أظن أن ابنك في فرقة أمن .. أنا المسئول عنها وأعرف كل كبيرة وصغيرة عنها .. يتحركون بتعليمات وتوجيهات منى .. ينفذون أوامر لمصلحة أمن البلد .. أى أنهم في أمان تام .. كان ابنك من وجهة نظري في رعاية زياد

الأسمر رجل الشرطة .. لا أداة في يد مجرم ارهابى .. هذا هو الخطأ الذى ارتكبته .. خطأ يبدو بسيطا أول الأمر .

وتوقف الحوت في سيره متشبها بذراع يوسف قائلاً :

- أتدرى ماذا أقصد .

قال يوسف لنفسه ، الحوت يزداد اضطرابا كلما قطعنا

- لا أفهم بالضبط ماذا تعنيه .

قال الحوت بحرقة :

- سأقول لك .. ولا يعنينى أنهم يسجلون ما أقوله .. أنهم يعرفون أنى أخطأت .. ولكنهم يسمعون منى الآن لأول مرة

المصدر الحقيقى للخطأ .

وضرب الحوت بقبضة يده على صدره هاتفا :

- نواياى لم تكن محددة يا أستاذ .. المفروض أن أختار ضابطا يتسلل الى الجماعة ليكشفها من الداخل .. ولكنى

أرسلت زياد الأسمر وهدفى الأول هو أن أعاقبه على

شراسته .. خلطت بين هدفين .. نفس الخطأ الذى أقع فيه

وأنا ألعب الدومينو .

جذبه يوسف حتى اضطره الى السير وهو يقول لنفسه

الرجل يوشك أن يفقد عقله .

وسار الحوت وهو يواصل لوم نفسه .. أردت أن أعاقب

زياد الأسمر فكانت النتيجة أنه هو الذى عاقبنى .. غشنى

.. أردت أن أنتقم منه ، فانتقم هو منى .. طبعا .. يتركنى

وينبوس على ، ويفضل الانتماء للاتبـاع الذين أحاطوا به واستسلموا لقيادته ، ووجد تأثيره عليهم يتضخم فتضخم هو الآخر وأصابه الفرور .. توهم أنه شخص مقدس وحول كل شرسته وقسوته الشيطانية الى استخدام « القوى والتقية » للاستيلاء على السلطة لنفسه .

هذا هو حال السلطة يا أستاذ إذا أغوت أحدا من البشر .. مرض لا نـجاة منه ، السلطة أشد فتكا بالنفس من السرطان في الجسد .. كنت أحذرهما .. أريد لنفسي ليل نهار .. يا سعد رحم الله امرءا عرف قدر نفسه .. أنت لست أكثر من خادم للسلطة .. ولكن الملعونة تسللت الى نفسي ، فجعلت أرسل هذا في مهمة لأنتقم منه ، وأعامل هذا على أنه مجرد شيء استخدمه كما أستخدم ، لا مؤخذة ، عصا أو كـريـاجا في يدي .. هذا هو ما شعر به زياد الأسمر .. لأنه ذكي ، لأنه خبير بالسلطة .. أنها تجرى في دمه قاعد خطته المضادة .. أستخدمه كما أستخدم ، لا مؤخذة ، عصا أو كـريـاجا في لأنه أصبح كل همه أن يتقى رئيسه سعد الحوت .. مبدأ التقية هو أن تظهر لعدوك غير ما تبطن حتى تتمكن منه .. تتكتم أمورك .. تصبر وتجاهل حتى تحين لك الفرصة لضرب ضربتك .

وتوقف الحوت مرة أخرى لاهثا وقال كأنه لا يصدق ما يقوله .

— هذا بالضبط ما كان يفعله زياد معي يا أستاذ يوسف .
قال يوسف لنفسه : ها هو يقف من جديد .. لماذا يتلـكـا ..
ما الذي يسعى اليه بكل هذا الجهد الذي يبثله .
قال يوسف بصوت قوى :
— أنت قادم معي الى القاهرة .
قال الحوت بسرعة ، كأن السؤال يقطع عليه تسلسل أفكاره .

— نعم .. نعم .. وأنا أحكى لك الخيبة التي أنا عـسـائـد اليها .. ولـسـوف أنكرهم بها .. بعد أن كنت أطمئن نفسي بأنهم ألقوا بها مع زبالة النسيان .
صاح يوسف مستريـبا .
— أهذه مقدمة للتراجع .
قال الحوت بحرارة :
— أبدا .. أبدا .. ولكن رأسي يضج .. يكاد ينفجر بما يهاجمني من خواطر .
ثم أرفف بما يشبه الصرخة .
— هناك شيء ما .. سوف أصل اليه .

وجذبه يوسف ، ليستأنفا السير ، ويواصل الحوت ثرثرته ، قالوا اني أخطأت لأنني لم أضع زياد الأسمر تحت المراقبة ، وهذا اجراء يتبعونه في المخابرات مع عملائهم وله تاريخ طويل منذ الكوارث التي حدثت في الحرب العالمية الثانية ..

عندما كانت ألمانيا ترسل الجاسوس لأمريكا ٠٠ فتشتريه
المباحث الأمريكية وتجندة لها ٠٠ منذ ذلك الوقت والمخابرات
تراقب رجالها ٠٠ ولكن المباحث لا تتبع هذا الأسلوب ، خاصة
إذا كنت ما تتعامل معه ضابط مثلك لا يخطر ببالك أنه
سيخونك ، ثم لم تكن عندي الأجهزة والوسائل الكافية لمراقبة
رجالنا بجانب الآخرين الذين نراقبهم ٠

كان زياد يمدني بتقارير وافية ولا يخفى عني أى شيء ٠٠
بل انه كان يخطرني بأنه مضطر الى اجراء تصفيات لبعض
اتباعه الذين خرجوا عن طاعته ، ربما فى أمر تافه ، وكنت
أنصح به بأن يكتفى بتهديدهم وأحذره من ارتكاب أى شيء
يعتبر مخالفا للقانون ٠٠ ومع ذلك حدث أن هجمت فرقة من
أولاده على واحد اعتبروه منشقا وضربوه بالخناجر ضربات
خفيفة لأنهم يعرفون من التدريب الذى حصلوا عليه كيف
يوجهون ضرباتهم لأحداث جرح سطحى للارهاب أو الطعن فى
مقتل ٠٠ وحدث أن كان مع المصاب صديق أصيب بالذعر وقفز
من النافذة فدقت عنقه ٠

اكتفيت بشهادة زياد وما كنت أكذبه واعتبرنا الحادث
انتحارا ٠٠ وكنت أبت زياد مخاوفي ، قلت له أكثر من مرة
انى أخشى أن يتهور الأولاد ويفلت زمامهم ٠٠ فيقول لى :
اطمن أنا مسيطر عليهم تماما ٠٠ كيف لم يخطر ببالى فى ذلك
الوقت ان الذى يجب ان أخشاه واتوقع أن يفلت زمامه هو

زياد الشرس كما أعرفه ٠٠ حتى كان ذلك اليوم الذى وقف
فيه الدكتور أبو الفضل عميد كلية الحقوق متحديا للطلبة
المتظاهرين ٠٠ واتهمهم بالتطرف والتعصب وسمع طالبا من
اتباع زياد يقول له أسكت يا كافر لقد أحل الله دم أمثالك ٠٠
فلما رد عليه الدكتور قائلا : هذا هو كلام اتباع إبليس ٠٠
هجم عليه الولد واشتبك معه ٠٠ وفصله الدكتور أبو الفضل
من الجامعة ٠

هنا توقف يوسف وقال هامسا كأنه يحلم :
— هذا ما قاله الادعاء فى المحكمة ٠٠ ولكنى سمعت عشرات
الحكايات ٠

قاطعه الصوت :

— أنا أقول لك الحقيقة ٠

سأل يوسف نفسه والريبة تتفاعل فى أعماقه ٠٠ هل بدأ
الحوت يغير حكايته ويعدل عن اعترافه ٠٠ انه يتجه الآن الى
ادانة الأولاد ٠٠ ويردد كلام الادعاء ٠٠ أياكون هذا لأننا
نقترب أكثر وأكثر من المبانى وطريق العودة ٠

ولكن الحوت فاجأه قائلا :

— لا تظن أنى أعدل عن كلامى ٠٠ أنا الآن لا أتحدث عن
ابنك ٠٠ أنا أتحدث عن نفسى ٠٠ عن غفلى عندما قال لى زياد
انه سوف يجرى تحقيقا مع الطالب الذى أهان أستاذه العميد
وسيعاقبه ٠٠ وأكد لى أن عقابه سيكون قاسيا لأنه هنر

أتباعه من مخالفة مبدأ التقية ، وإنهم مطالبون بالاحتفاظ بعلاقة حسنة مع أساتذة الجامعة وإدارتها والابتعاد عن أى شطط ولكن أعضاء الجماعة أثارهم فصل واحد منهم .. وأخطر من هذا ذلك الاتهام العلنى لقيادتهم بأنها إبليس وأنهم أتباع إبليس ، اهانة لا تغتفر لقيادتهم التى يقدرسونها ، ويتبنون لها على أساس أنها القسوة الرهيبة السرية التى لا تمس ولا يصح المساس بها .. النفسية التى اكتسبها قتلهم أن العالم كله كافر ماعداهم .. حتى أتباعهم لا يترددون على الجامعة لتلقى العلم .. فالعلم فاسد والأساتذة فاسدون انهم يذهبون الى الجامعة كمكان تجمع للشباب ، لانقاذه بنشر الدعوة وفرض سيطرتهم وممارسة الحكم فى مجتمع الجامعة الصغير استعدادا لممارسته فى المجتمع الكبير .

قال لى زياد : ان الحالة مطمئنة بينما كان هناك تقرير من المخابرات وصل الرئاسة يحذر من احتمال تحرك انتقامى بين جماعة التقوى والتقية بسبب فصل طالب منهم من الجامعة ، تقارير المخابرات لا تصلنى .. التناقض بين أجهزة المخابرات والرغبة فى الانفراد باهتمام السلطة ، تجعل كل جهـمـسـاز يتعامل على حدة .. ولكن الوزير نادانى وقال لى : ما هى اخبار التقوى والتقية .

قلت له : اطمئن يا أفندم .
قال : أليس هناك تحرك ؟

قلت وأنا واثق مما أقول ، يا أفندم هذه الجماعة بالذات أوامرها وتحركاتها بانن منى ، كنت واثقا من نفسى ، واثقا من زياد الأسمر مطمئنا الى أن شيئا لى يحدث .. بالعكس كنت أتوقع عقابا صارما للطالب المفصول .. ولكنهم اتصلوا بى وأنا فى البيت أشاهد فيلم نادى السـيـنـما ، وقالوا ان الدكتور أبو الفضل لقي مصرعه وهو خارج من بيت زميل له فى الجامعة بمدينة المهندسين وكان معه الدكتور بسيونى أستاذ القانون الدستورى ، وأن المعتدين ضربوه بالخناجر ، طعنات نفذت فى الصدر والعنق .. عرفت على الفور الجناة ، السلاح هو الخناجر .. الطعنات من أيد مدرية .. والدكتور أبو الفضل كان مرشحا للانتقام .. والوزير حنرنى ، وأنا المسئول الأول عما حدث .

انهار كل شىء فوق رأسى ، أكدت شهادة الدكتور بسيونى أنهم أولاد من التقوى والتقية .. كانوا مغرورين الى حد



الهوس .. هجموا عليه عليه يريدون الفتك به ، فصاح ابنتك حسن فيهم ، اتركوه ، لا تدنسوا خناجركم بدمه النجس ، لم تصدر لنا الأوامر بذلك .. فامتنعوا عن التخلص من الشاهد الذى سوف يشهد

عليهم .. منتهى القسوة .. منتهى الغرور .. منتهى الغباء ..
شهادة الدكتور بسيوني أفقدت ابنتك من حبيل المشنقة ، لأنه
اعترف أنه لولاه لما نجا من نفس المصير الذى لقيه الدكتور
أبو الفضل .. بعد أن عرفت بهذه الشهادة فى الساعة الأولى
من التحقيق ، انفجرت الحقيقة فى رأسى ، كنت أعمى فأبصرت ،
إنها الخديعة ، زياد الأسمر خدعنى .

صرخت مجنوناً ، اقبضوا على زياد الأسمر . كان من السهل
أن يقبض على الجميع واحداً واحداً ؟ لكن زياد رجل الشرطة
استخدم كل مهاراته ليفلت منا .. فى الوقت الذى كان العالم
كله يتحدث عن مطاردة الشرطة لزياد ، كنت أنا وقلة من زملائى
نعلم أنه هو الذى يطاردنى ويريد الوصول الى قبل أن أصل
اليه .. كان يقامر بأنه لو تخلص منى فسوف تهبط المطاردة ،
وسوف يصبح أسطورة بين أتباعه ، وقد يفلح فى الهرب الى
حيث تتحول هذه الأسطورة الى قوة باطشة ، كما فعل شيخ
الحشاشين حسن الصباح بعد أن هرب من مصر .. شعرت
بالمهانة الى جانب احساس بالخيبة وأنا أتذكر بدر الجمالى ،
الذى تجرأت وجعلت منه شعاراً لخطئى .. حيث نجح هو
منذ مئات السنين فشلت أنا ، وسمعت الهمسات من حولى ،
الحوت لا يصلح لهذا العمل ، الحوت تعود على حياة الرفاهية
فى القاهرة .. الحوت خائف على نفسه من زياد الأسمر ..
افترسنى الكل .. نهشوا لحمى حياً .. كان من طبيعة عملى
ألا أظهر فى الصورة .. أنت لم تسمع اسمى فى المحاكمة

ولا فى الصحف .. الأضواء والشهرة للضباط الذين يعملون
علناً ، أما أنا فعملى من خلف كل هذا ومع ذلك صممت على
أن أقبض على زياد بنفسى .

قلت لهم : إذا كان زياد يريدنى ، فاجعلوا منى طعاماً
لاصطياده ، وطلبت أن تصلنى أولاً بأول أية معلومات مهما
كانت تافهة بعد أن وضعنا تحت المراقبة كل من لهم صلة
بالتقوى والتقية .. الأهل .. الأصدقاء ، المعارف ، أحيانا
الجيران .

وتوقف الحوت وتراجع خطوة الى الخلف كما لو كان قد
رأى خطراً داهماً مقبلاً عليه وهتف :
- لكن المصائب لا تأتى فرادى .. مرضت واحتبس البول
.. وكان لابد من عملية بروتاتنا .

خيل الى يوسف أنه سمع عن هذا المرض من قبل فى هذا
المكان .. ومضى الصوت يحدثه كيف نقلوه الى المستشفى
والعملية التى أجروها له والنزيف بسبب القصاقات فى
الشريان .. عندما أفاق علم أنهم قبضوا على زياد الأسمر ..
بعد أن رأوه وهو يحوم حول المستشفى ثم تعقبوه وعرفوا
مكانه ، نعم كنت طعاماً لزياد ، لكنهم تجاهلوا هذه الواقعة ولم
يذكروها .. تركونى لمرضى وياقات الورد ومجاملات عابرة
.. وأدركت أن أيام سعد الحوت انتهت .. إذا جاء من يزورنى
يعتذر بمشاغل العمل ويتركنى ، لم يعد احد يريدنى . لا تليفونات

من الوزير ولا توجيهات من الرئاسة .. ولا جمعيات ولا خلايا ..
لم يبق شيء .. لا شيء على الإطلاق .. عندما خرجت من
المستشفى صدمت على أن التقى بزياد .. دخلت عليه زنزانته
وقلت له : عملتها يا زياد ..

لم يكثرث بأنى رئيسه .. كان شخصا آخر يوجه الى
نظرات كلها حقد واستعلاء .. وقال بوقاحة : لو أن أحدا مس
شعرة من رأسه فسوف نندم ونتمنى أننا لم نولد يوما ما ...
لم أحضر تنفيذ الحكم .. كنت في أجازة تمهيدا لاحالتي على
الاستيداع ..

وتنهت الحوت وعاد يتشبث بفراع يوسف ، وقد وصلا الى
بداية المباني ، وأقبلا على ملاعب الكروكيه ، وقال الحوت
فجأة باسم :

- الشيء الوحيد الذى استفدت منه من طوفان المعلومات
التي جمعتها من المراقبة قبل القبض على زياد هو معرفتي
بصاحبك مراد حسنين ..

وثب قلب يوسف مرتطما بضلوعه .. وتوقف عن السير
وسأل في دهشة :

- ما دخل مراد حسنين .. بهذا ؟
قال الحوت :

- كان يتحدث مع زوجته فى الهاتفون من بيروت بعد القاء

القبض على ابنك .. وأرسل أحد المحامين .. كلفه بأن يتولى
القضية ..

همس يوسف مذعورا :
- لا علم لى بهذا ..

كيف لم تخبره زينب .. كيف لم يحدثه مراد حسنين فى
هذا ، لقد هجرته زينب طوال تلك الأيام الى حجرة بفندق
برستيج وأقامت فيها ..

ظن أنها تواجه أزمته بالانشغال بعملها .. ولكنها لجأت
الى مراد حسنين ، ارتجف يوسف وهو يواجه هذه المعلومات ،
وخيل اليه أنه يسمع خليل فى قاعة الدومينو يعنيه بيا أهبل من
عليها قرلم قرلم .. يا أحمرق من عليها قرلم قرلم ..
وكان الحوت يقول له :

- ثارت تساؤلات حول اهتمام هذا المليونير بمتهم فى
الجريمة .. هل له دور فى تمويل الجماعة من الخارج ..
ما السر وراء اهتمامه بالقضية ؟

قاطعه يوسف يسأله واجما :
- وماذا وجدتم ؟

اتسعت ابتسامة الحوت تشق وجهه ، فزادت مخاوف
يوسف ، وكان الحوت .. يقول :
- تبينا أنه مجرد صديق للعائلة ..
سأل يوسف متوجسا :

اللواء الحوت وهو يتلفت حوله في البهو :

— الآن وقد قررنا العودة الى القاهرة يا سيد يوسف ..
سأصعد الى حجرتي وأجمع حاجياتي وأغير ملابسى المتربة .
ومد يده ينفذ التراب عن سترة يوسف وهو يقول
مشجعا :

كان الحوت يتكلم بلهجة عملية ، لهجة من يريد أن ينجز
وأنصحك أن تفعل نفس الشيء ..

مهمة عاجلة لا تحتل التأخير ، ولكن يوسف استمع اليه
مسترييا ، لم يطمئن الى الحوت وهو يتلفت حوله ، كمن يبحث
عن شخص ينقذه من ورطة وقع فيها .. وقال يوسف بحدة :

— أنا لا أريد أن أتحرك من هنا .. الا فى اتجاه السيارة
التي تنتظرنا عند البوابة .

فاحتج الحوت .. وانطلق يتحدث عن استحالة سفره
بملابسه المتسخة بالتراب ، أنا لا أرضى لنفسي ولا لك هذه
البهيلة يا أستاذ يوسف .. لا تنسى أننا نعود الى حيث كانت
لنا أوضاعنا الاجتماعية .. لسنا ذاهبين الى مكان سياحى
آخر .. لا يعرفنا فيه أحد ، اننا ذاهبان يا أستاذ الى القاهرة
.. هل تقبل أن ندخل القاهرة كشحاذين متسولين .

— ماذا تعنى ؟

قال الحوت :

— علاقته الحميمة بكما .. هي التي جعلته يسرع الى نجدة
زوجتك .

قال يوسف لنفسه : ولكنه لم يسرع لنجدتى .. لم يقل لى
أنه اتصل بزينب على الاطلاق .

وشعر بالحوت يربت على كتفه ، والتقت عيونهما . عينا
الحوت لا تفصحان عن شيء .

وقبض على يد الحوت متشبثا بها وهتف :

— لم يعد هناك معنى للبقاء لحظة واحدة فى هذا المكان ..
هيا بنا .

وهرول وهو يجذب الحوت من يده الى الرجل البدين
الأصلع الواقف خلف مكتب الاستقبال وألقى أوامره :

— أنا واللواء سعد الحوت .. سوف نعود الآن فورا .
وقال البدين الأصلع فى أدب جم :

— حسنا يا سيدى .

وأكد الحوت ليوسف ، أن جميع ضباط المطار في القاهرة من أولاده وتلاميذه .. الذين ينظرون اليه كمثل أعلى ، له هيئته واحترامه ، ولسوف ترصد العيون كل حركة أو إيماة تبدر منه ، ولسوف تحدث ضجة بمجرد رؤيته هابطا من الطائرة ، ستدق أجراس تليفونات ، وستنتشر الكلمة في كل مكان أن الحوت قد عاد ، وستثور التساؤلات ، أين كان .. ولماذا يعود .. وما الحكمة من عودته في هذا الوقت بالذات .. ووجه الحوت الأسئلة ليوسف ، اذا ما كان يتوقع أن يحدث نفس الشيء بالنسبة له .. فانقبض صدر يوسف ، وقد انقضت على مخيلته صور ومشاهد لحياته في القاهرة ، كأنها كابوس غامض لا يريد أن يتبين تفاصيله ، وأخيرا وجد نفسه يقول بانفعال :

— أريد أن اطمئن الى انك لن تتركنى ..

قال الحوت في حسم :

— عيب يا أستاذ يوسف .. نحن لسنا صفارا .. لقد أعطيتك كلمتي وفي هذا الكفاية .. لو كنت لا أريد العودة لقلت لك .. لست خائفا منك .



قال يوسف محاولا أن يعبر عن مخاوفه :
— اخشى أن يؤثروا عليك فتغير رأيك .

وشعر يوسف أنه لم يعبر عن كل مخاوفه .. فهو خائف ألا يذهب معه الحوت ويتخلى عنه ، وهو خائف من العودة ، وهذا هو ما لا يريد مواجهته .. بل انه يقاوم هذا الخوف الدفين ، ويعتقد أن صحبة الحوت له سوف تساعد على التغلب على كل مخاوفه من العودة .
وهتف الحوت :

— لا أحد يستطيع أن يجعلنى أراجع فى وعد قطعتة على نفسى .

وتلفت الحوت حوله .

فهمس يوسف محاولا اخفاء قلقه :

— هل تنتظر قدوم أحد ؟

قال الحوت في هدوء :

— نعم .. أريد أن ألتقى بأى واحد من النزلاء .. لأخبره

أننى مسافر .

فقاطعه يوسف :

— لماذا تخبره ؟

فنظر اليه الحوت باسما .. وقد أدرك قلقه ، وريت على

كف يوسف قائلا :

— لا داعى لمثل هذه الوسوس يا أستاذ .

ثم رفع الحوت رأسه في كبرياء وقال :
 - اذهب وافعل مثلى .. استحم وغير ملابسك .. ولا تخف
 ولا تستريب في أمرى .. تذكر يا أستاذ أنى الشخص الذى
 تعتمد عليه فى خوض معركتك لاتقاز ابنك .. لابد أن تثق فى
 .. لابد أن تطمئن تماما الى أنى لن أخذلك .. كيف يمكنك أن
 تأمل فى شئ أو فى الحصار على أى قدر من النجاح فى
 مهمتك ، وأنت تقول لنفسك : هذا الحوت يتلاعب بى .. انه
 رجل مكر يخدعنى ويستدرجنى *

وتوقف الحوت عن الكلام ونظر اليه بعينه الزجاجيتين
 وسأله :

- أليس هذا هو ما تخشاه ؟
 تردد يوسف فى الاجابة ، ولكن عينيه فضحتا مخاوفه ،
 فقال الحوت بصوت قوى :

- لا يا سيد يوسف .. لا يا أستاذ .. تخلص تماما من
 كل هذه الوسواس .. وأن كنت أفهم تماما انها مخاوف
 طبيعية ، فلو فكرت بالمنطق .. لوجدت أنه مستحيل أن يذهب
 رجل مثلى الى أية جهة تحقيق ويعترف أمامها بهذه الأخطاء
 .. انه تصرف ضد التقاليد وأصول المهنة .. ولكن ثق أنى
 سأعترف .. قل أنى جننت .. قل أنى انفجرت وفقدت توازننى
 .. قل أنى وقد عشت حياتى كلها خاضعا للأوامر ولحياة
 الانضباط الكامل .. قد زهقت من هذا كله وأريد أن أقدم على

شئ جديد تماما لم أتصور انى سأقدم عليه يوما ما فى حياتى .
 وهز الحوت رأسه كما لو كان يطرد خاطرا مزعجا وأكمل
 كأنه يخاطب نفسه :

- كنت أريد أن أستريح وأنسى همومى فى قاعة الدومينو ..
 أخضع لقواعد اللعبة .. أستسلم لقيادة كريم شاكر ..
 وأعلن أنها القيادة الرشيدة التى بقيت لى .. ولكنى رأيتك
 تبكى .. وكنت قد فرغت من صلاتى فى تلك الصحراء ..
 وأزعجنى أنى اكتشفت أنها صحراء تراب .. ولا أدري كيف
 عميت عنه حتى أمسكت به فى قبضة يدي .. لقد استفزنى
 هذا التراب .. كأنه يسخر منى .. يسخر منى ومثلك ..
 يسخر منا جميعا .. وقلت لنفسى : ولماذا لا تفعلها يا سعد ؟
 لماذا لا تعود معه وتواجه ما ارتكبت من أخطاء ؟ .. هناك بعض
 أمل .. قد يكون أملا ضعيفا .. بل قد يكون مجرد وهم ومع
 ذلك تشبثت به .. لأنى انسان له قلب .. ولى بفتان أريد أن
 أراهما .. ولسوف أعود الى القاهرة ، وأقف بجوارك ،
 وأمضى معك الى نهاية الشوط .. وأنا أتوقع مخاطر لا حصر
 لها .. سوف يستنكرون اعترافانى ، وسوف يتهموننى
 بالجنون ، وسيقولون الحوت عجوز مخرف يهذى بقصص
 لا نصيب لها من الصحة ، ولكن ..

وقهقه الحوت فجأة فاهتز جسده كله وقال :
 - ولكنه سيكون عملا جديدا رائعا .. وأنت تعترف أمام

الناس .. لا وانت تتحدث عما فعلته وانت في التراب ..
ولا يهم ماذا يقولون ، لا تهمني ردود أفعالهم ، لا يهم أى
شئ .

كان جسد الحوت يرقص وهو يردد :

— نعم .. فليفعلها سعد الحوت .. ولو مرة واحدة .

قال يوسف باسم :

— كلامك يزيح كابوسا عانيت منه سنوات وسنوات ..

قال الحوت في حماس :

— انن هيا بنا .. أقابلك بعد ساعة في قاعة الدومينو .

فسأل يوسف في دهشة :

— ماذا تعنى ؟

قال الحوت :

— نودع الأصدقاء . هذا أقل ما يجب علينا نحوهم .

قال يوسف وقد اختفت ابتسامته :

— ونواجه كريم شاكر ؟

فأسرع الحوت يقول ضاحكا :

— وماذا يستطيع أن يفعل كريم شاكر أمام اصرارنا ..

سوف نتمرد عليه .. كفى سعد الحوت ما قضاه في حياة

الخنوع والطاعة .

وضرب بيده على كتف يوسف هاتفا :

— ليس زياد الأسمر وحده الذى يستطيع أن يتمرد ..

سوف ترى منى العجب يا استاذ .. هيا اذهب الى حجرتك ..
وستجدنى بانتظارك بعد ساعة .. وربما قبل ذلك .. المهم ان
نزىل هذا التراب ونرتدى ملابسنا النظيفة .. لنبدأ مهمتنا
الجديدة .

واستدار الحوت متجها الى ممر يفضى الى الجناح الذى به

حجرته .. وما كاد يبتعد خطوات حتى توقف ، والتفت الى

يوسف وناداه بلهفة :

— آه تذكرت أمرا هاما يا سيد يوسف .

واقترب منه الحوت مسرعا وقال باهتمام :

— أثناء عودتنا من الصحراء الى هنا .. كنت أحاول أن

أتذكر شيئا شعرت أنه هام جدا .. وأنه من الضرورى أن

أقوله لك .. لقد تذكرته الآن .

وتهلل وجه الحوت وهو يكمل :

— كنت أريد أن أقول لك : ان الجريمة تعم .

لم يفهم يوسف ما الذى يعنيه الحوت .. وأدرك الحوت

ذلك وهو يرقب تأثير كلماته على يوسف ، فسأله :

— ألم تسمع بهذا من قبل .. ألم يقل لك أحد من قبل ..

وردد الحوت من جديد وهو يضبط على الحروف التى

ينطق بها .

— الجريمة تعم ؟

قال يوسف بدهشة :

— لا ٠٠ ولست أفهم ما الذى تعنيه ٠

قال الحوت باسم :

— كان يجب أن أعرف أن هذا كلام جديد عليك ٠٠ لأنك لم

تدخل كلية الشرطة ٠

وانطلق الحوت يشرح كيف أن الجريمة تعم هو المبدأ الذى تعامل به كلية الشرطة طلبتها ٠٠ مثلاً عند خروجنا فى الأجازة يوم الخميس ٠٠ كان يتم التفتيش على ملابسنا وعلى الشعر والأظافر ونظافة الحذاء ٠٠ حسن الهندام والمظهر من الأشياء المقدسة بالنسبة للطالب ٠٠ وللضابط ٠٠ أنه يمثل السلطة والوقار ولا بد أن يفرض رجل الأمن الاحترام بهيئته ٠٠ وكنا مقسمين فى الكلية الى جماعات كل جماعة اسمها الصنف ، هذا هو التعبير الذى نستخدمه فى الكلية ، ولو حدث وأهمل أى واحد من الصنف فى مظهره أو هندامه أو ارتكب مخالفة من أى نوع فلا يوقع عليه وحده العقاب ، كان العقاب يعم على الصنف كله ٠٠ اذا طال شعر واحد منا ولم يقصه فهى جريمة ارتكبها الجميع بما فيهم الذين قصوا شعر رؤوسهم ٠ ونحرم جميعاً من الأجازة ٠٠ الجريمة التى يرتكبها الواحد ، يتهم الجميع بارتكابها ، والعقاب للجميع لأنهم مسئولون عن أى خطأ يصدر عن أى واحد من الصنف ٠

كان يوسف يحاول أن يبحث عن صلة بين كلام الحوت ، وما قد اعتزمه بقرار العودة الى القاهرة ، عندما سمع الحوت يقول له :

— هذا هو يا سيدى ما يجب أن نضعه فى اعتبارنا ٠٠

لتدرك خطورة الموقف الذى نحن مقبلون عليه ٠٠ فعندما أعترف بأنى ارتكبت خطأ ٠٠ فالعقاب لا بد أن يشمل الجميع ٠٠ فهل يحتملون ذلك ؟

ثم أضاف الحوت :

— ولكن هناك شيئاً آخر لا يقل عن هذا أهمية ٠٠ ولا بد أن نفكر فيه من الآن قبل عودتنا ومواجهتهم ٠٠ إذ يخيّل الى أن مبدأ الجريمة تعم ٠٠ لا يطبق على صنف الشرطة وحدهم ٠٠ أنه يطبق على صنف البشر كلهم ٠٠ أليس هذا هو ما نحن فيه الآن ٠٠ هانت تعاقب بحرمانك من ابنك ٠٠ وأنا أعاقب بخروجي من الخدمة بعد كارثة زياد الأسمر ٠٠ وعندك كل من معنا هنا ٠٠ انى أعرف الكثير عن حياتهم ٠٠ كلهم بلا استثناء هاريون من مأس وكوارث الى هذا المكان ٠٠ هناك عقاب شامل يعم البشر جميعاً ٠

قال يوسف فى قلق : وقد شعر أن الحوت يتووه به فى

دهاليز من الكلام الغامض :

— الوقت يضيع ٠

فاعترض الحوت :

— لا ٠٠ لا بد أن نتفق على شيء ٠

فقاطعه يوسف :

— سنتناقش هذه الأفكار أثناء العودة ٠٠

فصاح الحوت :

- وكيف يا أستاذ .. أنت تعلم أننا سنعود منومين ..
هذه هي آخر فرصة لنا للكلام .. وبعد ذلك سوف نغمض
أعيننا ونفتحها .. ونحن نهبط في مطار القاهرة .. وساعتها
لن تجد لحظة واحدة أمامك للمناقشة أو التفكير .. ستتشغل
بالمحاميين وبالتماس إعادة التحقيق والمحاكمة .. ولسوف
تطوف بدور الصحف .. وترسل الشكاوى والعرائض لمجلس
الشعب .. وعلينا أن نبتكر الوسائل التي تجعل لنا صوتنا
مسموعا عند المسؤولين .. ونتخطى عقبات الساخرين
والمعترضين والمتشككين في نوايانا .. والذين يتهموننا بأننا
نوقظ فتنة والذين يريدون استغلال أصواتنا لأغراض لم تخطر
لنا على بال .. انها معركة ومعقدة لا أول لها ولا آخر ..
ولا ضمان لسلامة موقفنا مثل الاحتفاظ بالرؤية السليمة ..
وأنا أراها من خلال مبدأ أن الجريمة تعدم .. كلنا مذنبون ..
كلنا أجرمنا .. وكلنا يحل به العقاب .. فلتستعد لمواجهة
أخطائك أنت أيضا .. جهز دفاعك عن نفسك .. لأنهم لن
يتركونا ..

قاطعه يوسف محتجا :

- ولكننا لسنا طلبة في كلية الشرطة .. ولست مستعدا لأن
أتحمل العقاب عن جرائم ارتكبتها غيري .. وأنا لا أنتمى الى
الشرطة ولا الى أية هيئة أو رابطة في هذه الدنيا .. ولا أعرف

في القوانين أو الشرائع أن أحدا يعاقب بجريمة غيره ..
ولا أعرف سلطة تنزل العقاب شاملا جامعا على البشر ..

قال الحوت :

- لا يا سيد يوسف .. الجريمة تعدم والعقاب يعدم ..
بغضب الله .. انه السلطة الأكبر من أية سلطة .. السلطة
المنتقمة الجبارة القاهرة ..

وفجأة سكوت الحوت وأصفر وجهه وتمتم :

- يا الهى .. أياكون الأمر كذلك ؟

فسأله يوسف وقلبه يخفق وقد أفزعه صوت الصوت

وأصفرار وجهه :

- ماذا ؟

فتمتم الحوت ذاهلا :

- لا شيء .. لا شيء ..

ونظر الى يوسف كما لو كان يرى شيئا .. وهمس وهو

يتراجع :

- فليرحمنى ويرحمك ..

صاح يوسف :

- الدقائق تمر ..

قال الحوت هامسا وهو يبتعد :

- سامحني .. لن أخلف الميعاد ..

ومضى بخطوات سريعة الى حجرته ..

وقف يوسف في حوض الاستحمام يرش جسده بالماء يتدفق من فوهة الخرطوم المعدنى على شكل سماعة التليفون ، وخواطره مشغولة بالحالة التي انتابت اللواء الصوت . وفسرها بانفعال الرجل بالعودة الى أهله وبلده بعد غياب طويل ، توهم خلاله أنه تخلص من مشاكله ، أو توهم أنه هرب الى الأبد من مشاكله وقد أصابه يأس تام من مواجهتها ، فلما ظهرت له يارقة أمل في العودة والمواجهة بتشجيع من يوسف ، اضطربت مشاعره وتناقضت ، فهو ضاحك متحمس للعودة ومواجهة أخطائه وتحمل مسئولية تصحيحها ، وهو حزين يعاني من عقدة الذنب ويدير ما يشعر به بالعقاب الشامل الذي ينزل بالناس في صورة غضب الهى .

وأعجبت يوسف صورة هذا الرجل الذي تعود على أن يكون خادما مطيعا للسلطة ، وهو يتبين فجأة ، وقد انتابه فرح جعله يقهقه من قلبه ، انه يستطيع أن يفكر ويتصرف بضمير انسان فرد يقرر أن يطيع الحقيقة حتى مع احتمال تناقض هذه الطاعة مع طاعة السلطة . كأنه اكتشف حياة أخرى ، اكتشف معنى جديدا للحياة جعله يتوثب راقصا بالفرح .

قال يوسف لنفسه والماء ينساب على جسده : هذا الصوت لا بأس به ، ولسوف أحبه وأنسى كل ما صنعه بابنى رغم فداحة وقسوة ما صنع . وانتقلت خواطر يوسف الى قاعة الدومينو وهو يودع مع الصوت رواد القاعة . سوف يعاملهما كريم

شاكر بترفع ولن يخفى ضيقه وتفجيره من ذهابهما ، سيعاملهما كمارقين ، وسينزل كل ما فى وسعه من جهد ليمنع تأثيرهما على الآخرين . اما خليل فسيودعهما بنشيد ، يا أهبل من عليها ترم ترم وقد يكيل لهما السباب والشتم ، وسوف يتعهد الدكتور ابراهيم المنجى ويقول بلهجته المتشائمة انه سيستريح أخيرا من رؤيتهما . اما المازنى فلن يلتفت اليهما ، وربما لن يشعر بهما على الإطلاق .

وسيقول له آدم ريشفسكى انه كان يريد أن يحكى له ما يعرفه عن جابى اسكنازى ، ترى ما الذى يعرفه ، أتكون لديه أخبار عنها ؟ . أيقول له ان تلك الفتاة التي أحبتها وأنت شاب فى العشرين وفكرت يوما ما أن تتزوجها ، هي الآن امرأة فى الخمسين ، مواطنة اسرائيلية ، لها زوج اسرائيلى ، وأولاد اسرائيليون وربما أحفاد اسرائيليون ؟ لقد تحمل الرجل نوبة قلبية قاسية ، وهو يحاول أن يتذكر تاريخه القديم مع جابى . ترى ما الذى دفعه الى ارهاق نفسه بهذا التذكر ، لديه مفاجأة أو خبر هام يريد أن ينقله اليه . على أية حال ليس هذا هو المهم الآن ، لا وقت للتذكر واسترجاع ما فات من ذكريات صباه التي لم تأخذ من اهتمامه أكثر من كتابة قصة قصيرة سخيفة . انه مشغول الآن بقضية صباه الجديد ، صباه الذى يراه فى ابنه حسن .

ثم هناك ميرزا الفلكى انه لن يكون فى قاعة الدومينو ،

ولديه حديث انقطع ولم يكذباً عن والدته كوثر هانم • كيف عرفها ، بل كيف يدعى أنه يعرفه هو من قبل أن يولد • أيتوقف عند ملعب الكروكيه ويسأله بسرعة ، ولسوف يلتقى بكوستا الذى يؤكد له أنه محاصر فى هذا المكان ولا يستطيع الخروج منه • ولعله يشجع كوستا على العودة معه • وهمس يوسف لنفسه •• ربما أعود إليهم بعد أن أفرغ من قضيتى العاجلة فلا قيمة للتاريخ والذكريات إذا عطلتنا عن مواجهة الحاضر والأمر الواقع •

وامتدت يده وأوقف تدفق الماء ، والتفت الى بشكير معلق بجوار المرأة ، وقبل أن يلمسه رأى ليلى فى المرأة • التفت مذعوراً • كانت واقفة عند الباب تطل عليه وتبتسم • لم تترك له فرصة للارتباك أو حتى الخوف • كانت ابتسامتها واثقة هادئة • كأن ما أقدمت عليه شيء طيبعى ، كأنها زوجة مضى على زواجها أكثر من ربع قرن تدخل على زوجها الحمام ، لم تترك له فرصة لأن يتصرف أو يفكر أو يقول شيئاً ، شددته بسرعة الى القضية التى جاءت من أجلها •

— يا أستاذ •• أتنوى السفر قبل أن تقرأ معنى الكتاب ؟ صوتها جاد معاتب • ولهجتها الشامية فيها خشونة ورقة • وجد نفسه يضحك • بدت له غبية ، بلهاء ، جسد بض بليد بلا عقل ، لا تدرك خطورة ما أقدمت عليه ، من اقتحام حمام رجل غريب يستحم ، ولا تفهم خطورة ما هو مشغول به هذا

الغريب مما يضطره الى العودة الى القاهرة •
قالت له معاتبة :
— ما الذى يضحكك ؟

اختطف البشكير والتف به وقد أدهشه أنه تخلص من فزعه لا يشعر بأى ارتباك أو خجل ولعله كان يضحك لهذا السبب ، وأنه أعجب بنفسه ، انه مشحون بقوة هائلة تدفعه للعودة لانقاذ ابنه • لانقاذ بقية حياته وامدادها • لانقاذ مصيره • هذه القوة المعنوية المشحونة فى أعماقه تمنحه ثقة فى مواجهة عشرات بل مئات من النساء أمثال ليلى هذه وغيرها ، انه مشحون بقوى مواجهة الظلم ورفع لواء العدل ، لا مجرد قوى ممارسة علاقة جنسية بين رجل وامرأة • قال باسم فى ثقة وسهولة فى التعبير :

— أضحك لأنى كنت أتمنى أن أصل الى هذا الموقف •• أنا وانت •• فلما وصلت اليه •• وتحقق هذا الذى لم أتصور وقوعه الا فى الخيال •• لم أجد أمامى سوى أن أضحك •• عفوا •• أضحك ساخراً من نفسى •

قالت فى بلادة وقد سدت بجسدها باب الحمام :
— لماذا تسخر من نفسك •• لست وحدك الذى يحلم ويشتهى •• الجميع يشتركون معك فى هذا الخيال •
قال وهو يخرج من حوض الاستحمام ويتقدم منها متدثراً بالبشكير :

— لا — لست مثلهم •

قالت في غباء واضح :

— هل تظن أنك أقل منهم ؟

لم يعجبه التحدى السافر في كلامها •• مد يده فازاحها عن
البساب •

غاصت أصابعه في لحم كتفيها ، قبل أن تفسح له منفذا الى
الحجرة ، عيناها الخضراوان سمينتان ، وشعرها المنسدل
على كتفيها في لون النحاس البراق ، أسلاك كهرياء ، أسلاك
عارية ترسل وميضاً الى صدرها البارز النافر من ثوبها
الأصفر الفضيض كقميص نوم صدره مطرز بازهار بنفسجية ،
وشعر بها تسير خلفه يلامقه عطرها ، وهو يهجم على ملابسه
الملقاة على السرير •

أوشك أن يقول لها هازئاً تدعمه معنوياته المرتفعة :

— أنا أفضل من جميع من عرفت من الرجال •

ولكنه تراجع • خاف أن تؤول كلامه بمفهومها • قد تظن
أنه مثل كوستا اليوناني ، وأنه كان يتمنى أن يصور معها
فيلماً اباحياً يستمر عرضه ثلاث ساعات أو أكثر •• فيلماً يعد
له سيناريو مقتبساً من رجوع الشيخ الى صباه • انه الآن
منغمس في سيناريو انقاذ المستقبل وتحقيق العدالة ••
قالت فجأة وكأنها تقرأ أفكاره :

— انت طموح يا أستاذ أكثر من اللازم •• مثل كوستا ••
ولكن على طريقتك الخاصة •

قال لنفسه وهو يمسك بملابسه الداخلية •• هذا عجيب ،
انها تبدو غبية فوق العادة ، ولكن كلماتها هذه فيها جرأة
واقترام النكاء •

وقال ساخراً :

— كوستا يريد أن يمثل معك •• فيلماً في طول ذهب مع
الريح •• أما أنا فلا أريد شيئاً غير العودة وفي الحال الى
بلدي تاركاً لكم هذا المكان • عندي مهمة خطيرة تنتظرني •

ولم يكثر لوجودها ، أسقط البشكير ، وشرع يقلب ملابسه
ليعدها في الوضع الصحيح قبل ارتدائها •

قالت وهو تنظر اليه في بلدة :

— لن تخسر شيئاً لو جريت •

قال بسرعة :

— فات الوقت •

قالت بصوت اخفت منه الرقة •• صوت غليظ :

— من قال هذا ؟

قال وقد دخل في ملابسه :

— أنا الذي أقوله •• لأن هناك ما هو أهم •

قالت بالصوت الغليظ البليد :

— أهم من قراءة رجوع الشيخ الى صباه .. لابد أنك
جنتت .

قالتها ، وكأنها تقرر حقيقة لا وجه للشك فيها ، واقتربت
منه ، فتراجع خطوة فهتفت ساخرة :

— مهلا .. مهلا .. لن أغتصبك يا أستاذ .
قال لنفسه : ما أغرب هذا الموقف . أوصل به الأمر الى أن
يسمع مثل هذه السخرية موجهة اليه . لابد أن يحسم الأمر
.. لكن كيف يحسمه ؟

وسمعها تقول :
— أنت لا تفهم شيئاً على الإطلاق .
قال بسرعة :

— بل أفهم .. أنت
تمارسين مهنة قد يرهب بها
الغزلاء الذين تطول أقامتهم
هنا .. وهذا نوع من الترف
السياحي .

وتوقف عن الكلام ، إذ انتبه
الى وجود سلة فواكه بجوار
الكتب ، بها تفاح وكُمثرى
وبرقوق وخوخ وبجوار السلة



صحنان وسكين أشبه بخنجر ، وسألها في دهشة :

— أنت جئت بهذه الفاكهة ؟

قالت باسمه :

— نعم .

قال ساخراً :

— أدوات الشغل .. الفاكهة المحرمة .. فكرة لا بأس بها
.. ولكن صدقيني .. انها في غاية السذاجة والسخف .
قالت وهي تتجه الى سلة الفاكهة وتمسك بتفاحة تقضمها :
— لن أطلب منك أن تأكل فاكهة .. كما أننا لن نحتاج اليها
.. كل ما في الأمر أنني فكرت في أن أحيطك بجو ودي يزيل
عك مخاوفك .

وأمسكت بالخنجر وشقت ما بقي من التفاحة التي قضمتها
الى قسمين ثم تركت كل ما في يدها في صحن ، وقالت في
هدوء غريب وبصوتها البليد :

— أنت رجل .. أليس كذلك ؟!

نظر اليها طويلاً ، أيهمم عليها ويفتك بها . هل أحضرت
هذا الخنجر لتهيء له فرصة لأن يقتلها به . لماذا تتحداه ،
مهما يكن من أمر فهو لن يستسلم لها ، ولكنه يعترف بأنها
تستثيره ، قال مغالباً ما يشعر به من غيظ نحوها ، وإن شعر
في نفس الوقت أنه مغيف من نفسه أيضاً :

— لابد انهم يحاسبونك بنظام النقط والأبناط .. وكلما زاد

عدد الزبائن زادت مكاسبك .. ولذلك تريدون جمع أكبر قدر
من الزبائن حولك .

ورفع صوته هازئاً :

- آسف .. لقد أصبح بقائى مستحيلاً .. رغم هذه
الفرصة التى ما كنت أتوقع أن القاهما .. ولا فى الأساطير
.. ولا داعى لأن تلجئى الى وسائل رخيصة .. كنت لا أتصور
أنك تقدمين عليها .. مثل استشارتى وسؤالك اذا ما كنت رجلاً
.. ليس هذا هو القصدى الحقيقى لرجولتى .

فقاطعتها وقد بدا عليها انزعاج شديد .. هاتفة :

- أستاذ .. أنا شيء قافه يا أستاذ .. لست فى مركز
يسمح لى أن أغضبك أو أستثيرك .. أنا مجرد عاملة فى هذا
المكان .. تلقيت تدريبات خاصة على يد أحسن خبراء العالم
لعلاج النزلاء بأحدث وسائل العلاج .. وليس المطلوب منى
أكثر أو أقل من العمل على راحتك وتلبية رغباتك .. وإذا كنت
متحمسة لعملى .. فلأنى واثقة أن أهم شيء تستطيع أن
تفعله .

وانفرجت شفهاها عن ابتسامه تحولت بسرعة الى ضحكة
همجية قاتلة :

- لا تقلبها غم يا أستاذ .. بصراحة أنت نضيج وقتك
بإرتداء ملابسك .. التى سوف تضطر الى خلعها بعد قليل .
حاول أن يقاوم دهشته من الطريقة التى تعبر بها عن

نفسها .. واعترافها بأنها شيء قافه .. ثم الحاحها الغبى فى
تأكيد أنها تقدم له أهم شيء فى حياته .. وقال باسم .. أو
مقظاهرا بالابتسام :

- الملابس التى أرتديها الآن أمامك .. لن أخلعها حتى
أصل الى القاهرة .

قالت ضاحكة بصوتها الغليظ :

- أنت مذهش .. لم أر أحداً مثلك فى عنادك . طفل عنيد
ولكنى سأصبر عليك .. وسأقتنعك .

قال هازئاً وهو يكدر حاجباته فى حقائقه بسرعة :

- ليس لدى وقت لأقنعك بأى شيء .. بعد ثلث ساعة على
الأكثر .. سأقابل الحوت ونختفى من هنا .

قالت وكأنها تخاطب نفسها :

- تقابله فى قاعة الدومينو .. حيث يلعبون بالأرقام قد
تدخل القاعة فتبتلعك أو تخرج منها فيجذبونك الى الكروكيه
حيث يهتمون بانسجام الحركات .. حركة اليد مع حركة
الرأس .. مع حركة الرسغين مع حركة مشطى القدمين ..
ولكن تدريباتى الخاصة .. تحقق لك انسجاماً كاملاً .. تحقق
لك راحة لم تحصل عليها أبداً .

ومدت يدها الى كتاب رجوع الشيخ واخطفته من فوق
المنضدة بجوار سلة الفاكهة . ولوحت به قائلة :

- من الذى جاء بهذا الكتاب الى هنا .. هل انتهى أمر

صاحب هذا الكتاب .. اختفى من حياتك .. ألن يعود .. هل
قطعت كل ما بينك وبينه من صلة .. هل أنت يوسف منصور
آخر .. أم أنت هارب من نفسك ؟

قال وهو يختطف الكتاب من يدها ويجمع بقية الكتب
ليخفيها في الحقيبة المفتوحة فوق السرير :
- لا .. لست هاربا من نفسي .. بل اكتشفت أن أمامي
واجبات أهم .

قالت :
- تريد أن تعود الى المشاكل التي هربت منها ؟
قال :

- نعم .. لأن هناك أملا في أن أنقذ ابني .
قالت :

- وسوف تتخلى عن فكرة الإقامة المريحة في هذا المكان ؟
قال وهو يهز كتفيه مظهرا عدم الاكتراث :
- لم أجد هنا الراحة التي كنت أتمناها .
قالت بسرعة :

- لأنك لم تبدأ بعد أية لعبة .
همس :

- انشغلت بذكريات حاصرته .
فقاطعه :

- وهل تخلصت منها .. أم أنت تهرب منها .

قال :

- الذكريات .. لا أهمية لها .. المهم هو الحاضر .. ابني
في السجن .
قالت :

- كنت أفضل أن تأخذ أولا قسطا من الراحة .. أعنى
الراحة الحقيقية .. قبل أن تقدم على مغامرة قد تنتهى الى
الفشل .

ثم سارعت وقد رأت وجهه يتجهم :
- وطبعاً .. قد تنتهى الى النجاح .. ولكن أمامك فرصة
لممارسة لعبة معي لا تورطك في مشاكل .

واقتربت منه ومدت يدها ولمست بأصبعها ذقنه ورفعتها
وهي تبسم قائلة :

- أرجوك .. ابتسم .. لا تتجهم هكذا .. أنت في حاجة
ماسسة الى علاج سريع .. نمارس معا لعبة لا تورطك في
مشاكل .. لا انجاب ولا أولاد لا صبيان أو بنات . لن
أكون أما .. ولن تكون أبا .. ولن يزعجك نجاح أو فشل ..

سأل في فضول :
- ماذا تعنين .. لا نجاح ولا فشل .

قالت :
- انه ليس الجنس الذى عرفته .. ذلك الجنس الذى تسبب
في وجودك .

وهي تحتويه بين ذراعيها بخدر يسرى
في أطرافه ، وينمو ببطء في دماغه ، وأعجبه مذاق ما شعر به
كأنه مقبل على راحة شهية ، راحة يغوص فيها حتى تغطيه
وتطمس وجوده تماما ، كانت شفتاها قداعبان رقبته ، ولذة
نعاس مريح حنون تنقش في حنايا جسده المتهالك ، احضانها
رحبه وصدرها ممد كسحابة بيضاء تنقش في السماء ،
وشعرها يفسدل كوهج غروب يعلن بلا تردد أن الليل آت
لا ريب فيه ، آه لو يستريح .. هل آن الأوان بعد سنوات
العذاب والضيق أن يستريح .

قبل أن يغيب في نعاس كامل ، انتفض شيء في اعماقه ،
خاطر بعيد يتأرجح في ذاكرته ، خاطر يومض قبل أن ينطفئ
تماما ، أنه قرر أن يعود ، وأنه لا يستطيع أن يستسلم نهائيا
لهذه الراحة اللينة في احضان هذا الجسد الذي يحضنه ،
عينا الصوت الزجاجيتان صمدتا في ذاكرته تذكرانه بأنهما
اعتزما العودة الى القاهرة .

ولابد أنها شعرت بانقراضه ، فقد تركته فجأة ، وقالت
فيما يشبه العقاب :

ووجد نفسه يتذكر أمه .. بينما كانت تستطرد قائلة :

— وهو ليس الجنس الذي أنجب لك ابك .
وتذكر حسن . ووجم :

فصاحت وهي تعيد رفع نغمة بأصبعها :

— أرجوك .. اضحك يا استاذ .
قال في أسي :

— فات وقت الضحك .. الحوت ينتظرني .
قالت في عناد :

— أنه لن ينزعج إذا ما تأخرت قليلا .
قال في انزعاج :

— لا .. لابد أن تمضي الى بلدي .
هابتسمت فجأة وقالت :

— أمرك .. يا سيدى لم يبق إلا أن أودعك .
وانقضت عليه تعانقه وتقبله قبلات الوداع .

— أستاذ .. أنت مازلت مشغولا بعودتك .

كانت تتراجع فيخيل اليه انها توشك أن تجذبه اليها ، أو
لعله تمنى أن تجذبه اليها ، أنه في أشد الحاجة الى هذه
الراحة التي لم يألّفها من قبل .. لايد أنها خبيرة فعلا في هذا
اللون من العلاج ، ولايد أنها درست فنونا في السيطرة على
الجسد ، والتأثير في مراكز حساسة منه ، تنقل الانسان الى
هذا الهدوء العميق الذي
يجعله يستقبل النشوة كاملة
خالصة .

وسمعتها تقول :

— لا تخف .. لن أخدعك
.. ولن أفرض عليك ما لا تريد
كاد يتوسل : بل أنقذيتي
مما أنا فيه من عذاب ..
امنحيني بعض هذه الراحة .

ولكنه اكتفى بأن يترنح في
محاولة أن يستعيد نفسه ،
بأن يتخلص من شعور الراحة
ويعود الى القلق والتوتر
العصبي .



وقالت له باسمه :

— مازلت في حاجة الى تدريب طويل .. ان التقاء جسدين
أصبح فنا راقيا .. وله مستويات تتحقق فيها راحة تامة ..
لا تشوهها انفعالات أو اضطرابات نفسية ولا تشنّج عصبي
.. أنك تنتفض كما لو كانت عروقك توشك على الانفجار في
أية لحظة .. صدقني أنا أألم لحالك .. وأنت أولى الناس
بالراحة .

همس وقد استعاد بعض نفسه :

— صدقت .. ولكن هكذا شاعت الظروف .

وتنهّد قبل أن يكمل ملوحا بيده في يأس :

— لدى الآن فكرة عن هذا الراحة التي تستطيعين تقديمها
لي .. وهي شيء أتمناه بالفعل .. لقد قضيت سنوات بعد
سنوات .. وأنا أتساءل يائسا .. هل آن الأوان لأستريح ..
أنت تقدمين لي الجواب وتقولين لي بطريقة عملية .. نعم
تستطيع أن تحصل على راحة لم تحلم بمثلها من قبل .

وعاد يلوح بيده وهمس :

— كنت أتمنى أن أحصل على نصيبي من هذه الراحة ..
اقتنعت الآن .. في هذه اللحظة الخاطفة أن لديك ما أنا في
أشد الحاجة اليه .. ولكن لا بد أن أعود لأنقذ ابني .. لأنقذ
نفسي .. أنقذ ما تبقى من مستقبلي .
ضحكت قائلة :

— لقد تغيرت لهجتك •
قال بسرعة :

— نعم •

قالت وهى تقدم له شطرا من التفاحة :

— كنت أريد أن أنجز عملا أفخر به فى مهنتى • • • فمالك
ليست سهلة • • • لقد جئت الى هنا تحمل معك رواسب ضارة
من علاقاتك بالمرأة •

قال ضاحكا فى عصبية وهو يأخذ منها قطعة التفاح
ويقضمها :

— كيف عرفت ؟

قالت فى مرح :

— من السهل على خبيرة مثلى أن تدرك ذلك بسرعة • • • ان
جسدك قلق • • • لا يطمئن الى جسد المرأة •
وقهقهت فى همجية وهتفت :

— أنت لم تشعر فى حياتك براحة حقيقية • • • أو شهوة
حقيقية • • • أنت لا تعرف حقيقة هذه المشاعر • • • وكنت
سأجعلك تنغمس فيها انغماسا خالصا من أية رغبة فى شيء
آخر • • • خالصا من أية فائدة تتخيلها فى علاقتك بالمرأة • • •
لأنه كلما قلت الفائدة • • • كلما زاد الانغماس • • • تعطى نفسك
• • • تتركها • • • تتخلى عنها • • • عندئذ فقط تبذلك الراحة تماما
• • • وتدرك أنه لا شيء يستحق أن ترهق نفسك من أجله • • •

لا شيء يستحق أن تبحث عنه أو تتحسر على فقدانه • • •
أو تحزن لانقطاع صلتك به •
وضربته فجأة على كتفه هاتفة :

— هيا • • • حتى لا تتأخر عن الحوت •

أدهشه أنها تذكره بواجبه • لم تعد تهتم به • وارتبك • أو
لعله خجل من نفسه ، فانشغل باغلاق حقائبه الثلاث ، وطاقف
بالحجرة يبحث عما يكون قد نسيه فى الدولاب أو فى الحمام
أو تحت السرير ، وحمل الحقائب الى الباب ، فى انتظار من
سيأتى لحملها •

وكانت رأسه تتلقى هجمات مشاهد من حياته فيحـ...اول
طردها • جابى اسكنازى ، أمه ، زينب • علاقاته الحقيقية
بالمرأة ارتبطت بثلاثتهن ، وكلها علاقات انتهت الى نوع من
الخيبة والفشل ، وارتجف جسده وهو يتذكر الحوت يردد له
أن الجريمة تعم • كان يشعر على نحو غامض أن علاقاته
كانت تنطوى على نوع من الجرائم ، ولكن كيف ، وصاح
بصوت مرتفع على الرغم منه •

— كيف ؟

وارتبك وقد سمعها تسأله :

— ماذا تقول ؟

واضطر الى ان يبحث عن شيء ما يقوله بسرعة • قال :

— أتساءل .. كيف تقومين بهذا العمل ؟

سألته :

— ماذا تعنى ؟

قال :

— انه عمل كثير لامرأة واحدة .. ولا بد أن الزبائن ..

وسكت .. لم يجد التعبير المناسب ، وسمعها تقول :

— لست وحدى ..

سألها فى دهشة :

— أهنأك غيرك .. كنت أظن ..

قاطعتة ضاحكة :

— تظن أنى وحدى هنا .. لا يا سيدى .. كل ما فى الأمر

أنك كنت من اختصاصى ..

وأردفت وهى تقترب منه تنظر فى عينيه بجرأة لا يتحملها ..

— أنت يا سيدى تنظر الى كما لو كنت شيئاً غريباً .. مع

انى مجرد موظفة عادية .. أقوم بمهمة جديدة .. معروفة

فى بلاد كثيرة من العالم .. وان كنتم تجهلونها فى بلادكم ..

الصحة النفسية لم تعد حبوا مهدئة .. وصدقات كهربائية

.. وجلسات تحليل نفسى .. الاكتشافات العلمية الطبية

توصلت الى العلاج بالجنس لاعادة تنظيم نفسية الانسان

وسلوكة .. لأن الجنس هو الذى جاء بالانسان الى الوجود ،

فاذا ما اختلت حياة الانسان ، فاللجوء الى الجنس هو افضل

وأحسن الطرق الى اصلاح هذا الاختلال .. والانسان يبدأ

حياته بالجنس .. ويظل يجاهد فى الحياة ويشقى ويتعذب

ويصارب وينتصر أو يتهزم ، ثم يأتى وقت يحتاج فيه الى

الراحة .. وأفضل وسائل هذه الراحة التى يتوج بها الانسان

حياته .. هى أن يستقر على وضع يريحه ، ويكتشفه من خلال

ممارسة جنسية سليمة ، فيحصل على راحته الكاملة بعد طول

العناء ..

همس :

— هذا كلام غريب .. لا أستطيع أن أتخيله ..

قالت ضاحكة :

— بالنسبة لك نعم .. ولكن الدنيا تتطور .. ووسائل

العلاج تتغير ..

سألها فجأة وهو لا يدري ما الذى دفعه الى السؤال :

— ما اسمك الحقيقى ..

قالت بصوت خفيض :

— لم يعد هذا بالأمر الذى أهتم به ..

كانا قد خرجا من الحجرة ، وسارا جنباً الى جنب الى

المصعد ، وهى تقول بصوت خفيض :

— غيرت اسمى .. منذ كنت أهتم بالسياسة .. وأنتمى

الى خلايا سرية ..

ومطت شفيتها باسمئزاز مما تذكره وقالت :

— كل هذا انتهى .. ولم يعد له معنى بعد ان وصلت الى هنا .

كان يضغط على زر المصعد . وهو يسألها :

— ولماذا انتهى عملك في السياسة ؟

قالت بسرعة :

— انتهى بالفشل .. ثم اليأس من كل شيء .

سال وهو يعيد الضغط على زر المصعد :

— وكيف اشتغلت بمؤسسة د . س ؟

ورأى المصعد يصل ، عندما سمعها تقول :

— مراد حسنين .

كان قد مد يده ليفتح باب المصعد ، فجمدت يده ، واستدار اليها مصعوقا وأصابع يده ترتجف وتقلص ، وشفتاه ترتجفان ، وصدره يضج بالدماء التي تفور في رتتيه ، وقال بلهجة غاضبة وقد تشنجت يده على مقبض المصعد :

— الكل يتحدثون هنا عن مراد حسنين .. هذا امر غير مفهوم .. هل تستطيعين تفسيره لى ؟

قللت باسمه :

— أنظر .. كيف أنت غاضب .. مهتاج .. كيف تتحمل هذه الحياة .. ان اعصابك مرهقة بشكل فظيع .. ولولا عنادك لكنت تستريح الآن .

قال وقد اشتد عناده .. واشتدت قبضته على باب المصعد يكاد يخلعه :

— تكلمي بسرعة .. ما صلتك بمراد حسنين ؟

قالت بهدوء :

— انه .. هو الذي أوصاني بك .

صرخ وياب المصعد يرتج في يده :

— أوصاك .. ما معنى هذا .

دفعته الى المصعد . فدخل بصعوبة . كان لا يريد أن يتزعزع من مكانه قبل أن تفسر له صلتها بمراد حسنين . وضغطت بأصبعها على زر المصعد ليهبط ، وحاول أن يهرب من وجهه يطل عليه من مرآة المصعد . وجه مرهق ، مجهود .. وجه آخر ليوسف منصور لم يره من قبل .

وسمعها تقول :

— مراد .. هو الذي ساعدني على العمل هنا ..

تمتم ذاهلا :

— مراد .. اذن فالجميع جاءوا الى هنا عن طريقه .

قالت :

— لا .. ولكن هناك مجموعة لا بأس بها من النزلاء على

علاقة به .

فسألها :

— وكيف أوصاك بي ؟

قالت :

- عندما قدموا لى التقرير الخاص بك .. لنستعد لمجيئك
.. قالوا لى ان مراد حسنين طلب أن أعتنى بأمرك .

سأل مرتابا :

- من الذى قال لك ذلك ؟

همست :

- الإدارة .

سأل بالحاح .

- ومن هم الإدارة ؟

قالت :

- هذا سر من أسرار العمل .. لا شأن لك به ..

فزمجر :

- وكيف تعرفت بمراد حسنين .. أهذا أيضا سر .

قالت ببساطة وقد وصل المصعد الى الطابق الأرضى ، ووقف

وهو لا يريد أن يخرج منه :

- تعرفت به فى بيروت .

رأى أمامه وهو يخرج من المصعد ، الصندوق الزجاجى
داخله الشيكولاته وشعر بقعاسة لأنه لم يحصل على حقه من
الراحة ، ولأنه مرهق ومجهد كما تأكد من صورة وجهه التى
أطلت عليه من مرآة المصعد . وهو مضطر الآن الى أن يتحرك
بسرعة . وأن يواجه الكوارث التى يبدو أنها أكبر وأضخم

مما كان يتوقع . كل الدلائل تشير الى أن مراد حسنين قد دبر
له أمرا .. كان عقله يعمل بسرعة ، والمشاهد تتلاحق فى
ومضات خاطفة بمخيلته تسترجع علاقته بمراد حسنين . أيام
التحقيقات بوزارة المعارف .

كانت مكالمة تليفونية من الشيخ الامام عبد السلام صبرى ،
قد فتحت له أبواب الوظيفة ، بين البيت وإدارة التحقيقات
دقيقتان تسيرهما على الأقدام ، كلاهما فى جاردن سيتى ، قال
له الشيخ أذهب يا بنى واستلم الوظيفة ، وسوف تشعر
ببعض المراحة لأنك تلتحق بوظيفة إدارية وهناك شبان فى مثل
سنك أكملوا تعليمهم وحصلوا على شهادة الليسانس ويقولون
التحقيقات ، ويتقاضون مرتبات أكبر ، وأنا أتمنى أن يستفرك
هذا الوضع ، فتكمل تعليمك ، فلا شيء يحول بينك وبين اتمامه
الا عنادك وتكاسلك وإهمالك لدروسك ومحاضراتك ، لا تغلم
نفسك يا بنى ، دراساك ميسره ، ومحاضرات الشريعة
تستطيع أن تسألنى عنها فى أى وقت ، لقد اخترنا لك هذا
العمل حتى لا تضيع وقتك فيما هو مفسدة للشباب ، فأنت واحد
منا ، ونريد لك الخير والسعادة ، عندما أوشك أن يخرج من
الحجرة التى يجلس فيها الشيخ فى بيته ، ناداه ، فوقف
بالباب ، ورأى وجه الشيخ يبتسم قائلا :

- لا تبتئس .. وإذا ضياقتك أن المحققين فى وضع أفضل
منك من حيث الوظيفة والمؤهل الدراسى ، فلا تنسى أنك يوسف

منصور ٠٠ وان عائلتك واسمك كفيلا بأن يهيئا لك وضعا اجتماعيا لا يحصل عليه غيرك بالمناصب والدراسات .

رفض اتمام دراسته تحديا لهذا الشيخ وعائلته ، فانهى به الأمر الى أن يلتحق بوظيفة عن طريق وساطة الشيخ ، لم يكثر بالمحققين حملة شهادة اليسانس ، ملابسه أفخر ، بيته فى جاردن سيقى بحديقته وأشجاره ، يفرض على كل ادارة التحقيقات ان تنظر اليه فى احترام ووجل ، انه قريب الشيخ الامام الوزير أمر بتعيينه بالتليفون واستلم العمل قبل وصول الأوراق . مدير التحقيقات يستقبله بحفاوة ، اعتبر نفسك ابنى ٠٠ لن أعطيك عملا مرهقا لتكمل دراسة الحقوق ولا تحاول التزويغ ، لآتى مسئول عن سلوكك أمام لطيف بك صبرى ، كان المدير يعلم أن لطيف بك زوج أمه ، ويعلم أن زوج أمه شقيق شيخ الأزهر .

كان يستعد للمناوذة والمشاكسة ، عندما انعقدت صداقة بيته وبين مراد حسنين كاتب الآلة الكاتبة بادارة التحقيقات ، أسرع من يكتب على الآلة تقارير التحقيق ، صاحب سيارة أوستن ، صاحب محل خردوات فى شارع عبد العزيز ورثه حديثا عن أبيه ، متشبهت بالتسعة عشر جنيها التى يقبضها كل شهر من الادارة أكثر من تشبته بالسيارة ومحل الخردوات ، جعل من حجرتهم فى ادارة التحقيقات وكرا باهرا للمحققين ، يتسللون اليه لمعرفة تأشيرة المدير على تقاريرهم ، أو لاقتراض النقود من مراد أو السجائر من يوسف بك ، ولكن مراد كان

عليه ان يختار بين الوظيفة والدكان ، واختار الدكان ولم يحتفظ من ادارة التحقيقات الا بصداقته ليوسف ، سهراتهما فى الدكان حتى يخلقانه ثم تمتد فى قهوة شارع فؤاد ، أو فى بار فى شارع الألفى ، وظن زبائن دكان مراد أن يوسف شقيقه وأيقن جرسونات المقاهى والبارات أن مراد ويوسف صديقان لا يفترقان ، فلما رأى مراد مريم وهى تدخل نكاته شعر لأول مرة انه أمام امرأة لا يستطيع أن يتخلى عنها ، كانت المفاجأة التى بدت أنها كمعجزة للصديقين ، اكتشف أن مريم لها شقيقة قوعم هى زينب .

خرج يوسف من خواطره ، وهو يتوقف عند الدرجات الثلاث المفضية الى الحجرة التى فى نهاية الممر ، انتبه حتى لا يسقط على الدرج وهمس :

— هل تسمحين بلحظات ٠٠ قبل أن اذهب الى قاعة الدومينو ؟

قالت مستسلمة :

— أمرك .

قدم لها مقعدا جلده بنى وجلس قبالتها بينهما مفضدة من الأبنوس الأسود وقال فيما يشبه التوسل :

— هل أستطيع ان أعرف منك ٠٠ كيف وصلت الى مراد حسنين ؟

قالت ضاحكة :

- وصلت اليه عن طريق الحوت .

قال منفعلا :

- نعم .. نعم .. الحوت قال لي انه يعرفك .

قالت باسمه :

- كنت أعمل لحسابه في المباحث .

ومضت تروي له كيف كان لها نشاط سياسي في الجامعة .. المبادئ والشعارات .. الاجتماعات ، الكفاح الثوري ، كنا أقوياء ، وكان معي من أصبحوا فيما بعد حكاما في دمشق وبغداد والجزائر وعمان .. أحلام كبيرة .. القومية العربية .. الوحدة العربية .. ولكن الأحلام تحولت الى كوابيس ، والانتصارات انقلبت الى هزائم ، زملاء خائنوا ، وزملاء قتلوا زملاء ، وزملاء وصلوا الى الحكم فانقلب عليهم زملاء ينتزعونهم من الحكم ويقتلونهم بالرصاص أو برسائل متفجرة ، أو بالسّم ، أو بالاعتقال والنفي ، تساقطوا واحد بعد الآخر ، أتعرف يا أستاذ أن أكبر وأهم مظهر للشباب الثوري المكافح كما عرفته .. هو قدرته على التلون كالحرباء .. القيمة الحقيقية التي يحارب من أجلها بضراوة هي في نهاية المطاف مصلحة الشخصية ، اذا جاءت المصلحة في صورة منصب أو نفوذ عن طريق البعث فهو بعثي ، اذا كانت الشهرة واكتساب الأهمية عن طريق الارتباط بالشيوعية فهو شيوعي ، واذا كان ..

قاطعها وهو يذكر ابنه .

- أعرف .. أعرف .. أنا لا أسألك عن السياسة .

قالت ضاحكة :

- لك كل الحق .. فأين هي .. على أية حال كانت هي أيضا مصلحة شخصية بالنسبة لي ، أو هكذا تحولت عندما أصبحت خطيبة لرئيس الخلية التي أنتمى إليها .. وكان مثلي الأعلى في العمل السياسي .. وانهار كل شيء .. عندما هجرني وتزوج ابنة أحد الباشوات .. ووجدتني مهددة بالترحيل الى سوريا .. أنا التي كنت أهدف في شوارع القاهرة فتريد الجموع هتافى بالوحدة العربية والقومية العربية ، وناداني الحوت ، قال انه قد تقرر صرف معاش لي كمجاهدة وطنية ، لم يفت وقت طويل قبل أن أتبين أن لا شيء يقدمونه لك بلا مقابل ، وأن الحماية والمال اللذين

أحصل عليهما ، من الحوت .. مقابل أن أنقل اليه ما لدى من معلومات .. وكنت قد وصلت الى بيروت ، وأقمت في فسرع فندق برستييج هناك .. أتريد على صالة اللعب .. وأعرف آخر أخبار الكفاح والجهاد ، والتقى بالوجوه القديمة ، وأتعرف على وجوه جديدة ، وكان الرصاص يدوي في كل أنحاء بيروت ، ومع ذلك



فالفندق مفتوح ، والكازينو يمارس نشاطه ، ولا أحد يقترب منه . . لا من اليمين ولا من اليسار ، ولا من المارون ولا من المسلمين ، ولا من السنة أو من الشيعة . . ولا من الكتاب ولا من المقاومة ولا اليهود لا أحد منهم جميعا يهاجم الفندق وملحقاته لان الجميع يقبضون أجر حماية الفندق ، هذا هو ما شرحه لى مراد حسنين ، وكنت قد قابلته فى هالة اللعب ، حكيت له قصة حياتى ، كيف أحببت ، وكيف خائنتى وهجرنى وأنا حامل ، وكيف أجهضت نفسى . . ودعائى الى الافطار ، شربنا الشمبانيا مع القهوة ، وطبعا سكرت . . وكنت قد خسرت مالا كثيرا فى الكازينو .

قلت له لا أريد هذه الحياة ، فقدت ثقتى بكل شيء . . بالحكومات ، بالزعماء ، بالمبادئ ، بالقيم ، كله كذب فى كذب ، حتى الحب ، حتى أية علاقة انسانية لا تصور ان تقوم أية علاقة ويقبلها الناس ، الا اذا كانت على أساس الخداع والغش ، والكذب ، الناس هكذا . . يطمنون للكذب أكثر من اطمئنانهم للصدق ، حشرات .

وقال لى مراد ان عنده لى وظيفة ، فى فندق بمؤسسة سياحية ، سألته ، أين ، قال فى مكان بعيد عن هنا لا يعرفه أحد .

فقلت له بسرعة ، أرجوك ، الحقنى ، انا موافقة . . وعندئذ قدم لى عرضا بان احصل على دراسة تدريبية فى

العلاج عن طريق الجنس ، وقال لى وهو يضحك : انى سأجد متعة من نوع يفوق بكثير متعة السلطة السياسية التى كنت أسعى اليها اثناء عملى بالسياسة ، وقال انى سأسيطر على الرجال بأساليب جديدة تماما ، المهم ان أقبل ، ان اتخلص من أية رواسب من أفكار عتيقة عن الجنس ، وأهتم بدراستى وتدريبائى ، وفعلنا ذهبت الى مركز التدريب ، واكتشفت بسرعة ما الذى كان يعينه مراد حسنين ، بعد محاضرات قليلة على يد خبراء وأطباء عالميين ، وتدريبات يتولاها مدربون من الهنود والصينيين درسوا اليوجا والزن ، تعلمت ان السلطة التى تحصل عليها من السيطرة على الجسد لا تفوقها سلطة أخرى فى الوجود ، عالم آخر تفتح أمامى تشعر فيه بانتماء للكون . . لأصل الوجود .

- همس :

- ولكن واضح أن سلطة مراد حسنين أكبر . . وأقول لك بصراحة : ان أصبحت أخشى أن يكون قد دبر لى أمرا ، مع أن هذا احتمال يصعب تصديقه .

فضحكت قائلة :

- ربما .

سألها :

ماذا تعنين ؟

قالت محاولة التهرب من الاجابة :

• أقول ربما •

قال محقدا :

• ماذا وراء ربما هذه ؟

قالت وهى تنهض :

• لا داعى لأى كلام • ما دمت قد اعتزمت السفر ••

قال ملحا :

• ولكن أريد أن أسمع منك ••

قالت متهربة :

• تسمع ماذا •

قال :

• رأيك فيما قلته لك •• ان مراد حسنين قد يكون يدبر

أمرا أجهله •

قالت :

• انه يستطيع أن يفعل أى شىء •

قال :

• ماذا تعنين •• هل لديك معلومات ؟

قاطعته وقد ضاقت بالحاحه :

• هل تظن أن مليونيرا مثله يتحمل نفقات اقامتك لمجرد

راحتك •• أو لأن صداقة قامت بينكما يوما ما •• لا اظن أن

مثل هذا المليونير الرومانتيكى موجود فى الواقع •• وهو

على أية حال لن يكون مراد حسنين رجل الواقع والتصرف

العملى •

قال هامسا :

• انن ما الذى يريده •• أرجوك تكملنى بصراحة •

قالت :

• صدقنى •• لا أدرى •• أحيانا يخطر ببالى •• انه

أرسلك الى هنا لأنه مهتم بزواجتك •• فقد روى لى فى

بيروت •• انه كان خطيبا لشقيقتها التوعم •• وكان يشرح

لى •• كيف أنه أحب يوما ما ، وأن قلبه الذى عرف الحب

يجعله يفهم مشكلتى بعد أن هجرنى من أحبت ، وأعطيت له

نفسى بلا أى قيد أو شرط •

انفجر يوسف ضاحكا فجأة •

• ما تقولينه تخريف •• مراد حسنين لا وقت عنده لمثل

هذا الكلام الفارغ •• انه أكبر وأهم وأخطر من أن يشغل

نفسه بقوعم خطيبته ، أن يحاول أن يبعدنى ليصفو له الجو

مع زوجتى ، ان علاقتى مع زوجتى ليست على ما يرام ••

ولكن لأسباب أخرى تماما •• يستحيل أن يكون من بينها

اهتمام مراد حسنين بها •

قالت معتذرة :

• قلت لك : ان ما أفكر فيه مجرد تخمين •

وهنا دوى صوت يردد :

• تخمين •• تخمين •• تخمين •• ما الذى تتحدثان

عنه •• التفت يوسف وراءه ، فرأى ميرزا الفلكى مقبلا

عصابة اليد السوداء

والفضيحة وأيام المشاعر
البغيضة التي طغت على الأحزان واحلت مكانها لتصنع له
حياته ، تصنع الحياة التي يعرفها يوسف منصور وحده
ولا أحد غيره ، تصنع أعماقه الدفينة ، تهمس له ، توسوس
له ، وتصوغ له ألوانا من المكر والخبث والغرور والاستعلاء
يدافع بها عن نفسه بين الناس ، ويحمي نفسه من الأذى
والظلم والخداع . ما الذي يعرفه ميرزا الفلكي عن كل هذا ،
كيف وصل في معرفته الى واقعة العصابة السوداء .

وجد يوسف نفسه متقادا لميرزا الفلكي ذاهلا عما حوله ،
لا يسمع ما تقوله ليلي ، ولا يسمع ما يقوله ميرزا الذي كان
يجذبه من يده خارجا به من المبنى الى ملاعب الكروكيه ، كان
يوسف الذاهل يتحرك في الزمان لا في المكان ، يعود الى ماض
بعيد محاولا دخول البيت الذي انهدم ، بيت طفولته وصباه في
جاردن سيتي ، انها محاولة قاسية مريرة ، فهو يرى بمخيلته
العمال وهم يهدمونه .

كانت لحظة غريبة في حياته ، كان يقود سيارته الفولكس
فاجن في طريقه الى مبنى التليفزيون ، رأسه مزدحم بالمشاهد

عليه . . وصباح وهو يهبط بكفه على كتف يوسف كأنه
يقبض عليه .

— أمسكت بك أخيرا . . ولن تغفلت مني .
قال يوسف بسرعة :

— آسف يا ميرزا بك . . انى على موعد مع اللواء الحوت
في قاعة الدوميتو لأننا مسافران في التو .
قال ميرزا باسم :

— مسافران . . هكذا ببساطة .
— لا أظن أنك ستغادر هذا المكان . . قبل ان تسمع مني
ما تريد أن تعرفه عن عصابة اليد السوداء .
وأصفر وجه يوسف . . وهمس :
— أنت تعرف هذا .

وانتشرت في وجه ميرزا الفلكي بشاشة فيها مزيج من
شقاوة الطفل ومكر العجوز .

المثيرة التي سيفاجيء بها المخرج محمد صفوت • خاصة ذلك
المشهد الذي سوف تخدع فيه البطلة اللص الذي يسرق أموالها
بأن توهمه أن النقود التي معها مزيفة ، سيصدّقها اللص •
وسيقذف بالنقود التي أمسك بها مدعورا كأنها عقارب
قلسعه • موقف مثير ، وله مغزى أخلاقي • المال الحرام
كالعقارب السامة ، وله جانب مضحك • فالناس يعجبها تلك
المواقف التي تتغلب فيها فتاة عادية على لص ذكي محترف ،
انتصار الفتاة يملأ نفوس المشاهدين بالثقة في أنفسهم •

وفجأة سمع يوسف صراخا ورجلا يقف في منتصف الطريق
يشير له أن يقف • وأوقف سيارته قبل أن يصدم الرجل الذي
كان يحذره من التقدم لأن بناء يوشك أن يتداعى • وانتبه فجأة
إلى أن هذا البناء هو « بيتنا » القديم • وأن هذا الشارع •

هو « شارعنا » القديم ، وعمال
يعتالون السقالات يضربون
بمعاولهم في جدار بالطابق
الثاني ، هو جدار حجرة نوم
أبيه وأمه • أفاق من حلم
السيناريو ليواجه واقعا أغرب
من الأحلام • كانوا قد
هدموا السقف ، والنوافذ
عمارية من الخشب



والزجاج • البيت أصبح هيكلا حجرياً والعمال
يزحفون فوقه بالمعاول وقد ثار الغبار حولهم ، حيوانات أو
حشرات مخيفة تنهش ما بقي من الجسد • صدفة عجيبة •
صدفة أليمة ، واجهها بابتسامة للرجل الذي كان يحذره •
وهبط من السيارة ، ووقف ينتظر سقوط الجدار ، ها هو
الانهيار يمتد إلى البيت بجدرانه وحجارتها وأخشابه وحديدته •

ها هو الدمار ينتشر ويسحق كل ما كان في هذا البيت
ويحيله إلى غبار وانقاض وتراب ، ولكنه سيرتفع فوق هذه
الأنشلاء ، هذا هو ما تريده الأقدار التي هيأت له مشاهدة هذا
المنظر التاريخي ، لعله يحوله إلى مشاهد في رواية ، ترى هل
يوافق محمد صفوت على اخراج هذا المشهد • مستحيل ،
سيعترض بأن التصوير الخارجي غير مرغوب فيه لتكاليفه
الباهظة ، شاشة التليفزيون لا تحتل هذا البذخ ، أيتنازل
لمحمد صفوت عن أجره ليقبل ، أيعترف له بأن مشهد انهيار
البيت ، هو ذروة ماضيه الذي صنع له حاضره • لن يفهم
محمد صفوت هذه المشاعر سيقول له ساخرا ، وما الذي
يجذب الناس إلى مشاهدة انهيار بيت وخرابة وانقاض
وأثرية • هل هي قنبلة نسفت البيت ؟ وتمنى يوسف لو كان
معه ابنه حسن في هذه اللحظة • لعله يأتي به في يوم أجازة
المدرسة ليشهد بيت جده وهم يهدمونه • هذه يا حسن هي
غرفة جدك وجدتك ، وهناك حيث سقط الجدار في الجانب

الأيمن كانت حجرتي أنام والعب وأذاكر فيها • وبجوارها
حجرة عمك كريمة ، كان بيننا باب ، وكنت أخاصمها فتقف
خلف الباب ترقبني من ثقب المفتاح ، وتذهب لأمي وتقول لها
انني لا أذاكر •

وهذه الحديقة التي لم يعد فيها زرع ولا أشجار ، كانت
كلها أحواض ورود وأزهار ، وتحت نافذة حجرتي كانت هناك
شجرة موز ، ذات يوم رأيت تحتها ثعبانا طويلا رفيعا فضي
اللون طوله متر • وكان طولي لا يزيد على متر ، وجريت الى
عم محمود وجذبتة من جلبابه وهو جالس على الدكة أمام
البيت ، هنا حيث ترى أكوام القراب ، وصرخت ، ثعبان يا عم
محمود • ثعبان تحت شجرة الموز ، وظن انني أضحك عليه ،
ولكنه جاء ، ورأى الثعبان ، وكانت نظرات من عيني عم
محمود ونظرات من الثعبان الذي تلوى وانساب وصرخت
وقفزت في الهواء ، وضربه عم محمود بقبقاب في قدمه • كان
يستعد للوضوء ، وتدلّى الثعبان على عصا حمله عليها ، وكان
وجهه عابسا وعيناه غاضبتين وذعرت أمي • لم تصدقني أول
الأمر ، ونادت عم محمود ، فلما قال لها ان الثعبان حقيقة ،
خافت وضمتني الى صدرها ، ورفضت أن أبتعد عنها ، وجاء
أبي يفتش الحديقة ويثبش الأرض بعصاه الأبنوس ذات المقبض
العاجي •

وسأل عم محمود من أين أتى الثعبان ؟ وطلب منه أن يبحث

عن كل الشقوق ويسدها ، وانشغل عم محمود ليومين وهو يعد
خلطة الأسمنت وأنا أساعده ، وهو يرفض مساعدتي ويتهمني
بأنني ألوث ملابس وحذائي وأضع الأسمنت في قمّي ، وعرفت
كل الشقوق الصغيرة في جدران البيت ، وراقبت النمل وهو
يدخل ويخرج منها ، وكنت أتابعه وهو يحمل الذباب الميت
ويصعد به الجدار ليختفي في الشق ، وكنت أرش عليه الماء ،
وأستحققه بقدمي ، ثم أخاف وأتوقع أن يهاجمني
لينتقم مني ، وكان عم محمود يحذرنني من الاقتراب
من النمل ويقول لي انه جاء في القرآن ، فأشعر أن له هبة
وابتعد عنه ، ثم أهاجمه من جديد في محاولة للقضاء على
كل النمل الذي أراه في الحديقة • ولكنه لا يختفي أبدا •

تعالّت الصيحات ، وسقط الجدار ، وثار الغبار ، وامتلأ
الجو بذرات القراب ، فخيل الى يوسف أنه يسمع صراخهم
جميعا ، صراخ أبيه وأمه وصراخ جدته لأمه • وصراخ نور
زوجة عم محمود • وصراخ محمود وصراخ ابراهيم السائق •
وانتفض وقد خيل اليه أن سيارة أبيه الباكار ما زالت في
الجراج وان الانقاض سقطت عليها وهشمتها ، وتراجع وقد
ملا الغبار عينيه وركب الفولكس فلما وصل الى القليفيون
كان قد نسي كل ما رآه ، ومضت شهور قبل أن يمر بنفس
الطريق التي كان ينحرف اليها اذا ما توقع أن يعطله الزحام
في شارع قصر العيني •

وفاجأه هذه المرة منظر الآلات المضحمة تدق خوازيق
الأسمنت في الأرض التي كانت بيتنا . الآن قامت تلك العمارة
الكبيرة التي يشغلها موظفو الضرائب ، مكاتب ورجال ونساء
وسعاة وممولون وملفات مكدسة فوق المكاتب ، كل هؤلاء
محشورون في حجرات ضيقة يعلوهم غبار كأنه بقايا غبار
انهيار بيتنا القديم ، كان يدخل الحجرة لقرايج مأمورة
الضرائب اقراره الضريبي ، فيرى مع هذا الحشد في هذا
المبنى الجديد ، أمه جالسة تطرز مفرشا للمائدة ، وجدته
تصلي ، ونور جالسة عند قدمي أمه تدلكهما ، وأباه جالسا في
حجرة المكتبة يشرب القهوة بعد أن استيقظ من نوم العصر ،
يقرأ البلاغ والمقطم . وكريمة تمشط شعرها المبلل بعد أن
خرجت من الحمام ، هل يجوز أن يحدث مثل هذا الاختلاط في
ذاكرة الانسان . ومن المسئول عنه ، كان كل شيء مستقرا
ثابتا .

وكان أباه قادرا على طرد الثعابين من بيتنا ، وكانت كلمته
مسموعة من الجميع ، ولم يكن مسموحا باقامة عمارات عالية
في جاردن سيتي ، كان يسمع أباه يردد في مناسبات عديدة ،
ان الذين يسكنون الشقق في عمارات بالايجار اناس من طبقة
أخرى ، يفسدون الأحياء التي يزحفون عليها ، يجلبون معهم
الدكاكين أسفل العمارات ، ويتكاثر حولهم الباعة والخدم
ويحدث الشغب الذي لا بد منه بين جيران غرباء ليست لهم

مساكن يمتلكونها ، فهم بلا أصلا ولا جذور ، انهم رعا
يجتمعون كيفما اتفق في حجرات تجمعها بناية واحدة ، هي
بؤرة للضجيج والشجار تفوح منها روائح متنافرة منفرة
لأطعمة يطهوونها تعافها النفوس ، يستخدمون في طهوها أروا
أنواع الزيوت والدهون ، فضلا عن رائحة الزبالة والنفايات ،
وأشوأ من كل هذا الأصوات غير المهذبة ، والكلمات البذيئة ،
وعويل النساء الجاهلات ، وضجيج أولاد منحطين ينطلقون في
سلام العمارات وفي الشارع بلا رقيب ، يتفوهون بأقذر
الشتائم ويشوهون الوقار والسكينة التي يجب ان تتوافر لأي
مسكن تعيش فيه أسرة كريمة .

كان منصور بك سالم رجلا محافظا ، ولم يفهم يوسف
معنى أن والده من عائلة محافظة الا بعد سنوات وسنوات ،
عندما اكتشف أن كل ما أراد أبوه أن يحافظ عليه قد تداعى
وانهار . كان أبوه مطمئنا الى أن كل شيء سسوف يبقى كما
هو . يهز رأسه ويقول ان البيت قد أقيم على أساس متين ،
وأن هنديق والده المهندس الايطالى السنيور برنيني قد جاء من
الاسكندرية ليشراف بنفسه على بناء البيت وتنظيم الحديقة .
وأنه صمم على أن يجمع طراز البيت بين التعبير عن الفخامة
والهيبة بالأعمدة الرخامية التي جلبها المهندس من قرية
« كرازا » الايطالية والنوافذ ذات الأشكال والأحجام المتعددة ،
والبرج الذي يعطى مظهر القلعة الحصينة .

وكان أبوه يردد بزهو بيتنا هو الوحيد في شارعنا على طراز
الباروك وكان ينطق الكلمة باعتزاز ، فلما سأل يوسف عن
معناها ، قال له ضاحكا انها كلمة برتغالية معناها اللؤلؤة
الكبيرة ، وان هذا البيت هو فعلا لؤلؤة وسط الجيرة الحسنة ،
فالشارع ليست فيه ثغرة يستطيع ان ينفذ منها الرعاع الى اى
بيت من بيوته . كان الشارع صغيرا ، وعلى يمينهم قصر
الأمير ف ، وهو قصر منيف يمتد الى نهاية الشارع ، والى
يسارهم بيت سعيد باشا حقى رئيس الوزراء الأسبق ، ومن
بعده بيت فاطمة هانم شريف التى ورثت رجلين من أكبر أثرياء
مصر ، تزوجت الأول فورثت عنه قرى باكملها فى الصعيد
فتزوجت الثانى فورثت عنه قرى باكملها فى الشرقية . كرس
حياتها لأعمال الخير .

وكانت ترسل مع خادمها الأسمر العملاق ندى الشعر
الأبيض والصوت الرفيع الحاد ، أطباق عاشوراء وسد الحنك
وأم على . كانت أطباقها علامة مميزة للمواسم ولم تكف عن
ارسالها حتى بعد غياب أبيه وكانت تتركب سيارتها ، ولديها
سيارتان ، ناش ورولزرويس ، تبدلها عصر كل يوم وتختفى
من الشارع ، وتعود بعد المغرب بقليل وقد اضضاءت الأنوار
بوابة بيتها وحديقتها ، وكانت البيوت الأخرى تكتفى بإضاءة
البوابة ، اما قصر الأمير فكان غارقا أغلب الوقت فى ظلام
دامس . وذات مرة وقفت سياراة فاطمة هانم أمام بيتنا ،

وكان يوسف يجلس على الدكة الخشبية بجوار عم محمود ،
الذى كان مشغولا بأعداد لفافة تبغ وأحكم لصق اللفافة
بلعابه ، وشرع فى اشعالها بحك حجر فى زئد .

وفوجئ يوسف بوجه فاطمة هانم المستدير ، وشعرها
الفضى المقصوص وعينيها الزرقاوين الواسعيتين ، قطل من
نافذة السيارة الناش الصفراء ، ثم أخرجت من النافذة عصا
ابنوس مثل عصا أبيه ولوحت بها وهى تتمتم بكلمات غير
مفهومة ، وانتفض عم محمود واقفا وقذف بلفافة التبغ على
الأرض ، وهمس له وهو يرتعد ان يتقدم فإلهانم تناديه .

خاف يوسف وقد انتقلت اليه العدوى من عم محمود ،
واقرب مترددا ، ورأى وجهها متجهما ، وعصاها توشك أن
تلمسه وتضربه ، وتبين انها تهدده بصوتها الحاد الرفيع أنها
ستؤدبه بالعصا اذا رآته جالسا على الدكة الخشبية مرة
أخرى . فليس هذا من شيمه اولاد الناس المحترمين .
والمرحوم والده ما كان يقبل هذا . قال لها خائفا انه تعود منذ
طفولته أن يجلس هذه الجلسة وان أباه رآه يجلس على
الدكة ، وهى أيضا رآته من قبل . فأسكتته بصوتها الغاضب
ملوحة بعصاها قائلة له انه قد كبر ، وانه الآن يمثل أباه الذى
غاب وان عليه ان يحافظ على سمعة أبيه ويحفظ لبيته ما عرف
عنه من وقار .

كان ذلك بعد أن غاب أبوه بقليل ، وكان يشعر بحرمان ،

ويفتقد الذي ذهب ، وكان يجلس على الدكة لأن عم محمود رجل كبير ، وهو يحتاج إلى الاحساس بأنه قريب من رجل كبير ، وكان يشعر ببعض الراحة والدفع عندما يلتصق بعم محمود في جلسته ، وعندما يشم رائحته ورائحة ملابسه ورائحة التبغ الذي يدخنه .

وارتبك إذ خيل إليه أن فاطمة هانم تتهمه بأنه يسمى إلى هذا الاحساس بجسد عم محمود ، وكأنه احساس شاذ ، وخيل إليه أن خوف عم محمود مصدره هو نفس الاحساس ، فما الخطأ في جلوسه إلى جواره ، إلا إذا كان تلاصق جسديهما عينا لا تقبله الأخلاق .

وتحركات سيارة فاطمة هانم متجهة إلى بوابها المفتوحة على مصراعها ، وانطلق يوسف إلى الداخل ، وغضبت أمه عندما قال لها أن فاطمة هانم لوححت بعصاها في وجهه .

وقال لأمه : أن العصا كانت مثل عصا أبيه . فقالت أمه : إنها هدية من أبيه ، طلبتها فاطمة هانم منه لتتوكأ عليها ، وإنها قالت لأبيه أن هذه العصا لا تصلح لفاطمة هانم فهي عصا للرجال ، فقال لها ضاحكا إنه قد آن الأوان لفاطمة هانم أن تتصرف كالرجال وتهتم بإدارة ممتلكاتها ، ولا تفكر في الزواج من رجل ثالث ، وأضافت أمه تعلق على الكلام الذي سمعته من أبيه أنه كان لا يرتاح إلى وقوع أي شيء في بيوت الجيران يؤدي إلى إثارة الكلام عنهم . أي كلام عن الجيران

هو فضيحة في نظره ، لو سمعنا صوتا عاليا فهو فضيحة ، لو حمل الينا الهواء رائحة ما يطهونه من طعام فهي فضيحة ، لو أطل وجه من نافذة فهي فضيحة .
وقالت أمه فجأة أن فاطمة هانم على حق في تأنيبها له فقد بلغ الثالثة عشرة ، ولم يعد سنه مناسباً للجلوس بجوار البواب على دكته الخشبية أمام الباب . إنه الابن الأكبر وعليه أن يفكر في شقيقته كريمة فهي في حاجة إلى الرجل الذي يقدم لها في البيت المثال الذي حافظ عليه منصور بك سالم . قال لأمه إنها تسمح لنور زوجة البواب أن تجلس في حضرتها . قالت له هذا شيء آخر ولا شأن لك به . كانت تقول ذلك وكأنها صاحبة الكلمة الأخيرة في المحافظة على التقاليد المرعية في البيت .

واستسلم لها وهو لا يدري أنها بعد عامين سوف تتزوج لطيف صبرى وسوف تصنع الفضيحة التي كان أبوه يخشى وقوعها في بيوت الجيران لا في بيته .

كان أمام « بيتنا » بيتان متماثلان توعدا . . . من طابقين ولهما حديقتان متشابهتان يسكنهما شقيقان ، البيت الذي يواجه بيتنا مباشرة هو بيت الشيخ عبد السلام صبرى ، شيخ الأزهر ، الإمام عالم الدين الكبير ، بيته يضاء بأنوار متوهجة في البوابة والحديقة ونوافذ الطابقين تضاء ، وتفتح نوافذ حجرات الطابق الأول وتزدحم بالزوار وتظل المال هكذا لفترة

تطول أو تقصر ، ثم تنطفىء الأنوار وتغلق النوافذ ويختفى الزوار ويخيم صمت ثقيل على البيت لفترة تطول أو تقصر ، وكان يسمع من أبيه وهو يتحدث مع أصدقائه ، أن الشيخ قد تصالح مع السراي ، أو أن الشيخ قد انقلب السراي . وكان الحديث يدور حول الفزاع بين الشيخ والملك فؤاد ، فيتوقع يوسف أن يهاجم الملك بيت الشيخ بجنوده وفرسانه فالملك قائد عظيم يهتفون باسمه في المدرسة ويحفظون الأناشيد يرددونها قبل القيام بالاجازة في عيد ميلاده أو عيد جلوسه على عرشه .

ويتساءل يوسف كيف يجرؤ ذلك الشيخ على المضايك الملك ، ويتساءل ما هو سر قوة الشيخ عبد السلام صبرى فيختار ، كان الشيخ طويلا ممتلئ الجسم ، عمامته ناصعة البياض ، قفطانة زاهي اللون ، يسير في ثوبه ، عيناه رماديتان حالمتان ، بشرته بيضاء محمرة ، وكان يرى عم محمود بين كثيرين يسرعون إلى الشيخ عند خروجه من بيته ينحنون ويقبلون يده ، وهو مالا يفعلونه لأى واحد من أصحاب البيوت الأخرى ، ولا مع الأمير في المناسبات النادرة التي يشاهدونه فيها عندما يعود من الخارج ويمضى بعض الوقت في قصره . كان الأمير يخرج متسللا ، تنطلق سيارته في صمت ، ولا أحد يلتفت إليها ، أو كانوا يسارعون بالابتعاد عنها ، لا صلة بينهم وبين الأمير ، أو حتى حاشيته ، ولا أحد

يتحدث مع سائقه الذى يختفى داخل القصر ، ولا يرويه الا وهو خارج يقود سيارة الأمير . لا يلتفت الى أحد ، لا يتقسم ، ولا يتبادل النظرات مع أحد .

أما الشيخ عبد السلام فهو الذى يعرفه الجميع ، الكبار وخدمهم على السواء ، ولا يدري يوسف من الذى قال لأبيه انه ذات مرة اندفع مع الآخرين وأمسك بيد الشيخ وقبلها ، كان بيت الشيخ فى تلك الليلة متألقا بالأضواء ، وكان عائدا فى سيارة بعد المغرب بقليل ومن خلفه سيارات كثيرة وقفت أمام بيت الشيخ وأمام الرصيف المقابل ، أى أمام بيتنا ، وكان عم محمود وإبراهيم السائق ورجال كثيرون بينهم العملاق الأسمر خادم فاطمة هانم يتزاحمون أمام بيت الشيخ وفى منتصف الشارع يعكرون هدوءه ، وكانوا يتحدثون عن فوز الشيخ بالوزارة ولابد انها كانت وزارة الأوقاف ، وكان هناك من يتحدث عن رؤية رآها فى المنام بشرت بفوز الشيخ وسبقت ما حدث بالفعل بأيام .

وقال صاحب الرؤية لعم محمود والآخرين ، انه ذهب الى الشيخ وبشره ، وقال له انه رآه فى المنام يجلس فوق مقعد مرتفع وقد ارتدى ملابس خضراء ، فنهره الشيخ وقال له انها أضغاث أحلام ، وقال أحد الذين يسمعون الراوى ولعله كان طاهيا فى بيت سعيد باشا حقى أو فى بيت لطيف بك صبرى شقيق الشيخ ، انه لابد أن صاحب الفضيلة كان

يعلم بأن الله سوف ينصره على من يعاديه ، فمثلته رجل مكشوف عنه الحجاب ، وأراد يوسف أن يسأل عن معنى أضغاث أحلام وعن معنى مكشوف عنه الحجاب ، ولكنه ما كان يستطيع أن يتكلم وسط هذا الحشد من الكبار وقد سيطر عليهم الانفعال وانطلقوا يتصايحون فيما بينهم مؤكدين أن شيئاً خارقاً قد حدث .

واكتفى يوسف بما سيطر عليه من شعور غامض بأن هذا الشيخ مقرب عند الله سبحانه وتعالى ، وهو ما كانت تردده جدته التي كانت تزور أهل الشيخ وتستشيرهم في أمور صلاتها وزكاتها ، فلما ظهر الشيخ هابطاً من سيارته هجمت الجموع تحيط به وتقبل يده ، وتكاثر عليه كثيرون من بينهم من هبطوا من السيارات الأخرى ، سواء الذين يركبونهم أو السائقون الذين يقودون السيارات ، واندس يوسف بينهم وحشر نفسه وجاهد متسللاً حتى وصل إلى الشيخ وقبل يده ، ورأى الشيخ ينظر إليه بعينين طيبتين فيهما رقة وعذوبة .

وسأله باسم أنت ابن منصور بك ؟ فأجابه في زهو : نعم يا عمي ، وتمتم الشيخ وهو يمسح بيده على رأسه ماشاء الله ، قال له أبوه ، سمعت أنك قبلت يد الشيخ ، وأنه عرفك . . . ابتسم يوسف وقد ظن أنه قد حقق انتصاراً باهراً يعترف به أبوه ، ولكنه فوجيء به يقول له وقد لجهم وجهه ،

أنه رجل صالح ، ولكن ابني لا يقبل يد أحد ، تقبيل اليد للخدم ، أبوك لا يقبل يد أحد مهما كان . . لا ملك ولا امبراطور ، نحن أسـيـاد ثم أردف أبوه قائلاً . . هل رأيته أقبل يد جـدك عندما يأتي لزيارتنا أو نذهب إلى الإسكندرية لزيارته ، أنه كان يفتك بي . . هل قبلت أنت يدي يوماً من الأيام ، ما كنت أسـمـح لك بهذا ، لأن تقبيل اليد هي عادة من عادات العبيد ، ومد أبوه يده وقرصه من أذنه فتألم وشعر بسخونة في أذنه وخذه ، ومازال يشعر بها كلما تذكر هذا المشهد .

وخاف بعد أن وبخه أبوه أن يسمع جده بما فعله . . لا لأنه كان يرهبه كما يرهب أباه ، أو يتوقع أن يفتك به كما يقول أبوه ، بل لأنه لا يحتمل أن يتكدر جده أو يغضب منه لأي سبب من الأسباب فيحرمه من تلك الجلسات الطويلة معه وهو يحكى له القصص عن المعارك التي خاضها والجنود الذين قادهم في بلاد بعيدة يحاصرون القلاع ويقتحمون أسوارها العالية ، كان يجلس عند قدمي جده في بيته بالإسكندرية ، ذلك البيت الذي له برج يشبه البرج في بيتنا بجاردن سيتي ، وله حديقة تتوسطها نافورة يلعب فيها السمك الأحمر ، وكانت الحجرة التي يجلس فيها جده عالية الجدران ، علقت عليها سيوف ودروع وحراب ، وصور لجده بملابسه المزركشة المزدانة بالنياشين والأوسمة على

صدره ، وطربوشه طويل طويل ، وشارباه مبرومان ، وعيناه
تبرقان ، تجعله وهو يشاهد صورة جده يشد قامته ويرفع
رأسه وقد امتلأ زهوا وقوة ، يقول لنفسه : ها هو يوسف
باشا منصور ، وأنا يوسف منصور ، أنا وجدى انسان
واحد ، وكان جده يجلس على المقعد الأسيوطى ذى المسند
الذى يتحرك الى الامام والخلف بتحريك قضيب من النحاس
خلفه ، وكان معجبا بهذا المقعد ، وقد استطاع ذات مرة أن
ينتهب الفرصة ويسحب القضيب النحاسى من خلف المسند
وأخفاه وادّظر حتى جلس جده وأسند ظهره ، فسقط المسند ،
ووقف جده مندهشا مما حدث ، فلما رآه يضحك أدرك على
الفور انها فعلته فهجم عليه باسماء متوعدا مهددا ، فجسرى
ضاحكا فى الحجرة ، وجرى جده خلفه ، فاخفى وراء أريكة
وتسلل تحتها ، فهبط جده على الأرض وزحف وراءه وأمسك
به ، وضحكا واحتضنه جده ، يا عفريت أين أخفيت القضيب .

فلما أعاد له القضيب جلس وجذب يوسف الى حجره ،
وقد تحول الى رجل آخر غير الجد الذى ينتظر اليه فى الصور
المعلقة على الجدران ، صور كلها جده ، وكلها لها حكايات
يروىها له ، وأحيانا يمسك بعضا ..

السجاد تحت قدميه أنهارا وهمية وجيالا وقلاعا يشسير
اليها ويصفها فينخيلها يوسف .. هذا جبل فى الحبشة ،
هذا نهر فى المكسيك هذه غابة فى السودان ، ويتحدث جده

عن رجال يأكلون لحوم البشر ، ويروى عن نيران تتدلع
وقذائف تنطلق ، ويتحمس فيهتف بصوت أجش وهو يصدر
الأوامر بالهجوم على قلعة وإطلاق القذائف ويقلد صوت
القنابل وهى تنفجر .. يوم .. يوم .. يوم .. ويتحمس
يوسف ، ويتشقلب على الأرض ، ويسمع جده يصيح فيه
يا ولد يا (خنزور) ، كان جده وحده هو الذى يردد هذه
الكلمة ، ويمنحه لقب (خنزور) الذى لايعرف معناه ،
ولكنها كانت تملأه بالنشوة والمرح والانتلاق فهو سعيد ، كله
حيوية وشقاوة وعفرتة ، كله مرح وتفتح .. انه (خنزور)
ويطلب من جده أن يصعد فوق مقعد لينزع من الحائط سيفا
أو حربة أو درعا ليواصل الحرب بسلاح حقيقى ، ويرفض
جده ويدرك أن هذه الأشياء لا تمس ولا بد من المحافظة
عليها ، فيسأل جده اذا كان سيحتاج الى هذه الأسلحة فى
حرب أخرى ، فيهن رأسه ناظرا اليه نظرة غريبة تقلقه ،
ويزيد من قلقه أن جده يمد يده ويمسح بكفه على شعره
فى حنان ، قائلا بصوت مفعم بالأسى أن هذه الأسلحة أصبحت
للزينة .. وانها لا تصلح للحرب .. فيسأله وأين الأسلحة
التي تصلح للحرب الآن ، فيقول له انها مع الانجليز وحدهم ،
فيسأله يوسف وهذا هو السبب فى أنك أرسلت أبى الى
انجلترا .. فيقول جده ، أرسلت أباك الى انجلترا ليتعلم
منهم لأنهم يحكمون العالم .. وهم أصحاب الكلمة .. وكان
جده هو الذى هداه عن هوجة عرابى .

كان في السراى مع الخديو توفيق ، والضباط الفلاحون
خانوا الخديو وتركوه وحده ولكنه لم يترك الخديو وذهب معه
الى مركب كبيرة بها مدافع ضخمة صنعها الانجليز ،
وضربوا الخونة بالمدافع ، وبعد ان انتهت الهوجة قال له
الخديو ، ماذا تطلب يا يوسف باشا منصور سالم ، قال
للخديو :

أنا لا أطلب الا أن أكون بجوار أفندينا .

فابتهج الخديو بهذا الرد وقال عفارم ، وأعطاه أرضا في
البحيرة وأمره أن يكون حاكما لرشيد .

وهناك رأى الصببية أمينة عند شاطئ البحر . . قمر
شعرها أصفر عيناها فيروزتان . . قال أتزوجها فتزوجها . .
كانت أم أبيه ولم تنجب سواه . . كان أشقاء أبيه الذين
يقولون انهم أعمامه من أمهات غير أمينة أم منصور .

ولقد عرف الأعمام عندما اختفى أبوه . . قالوا ان جده
لا يستطيع الحضور الى القاهرة ، وذهب مع أمه وشقيقته
كريمة الى الإسكندرية ، وقضوا مع جده أياما ، وكان صامتا
لا يروى قصصا ، ولا يناديه بالولد الخنزور ، وكانت أمه
تبكى بلا انقطاع ، ثم جاء يوم قررت فيه أن تعود الى
القاهرة .

ولما دخل على جده ، كان صامتا لا يتكلم وقد رقد على
السري ، واكتفى بأن يحرك يده ويمسح بها على شعره . .

وعادوا الى القاهرة وسمع أمه تتحدث مع أمها وصاحباتها
عن الميراث . . وهن يرددن . . هذا ظلم . . ظلم . . ظلم . .
ولم يفهم ما الذى كن يعنيه بقولهن ان الله لا يرضى بهذا
الظلم .

وترددت أمه مع جدته على بيت الشيخ عبد السلام صبرى ،
وسمع جدته تقول بعد عودتها من الزيارة ان كلام الشيخ قد
أكد لها أن الأولاد لا يرثون جدهم فالأعمام يحجبون الأحفاد . .
وقالت أمه ان الشيخ كان فاسيا في أجابته ، وانه قال ان
الحل الوحيد أن يوصى الجد بنصيب ابنه في الميراث لحفيديه
يوسف وكريمة . . وانه لم يذكر شيئا عن نصيبها هي . .
وشعر يوسف أن خطأ ما قد وقع وأصابهم ، جاء النبا الذى
كانت تنتظره أمه واجفة ، لحق الجد بأبيهم ، وذهبوا الى
البيت الكبير فى الإسكندرية ، النافورة بلا ماء ولا سمك ،
وأمه تصرخ صرخات غريبة ، تتشاجر من الأعمام ، تمسك
بقلابيهم . . تشد شعرها . . وتحدثوا عن وصية ليوسف
ببعض نصيب أبيه ، لا ذكر فيها لكريمة ولا أمها . . اتهامات
بالسرقة وبأكل أموال اليتامى ، جاءت أيام الحقد ، والدم
يفور فى رأسه ، عيناها تتألمان ، ولن يفزاح الألم الا برؤية
أعمامه أشقاء متناثرة . . هم وأولادهم وزوجاتهم . .
للصوص . . الشياطين . . أهل جهنم . . وعبرت أمه
الشارع الى بيت الشيخ ، وأكثرت من عبورها ، وسمع كلمات
الشرع والفتوى والمحكمة والمحامى والمستندات ، وظهر مع

هذه الكلمات لطيف بك صبرى شقيق الشيخ ، كان بيته مغلقا
أغلب الوقت لأنه وزير مفوض في الخارج .

وكان يعود لفترات قليلة فيلفت الانتظار بسيارته المكشوفة
كان وسيما وتذكر يوسف أن أباه كان معجبا به ، إذ كان يثنى
على ثقافته واجادته للغتين الفرنسية والانجليزية ، وقال له
أبوه ذات مرة وهو يراجع معه دروسه في اللغة الانجليزية :
ان مدرستك هي أحسن مدرسة انجليزية في البلد .
والمدرسون الذين يدرسون لك كلهم من الانجليز وأبوك تعلم
الانجليزية في اكسفورد . ومع ذلك تزعجنى بهذا النطق
الردىء . انى أسمعك فلا أصدق أن هذا هو النطق الذى
يصدر عن ابنى . من أين أتيت بهذا التطقين . هل
تختلط بفلاحين . هل فى مدرستك أولاد فلاحين . انى أعرف
بعضهم . حتى فى أيامنا كان هناك فلاحون يرسلون أولادهم
الى المدارس الأجنبية . ولكنهم كانوا يتأثرون بنا .
ويقلدوننا . لا تتأثر نحن بهم ونقلدهم .

ثم قال أبوه : ألم تسمع لطيف بك صبرى وهو يتحدث
الانجليزية . انه ابن شيخ وعائلته كلها مشايخ . ومع ذلك
يتكلم الانجليزية كأنه لورد ابن لورد . ولا ينطقها مثلك
كأولاد الفجر .

عندما رأى لطيف صبرى يتردد على البيت ، توقع
المعجزة ، لقد كلفه شقيقه الشيخ أن يتولى شئون قضيتهم مع

المحامى . . وكان يحمل معه أوراقا ، ويناقش نص الوصية
التي تركها الجد مع أمه فى حضوره ، ويناديه . . يا هانم . .
وكان يحدثه عن أبيه ، وذات يوم دخل البيت ، وسبق يوسف
أمه ، وجلس معه وحدهما وفجأة مد لطيف صبرى أصبعه
وتحسس أنف يوسف ، وقال له باسم : ان أنفه مشقوق . .
وأن هذا يعنى أنه قد بلغ ، فأحمر وجهه .
فقال له لطيف صبرى :

ان والده كان رجلا يفهم الدنيا ، وانه كان سينصحني عند
بلوغي بأمور لا حياء فيها ، سوف يحذره من العادة السيئة ،
وقال باسم : انت تفهم ماذا أعنى . . وكان يعرف ماذا يعنيه ،
فمثل هذه الأمور هي حديثهم اليومي فى المدرسة ، ومع ذلك
احتفظ بوجه جامد ، فبدت الدهشة على لطيف صبرى ، وحذره
منها ، ونصحه بأن يقرأ ، وأن يلعب التنس ، وان يشغل نفسه
بأى شيء حتى يحافظ على صحته ، وقال له : لا تفرط فى
قواك والا ندمت بعد ذلك عندما تكبر وتتزوج . . كان
يتحدث همسا . . إذ كان يتوقع دخول الهانم فى أية لحظة ،
فلما دخلت أمه . . لاحظ أن لطيف صبرى كان هو الذى ارتبك
واحمر وجهه ، أو هكذا خيل اليه .

ولم يسترح لكل ما قاله لطيف صبرى عن أبيه ، كان يتحدث
عن شهامته وكرمه وانه مثال نادر للجنتمان الحقيقي . .
وقال ضاحكا : انه كان فى شبابه ساحرا للفتيات

الانجليزيات ، ولكنه رفض أن يتزوج انجليزية رغم أنه كان يستطيع أن يتزوج بنتا من عائلة كبيرة ، كانت على استعداد لأن تهجر عائلتها وتأتي معه الى مصر ، ثم قال ان أباه لم يكمل دراسته في اكسفورد ، وهذا النبأ ضايق يوسف ، وظن بعض الوقت أن لطيف صبرى يكذب . . خاصة وأنه قال ان أباه كان حاد الذكاء . . ولو كان أكمل دراسته لأصبح أستاذا في الجامعة أو صاحب منصب كبير في الدولة .

ولكن منصور بك كان يرفض العمل ، وهو معذور لأن أباه كان يعبه ويغدق عليه المال ، فعاش الدنيا بالطول وبالعرض خيل الى يوسف وهو يسمع هذه الكلمات أن لطيف صبرى يلوم والده ، وأنه يريد أن يلقي في روعة بطريقة ملتوية أن أباه قد أخطأ وأنه لم يتحمل مسؤولياته فقد كان مدبلا ، واشتد الضيق بيوسف عندما وجد خواطره تنساق في هذا التيسار الذي يقوده اليه لطيف صبرى .

كان في قرارة نفسه يلوم والده على اختفائه الذي جلب عليهم هذه الأحزان وما تجره في أنيالها من هموم ومشاكل وتدخل غريباء عن البيت في شئونه ، تلجأ اليهم أمه ، وتسالهم المساعدة والمشورة .

وكان يذكر والده وهو يدافع عن البيت ضد الثعابين ويأمر عم محمود بسد الشقوق ، ويذكر عصا فاطمة هانم ، تلك العصا التي أهداها لها أبوه ، وهي تلوح بها وتساله ان

يحافظ على سمعة والده وبيته ، ما الذي يجعل أباه يذهب ويختفي عن هذه الدنيا تاركا عصاه لسيدة غريبة عن البيت .
انها نفس تلك العصا التي كان يمسك بها يوما ما في الحديقة ويشير الى شقوق الثعابين ، انه يشعر بالأخطار تحاصره ولا يدرى ما هي على وجه التحديد ، ولا يدرى كيف يحاربها ، وما هو لطيف صبرى يتنهد قائلا في آسى . . ان منصور بك لم يتوقع أبدا أن يرثه أبوه . . فوجيء يوسف بهذه الملاحظة وتذكر على الفور الأسلحة التي كان جده يعلقها على جدران بيته في محرم بك ، حارب بها في زمانه ، ولكنه قال انها أصبحت أسلحة زينة . لم تعد تصلح للحرب ، والانجليز وحدهم الذين يملكون الأسلحة التي تصلح للحرب الآن ، ولكن أباه ذهب الى بلاد الانجليز ولم يكمل تعليمه ، ولم يحضر معه اسلحة يحارب بها ثم يعلقها على الجدران ، والجدة نفسها قد نهب . وذهبت معه أسلحة الزينة التي تخاطفها الأعمام . . وكان لطيف صبرى يواصل حديثه باسمه وهو يردد لدهشة يوسف كلمات بالانجليزية ، ترجمها الى العربية بعد أن قال انها كلمات رجل يوناني عاش منذ قرون بعيدة ، قال ان الأولاد المهذبين لا يتقدمون أباءهم في الغياب عن هذه الدنيا ، فيضطر الأب الى أن يسير خلف ابنه وهو يودعه الى مثواه الأخير ، وضحك لطيف صبرى وكأنه قال دعابة ظريفة ، ثم علق على كلامه قائلا انه لا يصدق أن جنغلما ن مثل منصور بك قد ارتكب هذه الجليطة في حق أبيه . . وابتسمت أم يوسف . فزادت

ابتسامة لطيف هبرى ، بينما كان يوسف يرى أباه صباح
ذلك اليوم ، أول أيام العيد الكبير ، وهو يضحك ويأكل اللحم
المسلوق ويعلن فى مرح أن الفت ساخن ولسع لسانه . ثم
يرى أباه ظهر نفس اليوم وهو يهبط من البساكار وقد أسرع
الأسطى ابراهيم يسانده ، وجرى يوسف الى أبيه مرتديا
ملابس العيد ملوحا بمسدس حاول أباه أن يثنيه عن شرائه لأنه
كبير ، ولم يفهم ما الذى يدعو الأسطى ابراهيم الى الإمساك
بذراع والده ، يكاد ينحنى تحته ليساعده على الحركة .

وكان أبوه صامتا شاحبا ، لا يتكلم ، ودخل الأسطى ابراهيم
مع أبيه حتى حجرة النوم ، وهو يقول ليوسف نادى على
الست . . . ويوسف لا يهتم بطلبه ، كل همه أن يتابع هذا المشهد
العجيب الذى يحدث أمامه . . . ورأى أباه يحاول أن يخلع
سكرتة ، ثم رآه ينهار مكوما على السرير ، وخيل اليه أن أباه
يداعبه ، وأنه يريد أن يتصنع السقوط لأن يوسف أطلق عليه
المسدس . . . كان المسدس فى يده وكاد أن يبتسم ، لولا أن لطم
ابراهيم وجهه بكلتا يديه ، صارخا ، وجاءت أمه وصرخت . . .
وانطلق الصراخ . . . والعيول ولطم الجميع الخدود ، ولم يعد
يرى أباه . . .

انتبه يوسف ويد تهزه بعنف ، وصوت ميرزا الفلكى يهتف :
— ألا تسمعنى . . . أقول لك ان صحتك تبدو اليوم أحسن .
نظر يوسف حوله ، فبهره ضوء الشمس ، وخفض عينيه

فراى ظلين يلاحقانهما وقال لنفسه فى ذهول : هذا ظلى . .
وهذا ظل ميرزا . . . كان ظله يتحرف أمامه الى اليمين ، وميرزا
يسير الى يمينه قدماه تطاردان ظل يوسف ، الذى حاول أن
يتحرك بسرعة خشية أن تدوس قدما ميرزا ظله ، وسأل نفسه
فى اندفاعه ، أين أنا ، ورفع رأسه ليتبين أنهما متجهان الى
أرض الكروكيه . . . ودخلا من البوابة المصنوعة من فروع
الأشجار ، وسارا فى ممشى من الحصى الملون متجهين الى
مبنى صغير عند الملعب الثانى الخالى ، وكان رجال وسيدات
يمسكون بالمطارق الخشبية يتحركون هنا وهناك وراء الكرات
الخشبية الملوثة . لم ينظر اليهم ، كاد يترنح وهو مشغول
بحركة قدمى ميرزا توشـكان فى أية لحظة أن تدهسا أن
تدهسا ظله ، وسمع ميرزا يقول له .

— نعم يا عزيزى أنا أعرف كل شيء . . . ولقد مضى على
ذلك العهد حوالى أربعين عاما . . . ولكنى أذكر الأحداث وكأنها
وقعت اليوم . . . هل تصدقنى لو قلت لك : انه لولا تصرفك
مع السيدة والدتك كوثر هانم عندما وصلتك تلك القصاصة
باسم عصابة اليد السوداء ، لما أقدمت على الزواج من عمك
لطيف هبرى .

انتفض جسد يوسف ، وقد شعر أن ميرزا الفلكى يقول له
انه ارتكب جريمة . . . وكأنه سمع صوت الحوت يقول له :
الجريمة نعم . . .

قصص يوسف منصور

سنوات عمره وهو لا يعرف من الذى كتب تلك القصاصة الملعونة وأرسلها له فى مظروف عن طريق البريد . كانت كلمات القصاصة سما ، وموقعة باسم رهيب .
عصابة اليد السوداء .

كانت الكلمات تقول « أمك تستقبل لطيف صبرى سرا فى الليل وهو يضامجها فى الفراش ، وكل الناس عرفت ، وبعضهم سأل أمك عن علاقتها الأثيمة فقالت انها تزوجت سرا زواجا عرفيا ولكنها تكذب ، فأمنع هذا الفجور الذى يدنس بيتكم وكن رجلا واغسل العار والفضيحة فى بيت منصور بك سالم ، وإذا كنت جبان عاجزا فسوف تضطر للتدخل وأعذر من أنذر » .

ارتعشت يدا يوسف فتراقصت كلمات القصاصة فى عينيه ، وبذل جهدا خارقا ليعيد قراءتها ، وقلب الورقة ، وقلب المظروف الذى كانت بداخله ، كان الكلام الملعون مكتوبا بقلم كوبييا على ورقة صغيرة مسطرة . خط كبير واضح ، خط ساقل نثن ، ثم تلك التوقيع الذى ينبىء عن عصابة اجرامية تتهدد وتتوعد وتتنذر بالشر .

وراجع يوسف ختم البريد على المظروف ، انه ختم بريد العتبة الخضراء . أى جنون هذا ، أية وضاعة ، من الذى يجسر على توجيه هذه الطعنة الغادرة اليه ؟ الأرض تميد تحت قدميه ، الدنيا تنتهى ، الحياة تنتهى ، لقد حدث ما لا يمكن أن يحدث . أهين أبوه ، أهينت كريمة شقيقته التى يجب أن يحميها ، أهينت أمه . يا الهى يمكن أن يكون هذا صحيحا ؟ ان عينيه تصطدمان بالكلمات ، ولا يصدق أنها كلمات ، ولا يصدق أنه يقظ يعيش فى الواقع . ان هذا الا كابوس ، سوف يفيق منه ، عليه أن يفتح عينيه ، يفر الهواء بشدة فيستيقظ ، ولكنه لا يحلم . وها هى الورقة بين أصابعه ، وها هى الكلمات تسرى فى رأسه وصدره وأطرافه تحدث طنينا جارفا ، والعرق يتصبب منه ، وهو لا يدري ماذا يفعل أو كيف يتصرف ، ولابد أن يتحرك من مكانه حيث يقف عند عتبة الباب الداخلى للبيت .

كان عم محمود قابله باسمها عند الباب الخارجى للحديقة ، وهو عائد من كلية الحقوق . . . كان يوما مرحا ، ما أحلى تلك الاسابيع الاولى التى تعرف فيها لأول مرة على الدراسة الجامعية . حرية دخول المحاضرات والخروج منها . لا سؤال عن المواظبة ، ولا ملاحقة من المدرسين أو من البيت كما كان يحدث فى السنة الماضية وهو يستعد لامتحان التوجيهية



.. وقلق أمه ، ومساعدات لطيف صبرى فى اللغات .. كل هذا قد انتهى .

الآن .. أصبحت رجلا يا يوسف . أنت مسئول عن نفسك وعن دراستك .. الأساتذة فى الكلية يرددون نفس الكلام . لقد بدأ ينعم بالحرية ، بدأ يتمتع باستقلال إرادته . ولقد قضى هذا الصباح يتحدث مع زميله طلعت عن مغامرته مع السكان اليهود الجدد فى عمارتهم بالجيزة ، وفى المساء سوف يذهب مع طلعت الى سينما رويال . وما هو عم محمود يفاجئه بأن خطابا باسمه قد جاء به ساعى البريد . انه أول خطاب خاص يصل اليه . ليس هذا دليلا على أنه قد كبر ، ان عم محمود يدرك تماما هذا المعنى ، فهو يسلمه الخطاب وفى نفس اللحظة يكتسب وجهه علامات تأثر واضحة فى عينيه وفى صوته .



وقد انتقل هذا التأثر الى يوسف ، ولكنه يشعر فى نفس الوقت بشيء من الزهو لان الناس خارج هذا البيت يعترفون بوجوده ، ويسلمون بأن له كيانه المستقل ويتعاملون معه مباشرة مؤكدين أنه أخذ مكان أبيه .. ولم يفعلوا مثلما تفعل المحكمة الشرعية أو المجلس الحسبى الذى يرسل الخطابات الخاصة به الى أمه الوصية عليه .

ان هذا الخطاب الذى قدمه له عم محمود هو شهادة من الناس ومن المجتمع بأنه رجل له أهميته فما أعظم هذا الشعور الذى يجتاحه ، حتى أنه أوشك أن يفض الخطاب فى الحال أمام عم محمود ، ولكنه راجع نفسه ، وقرر أن يتريث ويحتفظ بوقار تقتضيه المناسبة . انه منذ نهرته جارتهم فاطمة هانم يوم رآته جالسا على الدكة بجوار عم محمود وهو يحاول أن يحتفظ بوقاره ، وهو الآن قادر بالفعل على أن يتصرف بوقار وتؤدة . أمسك بالخطاب باذلا كل جهده ليكتم انفعاله وأسرع مبتعدا الى داخل البيت دون أن ينبس بكلمة ، أو يظهر تجاوبا مع تأثر عم محمود بالموقف الجديد الذى طرأ بوصول أول خطاب الى السيد الجديد فى هذا البيت .

ما شأن البواب بالخطابات التى تصل الى سيده . أسرار الأسياد لا يطلع عليها الخدم . كان يتذكر صورة أبيه ، بل يشعر به فى أعماقه ، كأن جسده هو ثوب جديد للأب الذى ذهب . وما كاد يصل الى الباب الداخلى حتى تلفت حوله ليظمنن الى أنه وحده ، وتجاهل أن أباه كان لا يقرأ الخطابات عند عتبة الباب ، بل يفضها فى تؤدة وهدوء وهو جالس الى مقعده بجوار المكتبة مستعينا بسكين ذهبى خاص يفتح به المظروف . انه يخشى أن يمضى الى الداخل فتري أمه الخطاب فى يده فتأخذه منه وتفضه هى وتقراه ، فيفقد متعة الانفراد بقراءة الخطاب الشخصى الموجه اليه . ويفقد متعة أن يعلن

أمه أن خطابا قد وصله • فتسأله بلهفة ممن الخطاب • وماذا به • فيتريث قليلا ، ليرقب اللهفة على وجهها ، قبل أن يدلى بالمعلومات التي يمتلكها وحده • أية متعة • أية سلطة تنعم بها وأنت تدلى بما لديك من معلومات للهوف لسماعها •

مزق طرف المظروف بعصبية ولهفة وأخرج بأصابعه القصاصة • أخرج الثعبان الذي لدغه بالكلمات السامة • وانهارت الدنيا من حوله ، ومن فوقه ومن تحته • وبقدرة ما كان مزهوا متألقا منتشيا ، بقدر ما انقض عليه فرع كبير ، زلزل كيانه ، أصابه زعر لم يعرفه من قبل • انكمش وغسله عرق بارد ، ولم ينتبه إلى ما يفعله ، حتى وجد نفسه أمام أمه ، طفل صغير يهاجمه وحش مسعور يجرى فزعا مرتعدا إلى أمه • بينه وبين صدرها شبر ، عيناه في عينيها ، يكاد يتوسل إليها أن تحتضنه وتحميه ، لولا هذه الهواجس المخيفة التي تدوى في رأسه ، أن أمه هي مصدر هذا الفرع وأن عليه أن يخشاها ويحذر ما تخبئه له من مصائب تنذر به عصابة اليد السوداء •

انه لا يدري كيف انتقل الخطاب من يده إلى يد أمه • ولا يدري كيف قرأته ، فقد مرت به لحظات ألم وعذاب عطلت حواسه ، ورفضت ذاكرته أن تعيها ، ولكنه يرى جيدا الآن لون وجه أمه وقد احتقن بدماء داكنة ، وجه شوهه الفرع ، قسماته قاسية ، وجه من الشمع ، أو من الجبس ، انها تصيح لعلها تهمس ، أذنأه تسمعان بصعوبة •

— هذا كذب •• كذب •

وهو يصيح أو لعله يهمس :

— من الذي أرسل هذا الخطاب ؟

لا بد أن تجيبه •• لا بد أنها تعرف •

وهي تردد :

— هذه مصيبة •• لا أدري •• لا أدري •

خرج صوته فحيحا مختنقا يزفر في هواء يمزق صدره •

— الناس تقول هذا عنك •• كيف •• كيف ••

الدموع في عينيه • سيبيد الناس ، سيبيدهم كلهم ، سيقضى عليهم واحدا واحدا ، سيتخلص من هذه الدنيا بأسرها • ما عادت الدنيا دنيا ، انه لا يرى ما أمامه ، لأن كل ما أمامه ، كل ما يحتمل أن تقع عليه عيناه ، لا بد أن يمحي من الوجود •

أرادت أن تحتفظ بالخطاب • لماذا • أتريد أن تلجأ إلى لطيف صبرى ، أعطيه الخطاب ليقراه ، كما أعطته من قبل كل أوراق أبيه ليقراها ، وليذهب بها إلى المحاكم والمجلس الحسبي ويتخذها ذريعة للمجىء والاختلاء بها ، بل لقد اتخذوا منه شخصا ذريعة للمقاء الفاجر • أى عار ، أى

شقاء ، اختطف الورقة من يدها ، لو امتدت يده لأطبقت على عنقها ، لفتك بها ، لم تصر على الاحتفاظ بالخطاب ، ولم يعد يطيق البقاء معها ، فتركها إلى حجرته ، أعطاها ظهره وابتعد ، لكنه ما كاد يخطو بعيدا ، حتى تمنى لو تناديه ، أن يسمع صوتها ، أن تعيده إليها ، أن تفرض عليه أمومتها أنه يتعد ليسقط في فراغ مرعب هي وحدها التي تستطيع أن تسترد له حياته ، أن تفسر له هذه المصيبة أن تقضى على هذه الورقة فتلغيها من الوجود وكأنها لم تكن .

ولم يسمع صوتها تناديه لتسترده إلى أحضانها فيدفن رأسه في صدرها وتحنو عليه ، وتمسح بيدها على شعره ، يكون قد أصبح من المحال أن يرى تلك البسمة في عينيها تتدفق بالحنان والدفء من قلبها إلى قلبه . أضاع إلى الأبد عطرها الذي يشمه في جسدها فينتشي براحة تتمدد في أوصاله ، فكأنه يتمدد في رحاب الدنيا الرحيمة بينه وبينها عمار ودفء . ولكنه يتعد ويتعد وأحشاؤه تتمزق مع كل خطوة يتعد فيها عن أمه . ووقف ذاهلا في حجرته . يده قابضة على الورقة والمظروف . الشهادة التي تسجل أنه وحيد في هذا العالم . المجتمع ينكر وجوده ، يهزأ به ، يسحقه بلا رحمة أو شفقة . أين أبوه ، أين جده ، صرخت أعمامه ، أين اختفيت يا أبي ، لقد خدعتني ، عشت حياتك تخدعتني بأوامرك وتعاليمك ألا يخرج صوت من البيت ،

ألا يطل أحد من نافذة البيت . ألا يعرف أحد ما يجري داخل البيت ، لقد خدعتني بلؤلؤتك المزيفة ، هذا البيت وهذه الجيرة ، وهذا الشارع ، وكل ما حولنا يفوح برائحة نكتة ، تكون قد اختفيت لأنك اكتشفت هذه الحقائق البشعة فلم تتحمل الأكذوبة التي صنعتها ، ولكنك قررت ، وكان يجب عليك أن تنبهني ، لا أن تتخلي عني ، وتتركني أواجه المصيبة وحدي .

ها هي زوجتك تضاجع لطيف صبرى في سريرك أمام عيون كل الناس . نقلوا حجرة نومك إلى الشارع ، كيف أخرج إلى الشارع ، كيف ألحق بطلعت في السينما . لابد أن أمي ترحب بذهابي إلى السينما ليخلو لها المكان . أترك البيت ليدخل لطيف صبرى . ترى هل تعرف كريمة ما يحدث ، هل ارتأيت في الجريمة . أهى مثل أمها تتكتم عليها . أيقول لها ثم يأخذها ويهربان من هذا البيت . يهربان إلى أين ، أنه محاصر ، وكل من يفكر في اللجوء إليه ، قد ذهب ، أنه يتذكر الآن نظرة القلق في عيني جده وهو يقول له ان سيوفه وحرابه ودروعه لا تصلح للقتال وأنها مجرد أدوات زينة معلقة على الجدران . لعله كان يحذره بطريق غير مباشر أن الدنيا تدبر له الخيانة ، وستهاجمه في عقر داره وهو بلا سلاح يدافع به عن نفسه . لابد أن يفعل شيئا يدافع عن شرفه ، لابد أن يخسم هذا الأمر ويقضى على هذا الكابوس الكئيب .

ظل يوسف حبيس حجرته لا يدري كم من الوقت قد مضى عليه ، حتى دخلت عليه أمه تسأله وكأن شيئاً لم يحدث ، إذا كان قد نسي موعد الذهاب الى السينما • انتفض مستغرباً من دعوتها له للخروج ولكنه لم يقو على الغضب أو الاحتجاج • كان يشعر بضعف مسيطر عليه ، وهمس أنه متعب • فاقتربت منه ومدت يدها تتحسس جبينه ارتجف وسمعها تقول بلا مقدمات وكأنها تستأنف حديثاً قديماً : ان أولاد الحرام في هذه الدنيا كثيرون ، وأن عليه أن يتجاهل هذا الخطاب ، فلا شيء يفسد ما يريده أولاد الحرام مثل تجاهل أفعالهم الشريرة • استسلم لها ، كان ارهاقه وعجزه يفرضان عليه هذا الاستسلام لأنها الوحيدة التي تستطيع أن تحميه من هذه الأخطار الغامضة التي تتهدده •

وانساق وراءها الى الصالة ، وجلس ومعهما كريمة يستمعون الى الراديو • هتار يستعد لاقترام خط ماجينو ، ها هو الدمار يتجمع لينتفض على العالم • ليته يحترق ويحترق الذين أرسلوا هذا الخطاب • ولكن الحرب هي التي جعلت صبرى يمد اقامته في القاهرة ، لولا الحرب لكان سفيراً الآن في مكان بعيد ، اختفى أبوه وجاء لطيف صبرى ونشبت الحرب ، هذه هي الحقائق التي عليه أن يواجهها الآن برؤية جديدة • انه يعيد فهم ما كان يدور بين أمه ولطيف صبرى ، ويعيد فهم حديث أبيه عن الاستقرار ، كان أبوه لا يهتز أمام

أحداث تجري وكأنها الحرب • انه يذكر عندما تعطلت الدراسة بسبب المظاهرات التي انتشرت في كل مكان ، وانقلبت عريات القرام في الشوارع وتحطمت فوانيس النور ، واشتعل الغاز فيها ، فأصبحت أعمدة النور مرده تقذف اللهب على جانبي شارع قصر العينى ، وسمعوا طلقات الرصاص ، وتحصدت عم محمود عن قتلى بالعشرات ينقلونهم الى قصر العينى • وإذا بأبيه قد ارتدى ملابسه وأمسك بعصاه يعلن انه ذاهب الى النادى ، راقب أمه خائفة تعترض طريق أباه • كيف تخرج والرصاص فى الشوارع ، ولكن أباه كان ممثلاً بثقة هائلة ، ملأت قلب يوسف بنشوة واعجاب •

خرج وسط الرصاص الطائش والحطام والسنة النار ثابت الجنان ، لا يخاف شيئاً • واثقا من خطواته وكلماته وأوامره • انه رجل يعرف أن الرجل يجب أن يكون رجلاً والمرأة يجب أن تكون امرأة ، والطفل طفلاً والسيد سيداً والخادم خادماً • هذه الذكريات التي علمته الثقة ، كانت تهاجمها الأم عندما تحتاج الى نقود فتقول له أو لعلها تخاطب نفسها : ان أباه كان يلعب بالمال لعباً ، وأنه كان يخسر عشرات الجنيهات فى لعب الطاولة أو على مائدة الورق وكأنه يخسر الملايم •

وكانت أمه تردد فى أسى أمام لطيف صبرى ، آه لو كان يعرف أنى ساحتاج الى النقود التي بعثرها ولكنه الآن

لا يعرف • ويؤيدها لطيف صبرى ، مهيناً لنفسه ولها مبررات الخيانة والاثم •

سوف تقضى الحرب على كل هذا ، سيدمركم هتلر • ولن تجدوا ملجأً يا ويكم وتحتمون به كما فعل جدى عندما لجأ مع الخديو توفيق الى الانجليز ، الذى خشى على نفسه من هوجة الرعاع • هتلر سوف يتولى أمر العالم ، أما يوسف فعليه أن يتولى أمر لطيف صبرى الذى أرسله شقيقه الشيخ الأكبر باسم المروءة وواجب الجيرة والشهامة فاذا به يتسلل الى البيت شعباناً ناعماً خبيثاً لا متجاة منه ومن شروره وسمومه ، الا بدق عنقه كما فعل عم محمود عندما قضى على الشعبان فى الحديقة بقبقاب انتزعه من قدمه •

وانفجر فى رأس يوسف خاطر أقلقه • أليس ما كان يتحدث عنه طلعت فى الصباح عن بنات الأسرة اليهودية جيرانهم الجدد ، وكان يستمع اليه مرحباً مشجعاً هو نفس ما يفعله لطيف صبرى الجار مع أمه •

فى الصباح كان طلعت فى ذروة حماسه وهو يروى ليوسف أخبار العائلة اليهودية التى سكنت فجأة فى شقة مهجورة من حجرتين وصالة بسطح عمارتهم فى الجيزة ، كانوا فى الاسكندرية ، ولكنهم خائفون من هتلر ، انهم فزعون قلقون • يتنبأون بأحداث رهيبية يتوقعون سقوط فرنسا بمجرد هجوم هتلر عليها •

يروون قصة غريبة أن هتلر يحرق اليهود فى أفران • يستبقون الأحداث وأسرعوا بالمجيء الى القاهرة لأنهم واثقون أن الاسكندرية ستضرب بالقنابل وسيحاول موسوليتى دخولها راكبا حصانه الأبيض • أن هتلر وموسوليتى يحاربان من أجل اباداة اليهود واستئصالهم من العالم • كان طلعت يضحك مبدئياً دهشته من الحالة الهستيرية التى انتقل بها الخواجة ليفى اسكنازى وزوجته سيدة بديعة قصيرة طيبة اسمها فورتينية ، مريضة بالقلب ، تخشى تعطل المصعد هى الوحيدة التى يبدو عليها التردد لأنها تركت بيتها فى كامب شيزار ، ويضايقها أنهم يصرون على أنها السبب الأول فى مجيئهم الى القاهرة - لأنها لن تتحمل أصوات القنابل وانفجاراتها • المهم أن للأسرة بنتين وولدا • البناتان فى منتهى الجمال ، ويبدو أنه لا مانع عند البنتين من قبول دعوة الى السينما •

قال طلعت وهو يفضى بهذه الأنباء الخطيرة ليوسف : انه سألهما أن تأتيا معه لمشاهدة فيلم بسينما رويال ، وأن له صديقاً ليخرج الأربعة « كويلين » فاعتذرتا بانشغالهما بترتيب البيت ، ولكنهما ألحتا فى تأكيد قبولهما بكل سرور الدعوة الى الخروج فى يوم آخر •

وكانت السيدة فورتينية الأم فى غاية السعادة لأن طلعت دعا البنتين ، ورحب كلود وهو أصغر من البنتين بالدعوة الموجهة لشقيقتيه ولم يبد أى اعتراض أو رغبة فى أن يكون

فى صحبة شقيقتيه لمراقبة سلوكهما • وقالت السيدة فورتيتيه
انها كانت قلقة لأن البننتين غريبتان عن القاهرة وأصدقائهما
فى الاسكندرية ، وقال الخواجة ليفى لطلعت انه يرحب به فى
بيته ولما سمعت أم طلعت هذه الحكايات المثيرة عن الجيران
الجدد ، بدا عليها القلق ، وأعلنت بوضوح أنها تخشى ألا يهتم
طلعت بالذاكرة ، ويوجه اهتمامه الى البننتين ، ولكنها فوجئت
بهما تدخلان عليها وبعد دقائق كانت تضحك معهما وتحديثهما
عن بناتها المتزوجات فلما استأنفتا فى الانصراف صممت
على أن تصعد ومعهما سلة مليئة بثمار المانجو جاء بها والده
عند عودته من العزبة فى قليوب •

هذا هو ما كان فى الصباح ، كانت الحرب مجرد فرصة
للتعرف بفاتين جميلتين وطلعت ويوسف منشغلان بهذه
الصحبة الجديدة ، طلعت يقول أنا سأختار « ألبا » الكبرى ،
وأنت لك « جابى » وعاد يوسف وهو يحلم بجابى التى لم
يرها • السيتما مع جابى اسكنازى ، الرقص فى جروبي
سليمان باشا مع جابى اسكنازى • وعند بوابة البيت أعطاه
عم محمود الخطاب الذى جعله يمتلىء نشوة وزهوا للحظات
قصار ، ثم انهارت الأحلام وفاحت رائحة الواقع النتن • ولم
تبق له من آمنيات الا الحرب ، وأن يدمر هتلر كل شىء حتى
لو كان سيحرق جابى اسكنازى ويحرق معها كل يهود العالم
بشرط أن يضيف الى هذا الحريق بقية البشر فتنتهى الدنيا
ويستريح •

لم ينم يوسف ، سهر الليل بطوله يراقب من خلف شيش
النافذة بيت لطيف صبرى والشارع بينهما وراه يعود فى
سيارته الفورد الزرقاء ، يدلف بها الى جراج البيت داخل
الحديقة • ولح شبحة وهو يختفى فذيل اليه أن لصا يتسلل
الى بيت غير بيته وفاضت به كراهية تكاد تنفجر من فمه
وشفتيه وأهداب عينيه وأنفه • لابد أن يلتقى به ويقتله • فلما
جاء الصباح لم يذهب الى كلية الحقوق • ما قيمة دراسة
المدخل الى القانون ، والقانون الرومانى والاقتصاد السياسى ،
إذا سكت على الجريمة ورضخ لها • اخترق شارع قصر
العينى واقتحم مبنى وزارة الأشغال ، واقتحم مكتب سكرتير
وكيل الوزارة ، وقال بكبرياء وحدة للسكرتير الذى يتأمله فى
فضول •

- قل للبك • • يوسف منصور يريد مقابلتك •

لم يغب عنه ملاحظة أن السكرتير يتأمله فى دهشة وحيرة
وهو يسأله :

- أيعرفك البك الوكيل ؟

قال يوسف بصلف :

- طبعا يعرفنى •

كان لهذا الصلف تأثيره على السكرتير الذى بذل محاولة
أخيرة ليعرف المزيد عن هذا الشاب الصغير الذى يريد مقابلة

وكيل الوزارة ، وكأنه واثق أن سعادة البك لن يتردد في مقابلته كزائر له أهميته ونفوذه .

— حضرتك قريب للبك ؟

قال يوسف بكبرياء ينم عن غضب يسيطر عليه :

— أنا .. ابن منصور بك سالم .. يكفي أن تذكر له اسمي .

نهض السكرتير ودخل حجرة الوكيل . وعاد ليسمح بدخول يوسف فوراً .

ابتسامة ترحيب على وجه لطيف صبرى . ضباب فى عيني يوسف ، حقد مسعور فى صدره فى يديه تمنى لو كان أطول قامته وأكبر سنًا ، تقدم من المكتب ، الدهشة على وجه لطيف صبرى وهو يرى القادم يدور حول المكتب ظن أنه مقبل عليه ليعانقه فإذا بيوسف يهجم على رقبتة بكلتا يديه يريد خنقه ، دفعه لطيف صبرى بكلتا يديه ولكن يوسف استطاع أن يتشبث برقبة الرجل الذى احتقن وجهه وقد امتلأت عيناه رعباً وارتعشت شفاهه ، يمتم بكلمات لا يسمعها يوسف ، الذى يهز الرقبة وقد انفجرت الكلمات والدموع من فمه وعينييه . ماذا تريد من أمي .. سوف أقتلك .. أياك أن تتصل بها .. هل تسمعنى .. سوف أقتلك .

لطيف صبرى يهمس بصوت رقيق ، اهدأ .. اهدأ يا يوسف .. اهدأ .. نحن فى الوزارة .. أنت رجل .. لا تتهور ..

اهدأ .. اللهم أخزيك يا شيطان .. ماذا تريد ؟! .. تريد قتلى .. هكذا ببساطة .. هل تظن أن كل شيء مباح .. لا شرطة ولا سجون . كانت يدا يوسف تتراخيان ، عجز عن اتمام ما شرع فيه هد الانفعال واليكساء قواه . بينما تزايدت قوى لطيف صبرى ، وارتسم الغضب على وجهه . وانطلق يهدد . ولكنه هدأ فجأة وقال : أتريد قتلى .. تفضل .. ماذا أقول لك .. أنت ابني .. صاح يوسف .. لا لست ابنك .. أنا ابن منصور سالم .. أعرف .. أعرف يا يوسف .. أرجوك اهدأ .. دعنى أفهم .. لا يمكن أن تكون قد جنت .. ألقى يوسف بالورقة فى وجهه .. أمسك بها ، وقراها فاكفهر وجهه ، وقذف بالورقة بعيداً وارتقى على مقعده .. وسار خطوتين .. ثم عاد ودق جرساً .. وهو ينظر الى الباب فى هلع .

وظهر السكرتير عند الباب ، وصاح به قبل أن يدخل خطوة واحدة .. أن يغلق الباب ولا يدع أحدا يدخل تحت أى ظرف . وقف السكرتير مبهوتاً ، حتى نهره لطيف صبرى أن يذهب . فأغلق الباب . وتنهَّد لطيف صبرى وجلس على مقعد أمام مكتبه . وأشار ليوسف أن يجلس أمامه طالبا منه أن يتفضل بالجلوس .. أنا لا ألومك يا يوسف .. ولكنى أعود والومك لأنك نسيت من أنا .. نسيت من هو أبى .. ومن هو أخى .. بل نسيت من هى السيدة الفاضلة والدتك .. ما تفعله هو

اتهام لا تقبله أنت ولا يقبله أى مخلوق يحترم نفسه •• تدفق الكلام وتآلق لطيف صبرى ، ووجد يوسف نفسه يريد أن يسمع المزيد والمزيد ، لعله يطمئن ، لعله ينجو من الكارثة ، يطرد شبح الفضيحة •• ينقذ شرف أمه • ينقذ والده •• ينقذ نفسه • تدفق الكلام ليتأرجح يوسف بين راحة يتمناها ، وريبة فى أنه يغرق فى دوامة من الخداع الناعم •• ويسمع لطيف صبرى يقول له فى النهاية : الهانم والدتك سيدة عظيمة شريفة وكل صلة بينى وبينها أو بينكم هى صلة خادم يخدمكم •

ثم عاد لطيف صبرى يبحث عن الورقة التى قذف بها وقرأها بعناية وراجع المظروف وأختام البريد ، وسكت برهة قبل أن يقدم على تحليل الموقف الذى أدى الى وصول هذه الرسالة المشؤومة الى يوسف • السنة الناس • الخدم • الجيران • انه يتعرض لامتحان رهيب واذا كان لا يصدقه • اذا كان يرتاب فى أمره فما عليه الا أن يذهب الى أخيه الشيخ عبد السلام • انه ليس شقيقى فقط يا يوسف انه أيضا أبى اذهب اليه ومعك هذا الخطاب واسأله رأيه •

كان الشيخ عبد السلام هو الذى طلب يوسف ، واستقبله وهو راقد فى فراشه • وقال ليوسف انه انتظره اياما فلما لم يحضر وجد انه لا مقر من أن يطلبه وفوجئ يوسف بالشيخ يقول له بلا مقدمات :

— الزواج ليس عيبا يا بنى •• وهذه الورقة اللعينة التى

تهددنا بالفضيحة • سفرد عليها بورقة حلال ، ورقة شريفة ، تصون كرامتكم وكرامتنا •

ولقد جاعتنى أمك وتكلمنا فى كل ما أقوله لك الآن • وهى تعرف أنى أقابلك الآن لأبلغك به •

لحقت به الهزيمة • هاجم الأعداء القلعة أطلقوا المدافع وصوبوا النيران وأسقطوا قنابلهم الناسفة والحارقة واقتحموا الأسوار واستولوا على أمه وبيته • المرأة هى المخلوق الذى لا تنطق فيه أبدا حتى لو كان أمك ، الدين هو الأحكام الظالمة والفتاوى التى تسمح للغير أن يغتال بيتك •

لو عاش أبوه • لو عاش جده • لو استقرت الحياة كما كانت ، لو لم يسرق الأعمام • لو لم تكتب يد نجسة تلك القصاصة مهددة بالفضيحة • ولكن كل شيء فقد استقراره ، والذين كانوا يحافظون عليه ذهبوا وتخلوا عن كل شيء ولم يبق له الا أن يفرح بأحزان أمه ، يقدم لها هدية زواجها كل عام برسويه فى الامتحان ، ويشقى غليله برؤية الحزن والالم والدموع فى عينيها ، والحيرة والارتباك ، فى أحوال لطيف صبرى الذى أصبح زوجا لأمه •

لولا رقعة صغيرة من الشعر في مقدمة رأسه ، له عينان
ضيقتان وحاجبان مقوسان ، تقدم محنى الرأس يطوح بيديه
كأنهما مجدافان في قارب ، ووقف الرجل أمامهما وقال بصوت
بليد يغالبه النعاس :

— أفندم •

فأمره ميرزا أن يطلب لهما كويين من الليمون ، فنظر إليهما
التتري نظرة لم يسترح لها
يوسف • لا يدرى إذا كانت تدل
على بلاهة الرجل أو مكره ،
استسلامه أو تحديه • • وذهب
التتري • • بينما مد ميرزا يده
عبر المنضدة وقرص يد يوسف
قائلا وقد فاضت الشقاوة من
عينيه :

— سيطول كلامنا •

قال يوسف في احتجاج أقرب
إلى التوسل :

— بشرط ألا أتأخر عن
اللواء الحوت •

فاعتدل ميرزا في جلسته



صاح ميرزا الفلكي

وهو يقرص يوسف في ذراعه :

— لست معي يا أستاذ ؟

فهمس يوسف مرتبكا :

— بالعكس • • أنا معك بكل جوارحي • • لأنى أنتظر منك
أن تكشف السر الذى أفسد حياتى •
ابتسم ميرزا ولمعت عيناه وقال :
— اجلس أولا • • وأجبني على سؤالي :

جلسا عند آخر منضده بالقرب من المبنى الصغير بجوار
ملعب الكروكيه الأخير • • كان الملعب خاليا ، بينما انتشر في
الملعبين الآخرين رجال ونساء أعطاهم يوسف ظهره ، وأعاد
ميرزا سؤاله •

— ليمون أم قهوة ؟

همس يوسف :

— أى شيء •

فنادى ميرزا وقد اتجه برأسه إلى المبنى على رجل اسمه
قلاوون • فبرز من باب المبنى رجل تتري الملامح رأسه ملساء

ثم تقدم برأسه متكئا بذراعيه على المنضدة ، وحذر يوسف من الانفجار .. هل هذا معقول يا أستاذ ، تعتمد على رجل شرطة لتواجه مسئولية الشرطة عن القبض على ابنك .. انت كمن يريد أن ينقذ نفسه من النار بالقاء نفسه في النار .. ليس هذا هو الأسلوب الذى تتحرك به .. أنت لست قوة .. حتى تصارع من هم أقوى منك آلاف المرات .. أبوك نفسه .. بل جدك .. كان يعرف أن زمانه قد فات ، أفق يا أستاذ .. قدر لقدمك قبل الخطو موضعها .. هل تريد أن تذهب مع الصوت لتأخذ حقه .. من أنت .. ما المصالح الضخمة التى تمثلها .. هل تظن أن وراءك قبيلة أو أسرة حاكمة أو شركة دولية .. أو جهازا من أجهزة السلطة .. لو كان بإمكان انسان بمفرده أن يحصل على حقه فى هذه الدنيا .. ما كنت أبقي هنا لحظة واحدة .

لم يسترح يوسف لما يسمعه ، تامل قبل أن يقاطع ميرزا محاولا تأكيد عزمه على المضي فيما انتواه .

— لم يعد هناك ما يدعو الى إعادة النظر فى أمر عودتى مع الحوت .. لا بد أن أبذل كل شيء لأنقذ ابنى من السجن .. ولقد أصبح هذا أمرا محتما بعد أن عرفت ما عرفت من الحوت .

قال ميرزا معترضاً .

— افعل ما تريد .. ولكنى أدعوك للتريث .

قال يوسف محاولا التخلص مما يعتقد أنه جدل عقيم .
— أرجوك أن تخبرنى بما تعرفه عن عصابة اليد السوداء .. من هم .. ولماذا تقول انى كنت السبب فى زواج أمى .

ابتسم ميرزا ابتسامة غريبة وقال :

— اهدأ أولا .. واشرب الليمون .

قال يوسف مغالبا ضيقة بالانتظار .

— لا أستطيع أن أهدأ .

فاتسعت ابتسامة ميرزا وزادت غرابة وهو يقول :

— لا تفقد أعصابك .. ولا تتعجل الأمور يا عزيزى .. فإنا

واثق أن ما ستسمعه منى سيجعلك تعيد التفكير فى كل شيء .

صاح يوسف :

— صدقنى .. ليس لدى وقت أضيعه .

فتحداه ميرزا قائلاً فى حسم :

— الوقت الذى تتعرف فيه على نفسك .. ليس وقتاً ضائعاً

كل ما أطلبه منك .. هو بعض الوقت تشرب فيه الليمون ..

وتروق فيه أعصابك .. وتتكلم كما يتكلم الناس المتحضرون

.. ومع ذلك .. ها هو الليمون قد أقبل .

ورأى يوسف الرجل الأسبوى ذا الوجه الصينى ، يحمل

الليمون على صينية .. وانحنى ووضع أمامهما الليمون ،

وانصرف . فأمسك ميرزا بكوبه وقال :

اشرب واحداً .. واستمع لما سأرويهِ لك .. لترى حقيقة
الوضع الذى انتهينا اليه .

عرف ميرزا الفلكى أبو يوسف فى مدرسة فيكتوريا
بالاسكندرية .. كانت البداية تحدياً سافراً بين الاثنين ..
ميرزا فلاح ابن فلاح . ينظر الى منصور سالم على أنه من
نسل ذلك الجنس غير المعروف ، الذى يعيش كأنه من طينة
أخرى غير طينة بقية البشر فى مصر ، يتحكم فى الناس وكأنهم
عبيده ، يتعامل معهم وهو واثق أن السلطة فى يديه ، والامارة
له ، والكون مصنوع من أجله .

ذهب ميرزا الى فيكتوريا لأن أباه صمم على أن يتصدى
ما لحقه من ظلم .. كان قد ورث أرضاً فى البحيرة ، وقالوا
له : ان بعض هذه الأرض عليها مشاكل ورهونات ، ودخل
المحكمة المختلطة فى الاسكندرية ، وسمعهم يتكلمون بالفرنجى
.. كان القاضى انجليزياً .. لم يفهم شيئاً مما قاله القاضى أو
قاله محامى البنك العقارى أو المحامى الذى اختاره ليدافع عن
حقه ، جلس وهو صاحب الأرض يشهد معركة يسعى فيها
الخصوم الى انتزاع أرضه ، وهو عاجز عن أن يفتح فمه
بكلمة ، لا يفهم شيئاً على الإطلاق ، الشيء الوحيد الذى أفهموه
له وهو خارج من قاعة الجلسة أن الحكم قد صدر ضده ، وأن
الأرض لم تعد أرضه .

من يومها صمم الحاج الفلكى أن يسلح أولاده بتعليمهم

اللغات والانجليزية والفرنسية بالذات .. وخرج ميرزا من
قريته فى البحيرة الى الاسكندرية أول مدينة كبيرة يدخلها فى
حياته .. عالم مسحور جديد ، عالم مخيف ، عليه أن يقتحمه
لينتزع منه أسرار السلطة التى تمكن الانسان من المحافظة
على أملاكه .

وقال الأب لميرزا ابنه ، استعد لمواجهة أولاد فى المدرسة
سيحاولون السخرية منك ، ولكن لا تخف ولا تضعف أمامهم ،
ستجد من يقول لك ان أبوه فلان باشا وعمه ترقان باشا ..
ولسوف يسألك ومن يكون أباك .. قل له .. أنا أعرف شجرة
أجدادى .. أباً عن جد .. الى الجد العشرين .. فهل تعرف
أنت أجدادك ، هل تعرف جدك ، وسيحتار الولد ابن الباشا ..
لأنه من نسل بزميط .. نسل مماليك وعبيد وعساكر من
الأناضول وخدم التركمان .. أنت أعرق منهم .. قل لمن
يسخر منك .. ما يدرينى أن جدك حرامى أو قاطع طريق ،
صعلوك من صماليك الترك جاء خادماً فى السراى .. ان
هؤلاء الذين يملكون السلطة ليسوا أكثر من مظاهر ونفخة
كداية .. وحدث الذى توقعه الحاج الفلكى .

وكان أول صدام خاضه التلميذ ميرزا الفلكى مع التلميذ
منصور سالم الذى سخر من لهجة ميرزا ومن طريقته فى
الكلام ، وطريقته فى تناول الطعام . ومن ملابسه ومن
ملامحه، وقال منصور لميرزا باستعلاء: انه يعجب كيف سمحوا

له بدخول المدرسة • فقال له ميرزا : أنا أعرف آبائي وأجدادى ، أما أنت فهل تعرف اسم جدك ؟ فاندesh منصور وقال بعجرفة انه ابن يوسف باشا • فالح ميرزا أن يخبره باسم جده والد يوسف باشا • واحتار منصور وارتيك • كان لا يعرف اسم جده ، أو لعله اكتشف أنه ليس باشا وليس صاحب شأن يذكر يستطيع أن يتفاخر به فأثر الصمت وارتيك •

وامتلاً ميرزا بالثقة وبالاعتزاز بأبيه الذى توقع المعركة واستعد لها وحصن ابنه بالأسلحة التى يقاوم بها الاعتداء عليه • ولكن لم يمض عام حتى أصبح ميرزا ومنصور صديقين ، جمعتهم المذاكرة • والشجاعة التى امتلأ بها ميرزا بعد يوم عصيب رأى فيه أباه وهو يدخل مع عمقين لميرزا فناء المدرسة ، وكانتا ترتديان اللبس الرقيق • قال الحاج : تعمدت يا ولدى أن أحضرهما بملابسهما خشية أن تضيع جهودك وتشئت أفكارك بالكذب على تلاميذ المدرسة ، أنت فلاح وأبوك فلاح ، وعماتك وأمك فلاحات ، ولا مهرب لك من هذا • فنحن أسياد البلد • والأرض ستكون لنا ، ولا معنى لتعليمك هذا التعليم إلا للمحافظة على أرضنا وأموالنا وأقدارنا فى بلدنا •

هذا هو ما يجب أن تعرفه ، ويجب أن يعرفه الجميع هنا ، حتى لا تنقاد لأغراء المظاهر التى يخدعون الناس بها ، وهم فى رأى المخدوعون • لن يصمدوا طويلاً أمامنا وسيأتى يوم

قريب يعرفون فيه من هو صاحب الكلمة فى هذا البلد ، كانت الكلمات تقذف من الأب ، بينما ميرزا مذهول من منظر العمتين فى فناء فيكتوريا ، يتمنى لو انشقت الأرض وبلعته ، ولكن الفأس وقعت فى الرأس وما عاد له من مهرب • الشئ الغريب حقا أن رد الفعل لزيارة الأب والعمتين كان على غير مايتوقع ، كانت نظرات الفضول فى العيون هى الغالبة بين التلاميذ ، خاصة بين أولاد الخواجات الذين اهتموا بالسؤال عن حياة الفلاحين وملابسهم وطريقة حياتهم ، وذهب ميرزا الى بيت منصور فى محرم بك بعد ذلك اليوم العصيب بأيام ، وهناك اعترف له منصور أنه سأل أباه عن جده ، فنظر يوسف باشا الى سيف معلق على حائط وقال له : هذا هو جدك • ولم يزد على ذلك سوى أنه ذهب مع مركب غرقت فى قاع البحر فى معركة نافارين •

ومضت سنوات الدراسة وميرزا يتفوق ، لأنه يعرف الهدف من دراسته ، ولأن التحديات التى تواجهه واضحة ، أما منصور فكان لا يعنيه إلا الخلاص من محنة الدراسة ليعيش حياته ، وسافر منصور الى اكسفورد ، وسافر ميرزا الى باريس • وعاد منصور قبل أن يتم دراسته، ولكن من الممكن أن تقول انه حصل فى بلاد الانجليز على شهادة جفتمان ، يتردد على النادى ، ويحرص على تناول الشاي فى الساعة الخامسة عصر كل يوم •

وكان مهتما بأناقته ، يفصل ملابسه في لندن ، ويقتني العربات الخاصة ، ولولا أن كوثر هانم رفضت بشدة دخول الكلاب بيتها ، لاقتني عددا من الكلاب . أما ميرزا فعاد من باريس ومعه شهادة الاقتصاد السياسي ، والتحق بوظيفة في بنك مصر ، والتقى بمنصور وعرف منه أن سعيد باشا حقي رئيس الوزراء قد ألحقه بوظيفة سكرتير خاص له . وكان سعيد باشا صديقا ليوسف باشا ، والد منصور وقد اشترى معا قطعة أرض كبيرة في جاردن سيتي ، هي امتداد لأماك الأمير « ف » ومجاورة لقصره ، وأقاما بيتين متجاورين ، وكان يوسف باشا يريد تزويج ابنه منصور من إحدى قريبات سعيد باشا ، ولكن أمينة هانم كانت ذات دهاء شديد ، شخصيتها قوية ، وهي ابنة تاجر كبير في رشيد أرادت أن تدعم نفسها بزواج ابنتها من إحدى قريباتها ، ومال منصور لاختيار أمه .

وهكذا تزوج كوثر هانم وانتصرت زوجة يوسف باشا الرشيدية . وقال منصور لميرزا وهو يذكره بأول لقاء بينهما في فيكتوريا أنه يعرف جدود أمه إلى الجد الخامس والعشرين ، وأن جدودها من المغرب ، فيسخر ميرزا منه ويداعبه قائلا : « مغربي كداب يشوف البخت ويفتح الكتاب » .

ولم يتحمل منصور الوظيفة ، فلما ترك سعيد باشا الوزارة ، رفض أن يبحث عن عمل ونصحه ميرزا أن يذهب ويعمل في أرض أبيه ، ولكنه كان لا يهتم بالزراعة ولا بالفلاحة ، كل

ما يهمله الدخل الذي يحصل عليه من أبيه . ولكن جاء وقت باح فيه منصور لميرزا بندمه لأنه لم يكمل تعليمه ، وكان يوسف باشا قد دخل مرحلة الشيخوخة ، وترك كل مسؤولياته لأولاده أشقاء منصور من أم غير أمينة هانم . وبدأ يلقى متاعب في التفاهم معهم .

وكان منصور يعرف جاره لطيف صبرى ، ولكن الصداقة قامت بينهما عن طريق ميرزا الذي قضى سنوات الدراسة في باريس مع لطيف . وتعود الثلاثة الالتقاء في النادي عندما يعود لطيف من الخارج في أجازة من عمله بالسلك الدبلوماسي . وأصبحوا شلة لها مغامراتها ، وكان لهم صديق في النادي اسمه خورشيد بك من رجال زمان ، رجل أسطورة يستحيل أن يوجد رجل مثله في هذه الأيام . كان من الأعيان ، ومن كبار الأثرياء ويهتم بالشعر والأدب والفلسفة ، وكان معجبا بشوقي إلى حد التقديس ، ولا يقبل اسم حافظ ولا العقاد ، ويقول هؤلاء الذين ينقدون شوقي مخرفون يتناولون على سيدهم ، وكان منصور مولعا بمشاكسة خورشيد بك ، ويسخر من حديثه الذي يردد فيه كلمات ضخمة فخمة مثل الأزل والجوهر والكينونة ويقول له ان هذا الكلام لا معنى له فيتجاهله خورشيد بك ويسال ميرزا :

— فاهم يا فلكى .

فيقول ميرزا وهو يغمز بعينه لمنصور :

• طبعاً يا خورشيد بك .
فبيتهج خورشيد بك ويلتفت لمنصور ويقول له :
• أما أنت فلن تفهم أبدا .
ثم يردد فى أسى :

• عرفت الكثير وقرأت الكثير •• ولكن ما الفائدة من تعب العقل والجسد •• لا أحد يريد أن يفهم أو يستفيد •
ويلوح خورشيد بك بمقبض منشته ويقول :
• المهم •• هو الاتصال •• الاتصال بالحق •
فيسخر منصور قائلاً :

• المهم يا خورشيد بك هو الاتصال بالمندوب السامى ••
الاتصال بالسراى •• الاتصال بينك باركليز •• هذا هو الكلام المفيد •

و ذات يوم دعا خورشيد بك ، الأصدقاء الثلاثة ميرزا ومنصور ولطيف الى رحلة بحرية فى يخت يملكه اسمه « خورشيد الأول » وكان ميرزا ومنصور قد ذهبا الى الاسكندرية لاستقبال لطيف قادما فى أجازته السنوية على ظهر المركب « مارسيليا » ، ولما شق اليخت طريقه الى عرض البحر ، فوجىء ميرزا ولطيف بمنصور مقبلا عليهما وقد غلبه انفعال كبير بدل هيئته ، وقال لهما : ان فى صدر المركب مدفعا • وجذبهما ليريا المدفع • وجعل يدور حوله ويتحسس ، ويسأل اذا كان مدفعا حقيقيا أو هو مدفع للزينة ، وأصر على أن يذهب

الى خورشيد بك ويسأله ، وكم كانت دهشتهم بعد أن أكد خورشيد أنه مدفع حقيقى ، من تصميم منصور على اطلاق المدفع ، لماذا يا منصور ، ما الحكمة فى ذلك ؟ ولكن منصور رفض المناقشة ، وبلغ به التصميم مداه ، كما لو كان قد جن جنونه •

وزاد تأزم الموقف أن خورشيد بك قال متباهيا : ان لديه قذائف قديمة ليثبت أن المدفع ليس مجرد زينة ، وماكانت هناك قوة تستطيع منع منصور من اطلاق قذيفة وتجربة المدفع • وفعلا جاء البحارة بقذيفة ووضعوها فى المدفع وأطلقوه ، ووقعت الكارثة ، اهتز المركب اهتزازا شديدا ، وعلا الموج على جانبيه ، وكأن يدا هائلة قذفت باليخت فى الهواء ، ووقعوا جميعا على الأرض ، حتى خورشيد بك ، وانفلت المدفع من مكانه بعد أن تحطمت السلاسل الحديدية التى تربطه بسطح المركب ، وانحدر بقوة وسرعة مخيفة كوحش ضار ، وكاد يرتطم بالصارى ويقتلعه ، لولا أنه انصرف وجرف الحاجز الخشبى بقوة وهوى معه الى قاع البحر •

قال يوسف باشا عندما سمع بالحادث ، ان ابنه منصور يريد أن يقلد جده الذى هوى الى قاع البحر فى معركة نافارين ، ولكنه أحمق ان يجهل شروط اطلاق المدافع فى المراكب والاحتياطات الواجبة فى مثل هذه الظروف • اما الحاج الفلكى فقد علق على الحادث ، أنه جنون وأن هؤلاء

الذوات يبددون حياتهم وأموالهم في الكلام الفارغ، وتساعل كم يبلغ ثمن المدفع ، وما هذا السفه والخرق الذي أصاب هؤلاء القوم .

كان ميرزا حريصا على الأرض ، حريصا على تخليص قريته من ديون البنك العقاري أو السماسرة ، وكان قد أعد نفسه منذ سنوات ، هو وأولاده ، لاسترداد أية أرض يضعف مالها ويوشك أن يفرط فيها ، كان يشتري الأرض من

هذا المالك ويضمها الى أملاكه كان مصمما على أن ينتقم من ذلك الموقف المهين الذي وقفه في المحكمة المختلطة ، يسمع خواجهات يتحدثون بلغة لا يفهمها عن مصالحة ، ثم يقولون له انهم استولوا على أرضه ، انه الآن يستزيد من أملاكه ، وهو مستعد لان يواجه الخواجهات ويواجه الذوات الذين استولوا على الأرض بسلطة السيف والانتقام الى رجال الحرب والسراى ، أولئك العسكريين والعبيد والأغوات والممالك



الذين ينتمون الى نسل « بزرميطة » انه قادر على التحدى وعلى المحافظة على أملاكه ومصالحه ، كان يركب فرسه ليفتش على العزب البعيدة ، ويركب البغل ليفتش على الأرض القريبة ، يخرج من داره التي يضم صحنها أتوال النسيج ويثر الماء وكور الحدادة ، ويفتش على الأرض ويمشى عليها بقدميه قائلا: ان أقدام صاحب الأرض هي أخصب سماد لها . يعمل من صلاة الفجر الى ما بعد شروق الشمس ، ويطمئن الى بدء العمل ، ويلقى تعليماته ، ثم يعود ليتناول طعام افطاره، وينتهي لاستقبال زواره . كانت أرضه تنمو وتتسع ، وأرض يوسف باشا تتكمش يثور حولها نزاع الأولاد الذين ترك لهم الأب مسئولية ادارتها، فتركوا المسئولية لمن ينهبونهم من الفلاحين .

وجاء اليوم الذي لا ينساه ميرزا ، ثاى يوم العيد الكبير وقد عاد من قريته والتقى بأصدقائه فى النادى .

كان منصور مرحا ، ولكن ميرزا كان يعلم أنه يخفى أحزانه وقلقه بهذا المرح ، فهو لم يسافر أول أيام العيد الى الاسكندرية حتى لا يلتقى بأشقائه من أبيه . وهو يتوقع أن تتعقد المشكل ويريد أن يعلم أباه باحتجاجة ، يريد أن يفجر الأزمة التي تفرض على الأب الكهل أن يتدخل ويحسم الأمور ، فلا يحتاج منصور الى أن يتصل بأحد ليحصل على أمواله التي خصصها له الأب . وخيل لميرزا أن منصور قد أرق نفسه بالتظاهر بالمرح ، وأنه يريد الانصراف المبكر ليخلو الى أحزانه

وهمومه ، ودعه على أن يلتقيا في المساء ، وهو لا يعلم أنه يودعه الوداع الأخير . وتابع ميرزا أخبار أسرة منصور من صديقه جار الأسرة لطيف صبرى ، ومضت سنوات ، حتى جاء يوم اتصل به لطيف صبرى من الوزارة وطلب حضوره لأمر هام ، كان لطيف مضطربا ، وقال له عندما دخل على مكتبه :

— خذ واقرأ ..

وأعطاه خطابا قرأه ، فذهل ولم يفهم شيئا ، وروى له لطيف ما حدث من يوسف في الصباح ، كان الموقف خطيرا ، يوسف ولد صغير . تدل تصرفاته على طيشه ، وتذكر ميرزا وجه منصور والد يوسف يوم تصميمه على إطلاق المدفع على ظهر يخت خورشيد الأول . تذكر الطيش والتهور والاندفاع هل ورث الولد من أبيه هذا الميل الى العنف الذى كشفه حادث المدفع — سأل لطيف ، كيف تخلص من يوسف ، قال له : هو الذى خرج من مكتبه فجأة . وقال : انه غير مطمئن الى ما قد يقدم عليه من تصرفات جنونية أخرى .

وسأل ميرزا صديقه . من الذى كتب هذه الورقة وأرسلها . قال لطيف فى ألم :

— وهل هناك أحد غيرها ؟

كانت امرأة تريد أن تتزوج لطيف صبرى ، عرضت عليه الزواج ، هى التى طلبته لنفسها ، وسأله ميرزا :

— هل أنت واثق ؟ لا بد أن نتأكد أولا :

وبدا الارتباك على لطيف .

فقال له ميرزا :

— سأذهب وأقابلها .

وذهب ميرزا الى بيتها . قابلته وفتحت الموضوع مباشرة . فهى تعرف مدى صداقته بلطيف صبرى . وكثيرا ما دعتهما الى الغداء أو العشاء فى بيتها . قالت له :

— هل عرفت ما فعله صاحبك .

وانطلقت تتهم لطيف بما جاء فى الخطاب . وأيقن ميرزا أنها التى دبرت كل شيء . وانزعج مما اكتشفه . فالمرأة واسعة الثراء . مجذونة لن تتورع عن شيء . تعودت على أن تنال ما تريد ، لن توقفها أخلاق أو تقاليد ، أما أن يتزوجها لطيف صبرى ، أو تهد الدنيا غير مكترثة بلطيف ولا بشقيقه الشيخ الأكبر .

وعاد ميرزا الى لطيف صبرى ، وقال له :

— انها هى .

وتداولوا فى الأمر ، وانتهيا الى ضرورة أخذ مشورة الشيخ عبد السلام . لا بد أن يعرف الشيخ الجليل أن اسم عائلته تتهدده الفضيحة .

مرض الشيخ وهو يسمع ما سمعه ، ولكنه كان شجاعا وله

نظرة غير عادية للأمور • قال ان الأمر لا يخصنا وحدنا ، انه
يمس جارة كريمة لنا ، وعلينا واجب حمايتها ودفع الأذى
عنها ، ولا بد أن تعرف كل شيء • ومن التي أرسلت الخطاب ،
والتصرف الذي أقدم عليه ابنها • ولا بد أن تشاركنا في الرأي •

وطلب الشيخ والدتك ، فذهبت اليه وقال لها كل شيء •
قالت له بعد أن هدأت وما العمل ؟ •
قال لها الشيخ بلا مقدمات :
- وما رأيك في الزواج ؟

فانزعجت ، ولكن الشيخ عبد السلام كان قد فكر في الأمر
مليا ، وهو يعرف بالمشاكل المالية التي تعرضت لها لذهاب
زوجها منصور قبل والده واستيلاء أشقائه من الأب على
معظم أملاكه ، ثم هو يرى السنة الفضيحة توشك أن تسرى
كالنار في الهشيم ، في الحى وفي كل مكان تستطيع أن تصل
اليه تلك المرأة المسعورة ، وهي قادرة على أن تبلغ صوتها
الى أماكن كثيرة ، وسوف تستغل يوسف وتثيره بخطابات
ووشايات قد تؤدي به الى الجنون أو الجريمة •

وقال الشيخ لكوثر هانم :

- لو أردت أن نواجه الكذب والسنة السوء فنحن لها ولكنى
أرى فيما حدث إشارة لنا أن ترتبط العائلتان برباط حلال •
استمعت كوثر هانم واجفة ملتاعة لكلام الشيخ حتى قال
لها :

- أعلم أنك تفكرين في ابنك •• وما قد يقوله لم تم هذا
الزواج •• فقد يظن أن ما جاء في ذلك الخطاب الخسيس الذي
وصله صحيح •• ولكنى سأطلبه وأخبره بما قلته لك ••
سأصارحه وسأحدثه حديث الرجل للرجل ••
وطلبت كوثر هانم مهلة للتفكير ، وقبل أن تعيد الاتصال
بالشيخ ، ناداك يا يوسف ، وحدثك في أمر زواج والدتك فلم
تعترض •• لم ترفض • لم تقل أبدا للشيخ ولا لوالدتك أنك
لاتوافق على الزواج ، ولما علمت كوثر هانم من الشيخ بموقفك
هذا تشجعت وقبلت الزواج •

همس يوسف وقد خرج صوته من أغوار بعيدة :
ولكن من هى تلك المرأة ؟
قاطعته ميرزا :

- تقصد التى كتبت الخطاب •
وتهلل وجهه قائلاً :

- اذا أردت أن تراها فاتبعنى •
ونهمض ميرزا قائلاً :

- هيا •• فلا بد أن تنهى لهذا اللقاء •

يوسف : يوسف

بإصرار ميرزا الفلكي على أن يجذبه الى ملعب الكروكيه رافضا كل محاولات يوسف للتخلص من هذا المأزق .. وكانت حجة ميرزا أن يوسف أمامه فرصة لا تعوض عليه أن يستغلها ، بل هو مصر على ألا يهدر هذه الفرصة .. لأنه واثق أنها ستفيد ابن صديقه سواء أراد البقاء . أو صمم على العودة الى القاهرة مع اللواء الحوت .

واحترار يوسف ، هل يشتبك مع الرجل ، يلجأ الى العنف فيدفعه متخلصا من قبضته التي تضغط على ذراعه ، ولكن مثل هذا التصرف من الصعب أن يقدم عليه مع رجل يقول له انه صديق والده ، وأنه يتصح به بما كان سيفعله سالم منصور لو كان موجودا معهما في هذا المكان .

كان ميرزا يفرض على يوسف أن يستعيد عبقريته ، يسترجع علاقة الصغير بالكبير ، الابن بالاب ، وكانت لهجته أمره واثقة، تحمل معاني غامضة ، فهو يقول ليوسف: ان لقاءه بتلك المرأة التي أرسلت له قصاصة عصاية اليد السوداء لن يتم الا اذا لعب معه الكروكيه .. وظن يوسف أن الرجل يسخر

منه ، بل أيقن من هذا ، فقال لميرزا : انه لا يصبر على لقاء هذه المرأة ، أما لعبة الكروكيه فربما يتعلمها عندما يعود بعد قيامه بمهمته في القاهرة .

وردد ميرزا بصوت ساخر :

.. تعود .. تعود .. ولكنك لا تستطيع أن تعود ..

سأله يوسف في دهشة ..
لماذا ؟

قال ميرزا :

.. عودتك يا عزيزي تفسد هذا المشروع السياحي من أساسه ..

وأفاض ميرزا في شرح استحالة عودة من يخرج من هذا المكان .. لما

سيقترب على السماح بالتردد عليه أكثر من مرة من ازعاج شديد للجميع ، النزلاء والمؤسسة السياحية معا .. فالذي يعود سيأتي معه بأخبار



جديدة عن عائلات النزلاء وأولادهم ومصالحهم التي تركوها طلبا للهدوء والراحة ، فماذا يكون الموقف ؟

ان هذه الأخبار سوف تقلق النزلاء وتفسد راحتهم وتشغلهم عن ألعابهم وتعيد اليهم هموم الحياة ومشاكلها . . . سيفقد هذا المكان هدوءه . . . ولابد أن يحاول حامل هذه الأخبار استغلالها في السيطرة على النزلاء . . . يبيعهم أخبارهم ومتى بدأت النفوس تميل الى سماع الأخبار الجديدة لابد من صحف واذاعة وتليفزيون . . . ثم لابد من سلطة ومحاكم وشرطة . . . لأن الصراعات سوف تنشب بين النزلاء وستجتاحهم انفعالات من الصعب التنبؤ بنتائجها ، فيفسد تماما الهدف السياحي الكبير الذي قامت لتحقيقه مؤسسة د . س . لا أمل لك يا عزيزي يوسف منصور في أن تعود مرة ثانية الى هنا . . . ان احتمالات ذهابك الى القاهرة قد تتحقق . . . أما رجوعك اليها فهذا أمر مستحيل ، ولهذا أقول : ان هذه هي فرصتك الأخيرة لتتعلم اللعبة فلا ترفضها ، ولن اسمح لنفسى أن أتركك تهدر ما أتصوره أعظم فرص حياتك . . . استمع اليه يوسف وهو يقارن بين الحاحه ، وبين محاولة كريم شاكر ، وهو يترافع بأسلوب المحامي ليقنعه بالانضمام الى لعبة الدومينو .

فبينما ترك كريم شاكر ليوسف أن يفكر في الأمر . . . كان ميرزا يجذبه من يده الى صالة في المبنى الصغير الملحق

بالملاعب ، ويدس في يده مطرقة خشبية أحضرها الرجل القترى قلاوون . ويأمره أن يخلع حذاءه ذا الكعب حتى لا يتلف أرض الملعب ، وأحضر له حذاء خفيفا بلا كعب وارغمه على أن يفتعله .

فلما اطمأن ميرزا الى استتلام يوسف ، أو خيل اليه أنه استسلم ، طلب منه أن يذهب وراء ستارة في نهاية القاعة ويتبول ليخلص جسده من أى شيء قد يضايقه أثناء اللعب . . . ووقف الاثنان جنباً الى جنب يتبولان ، وقد أغمض ميرزا عينيه وارتمت عضلات وجهه ، ثم وقف ميرزا أمام مرآة وتأمل وجهه ، وثبت غطاء الفرو على رأسه ، وخرجا الى الملعب وقد أمسك كل واحد منهما مطرقة . . .

سأل يوسف نفسه . . . الى متى يستمر هذا التورط الذى لا مبرر له ؟ وخطر له أن يلقي بالمطرقة ويجرى هارباً ، بينما انشغل ميرزا يشرح قواعد اللعبة وقد تألق وجهه ولمعت عيناه ، وكان القترى قد دحرج أمامهما أربع كرات خشبية ملونة ، وطلب ميرزا من يوسف أن يلعب بالكرتين الزرقاء والسوداء واختار هو الكرتين الحمراء والصفراء . . . وارتفع صوته يشرح طريقة ضرب الكرة بالمطرقة لتمرق من الهدف الذى هو حلقة حديدية صغيرة مثبتة فى الأرض ، أو ليضرب الكرة بالمطرقة لتطيح بكرة الخصم التى تهدد بالنفان من الهدف . . . كان حديثه جادا مقعما بالحماس عن

ضرورة التركيز ، الأمر يا عزيزي يحتاج الى استخدام العقل قبل استخدام العضلات .. أحصر تفكيرك في الاتجاه الذي ستصوب اليه المطرقة والموضع الذي ستضرب فيه الكرة .. لا تنظر الى الهدف أثناء ضرب الكرة .. لا ترفع رأسك .. لا تفكر في أى شيء .. أكنم أنفاسك حتى لا يهتز شيء في جسدك .. لا أمل لك في أن تجيد اصابة الهدف اذا نظرت اليه .. لا أمل لك في الوصول اليه قبل أن تسيطر على نفسك بأن تتخلص من أية هواجس أو انفعالات ..

ورغم هذا الالاحاح في طلب التركيز ، كان ميرزا يتوقف بين وقت وآخر عن اللعب ويتنهد ، ثم يقول ليوسف انه لا يصدق أنه اعتزم فعلا الرجوع الى القاهرة ، ما الذي يسعى اليه ، فيحاول يوسف أن يذكره بمأساة ابنه ، فيهن ميرزا رأسه منكرا ما يسمعه ، ما فائدة أن يعود الى ولده الذي رفض الاعتراف بأبوته ؟ في زماننا كنا نسمع عن آباء لا تعترف بالأبناء أما في هذا الزمان فالأبناء هم الذين يتنكرون للآباء ..

كان يتحدث ساخرا من هذه العودة ، فهي في رأيه حماسة لا معنى لها ، ولسوف يواجهه ابنه بجحود مروع .. فالولد لم يعد هو نفس الولد الذي كان ابنه ..

ولقد جرب هو العودة بعد أن ترك مصر ليعارض عبد الناصر الذي استولى على الأرض التي يملكها أبوه .. كانت صحف العالم واذاعته ترحب بهذه المعارضة وتنشرها

على الملأ ، فلما ذهب عبد الناصر عاد الى مصر ليسترد حقوقه ، فاكتشف أن الدنيا تغيرت ، الأعيان أمثال أبيه اختفوا .. أنواع أخرى من البشر هي التي تحيا الآن ، لا صلة لها بأبيه ولا بالعالم الذي جاء منه يوسف أو والده أو جده ، الولد الجربوع عبد العزيز الفلكي ابن أحقر فرد ينسب الى عائلة الفلكي ، كان أبوه لا يستطيع أن يقترب من دارنا ، أبوه شحات وأمه شحاتة ، هذا الجربوع خرج من مصر كما خرجت أنا .. وعاد اليها كما عدت أنا ..

ميرزا الفلكي ابن سيد العائلة حارب في الخارج وتحمل النفي والتشريد ، وعاد ليسترد حقوقه ، وعبد العزيز الفلكي حثالة العائلة ذهب الى بلد فيه بترول وحبس نفسه في حجرة مع عشرة من أمثاله يأكلون النفايات ويجمعون المال .. ثم عاد ليستولى على أملاكنا .. جاء ليشتري دار أبي في أرضنا بالبحيرة .. عرض على أن يدفع عشرة آلاف في دار لا تساوي خمسة ولا ثلاثة .. معه مال مقدس في زكايب ، وهو ليس في حاجة الى دار تهدمت في الريف ، شعرت أنني أمام دودة سميئة شرهة ، دودة منتصرة .. تريد أن تنهشنا حتى النخاع ، تنهش بياض عيوننا وسوادها ، تريد أن ترفع علم انتصارها وتجعل من استيلائها على دار أبي راية لهذا الانتصار ..

سألت نفسي ما الذي يريده هذا الولد الجربوع ؟ فوجدت

أنه يريد أن يملك ما كان يملكه أبى .. يريد أن يمحو ذكريات
الدار التى كان لا يجرؤ أبوه على الاقتراب منها ، ليجلس هو
فى نفس هذه الدار ..

وعدت أسأل نفسى أهذا هو ما حاربت من أجله ؟ أين
المعركة التى خضتها ؟ أين أبى ؟ أين هيبته ؟ أين وقاره
.. ما الذى بقى من دارنا وزوارها ؟ لم أجد أحدا .. لم
أجد سوى الأطلال .. وابن الشحات الذى يريد أن يشتريها
ليعلن أنه الفلكى الجديد .. أمثاله يتكاثرون ، يخرجون من
الشقوق ، من تحت الأرصفة ، من طين الأرض ..

أما أولادنا فلا أمل لهم فى مواجهة هذا الزحف .. لقد
خدعناهم .. قلنا لهم انهم أولاد الأسياد .. قلنا لهم تعلموا
اللغات الأجنبية .. عودناهم على السينما ، والمسارح ،
وحياة النوادى .. ولكنهم يشعرون بالضيق أمام الزحف
الذى يفرض عليهم القراجع والفرار والهجرة .. انهم
يواجهون عالما من نوع آخر لا صلة لهم به .. هل أروى لك
ما حدث لخادمى فرج .. عدت من الخارج فجاءنى بيكى
مصييته .. أتدرى ما هى مصييته ؟ علم ابنه بالمجان
فأصبح مدرسا وسافر وعاد تاجرا .. وحرم على والده أن
يخدم فى بيوت الناس ، لأنه تزوج ولا يريد أن يعرف أهل
زوجته أنه ابن خادم .. قلت له : عظيم يا فرج .. مبروك
يا فرج ، أن لك أن تستريح ..

ولكن فرج بيكى لأن ابنه الذى حرم عليه أن يعمل
لا يعطيه أبيض ولا أسود .. ابن فرج تحول إلى دودة شرهة
.. تلتهم وتلتهم ولا يهمها ما تلتهمه حتى لو كان جسد أبيه ..
هذه الديدان تلتهم الماضى ولن تبقى عليه .. انظر الى بيتكم فى
جاردن سيقى من الذى اشتراه ، ومن الذى شيد تلك العمارة
الكبيرة ، أليس يائعا سريحا كان يسير بالأمشاط والفلايات ،
هل قابلت الذى اشترى بيت جدك فى محرم بك ؟ أنا قابلته ..
يملك ملايين الجنيهات ولا يعرف القراءة ولا الكتابة .. كل
المعلمين فى خدمته ، يدخل أى بنك ، ينتقل الى أى مكان
وراءه حاشية من المحامين والمهندسين والمحاسبين ..
بالإضافة الى عشرات الفتوات والبلطجية والحشاكيل ..
أسياد المستقبل يا عزيزى .. بينما يهاجر أولادنا ، ونهرب
ما تبقى من أموالنا الى بنوك سويسرا ..

اختلفت كلمات ميرزا عن ذكرياته ، بتعاليمه فى فن اللعب
.. اقترب يا عزيزى من الكرة بعد أن تبتعد عنها لتحدد
الاتجاه بخطواتك نحوها .. امسك بالمطرقة كالسيف ..
لا تقبض عليها يا عزيزى بيد متشنجة .. ولا تقبض عليها
بطراوة .. مزيج من الثبات واللين .. هذا كلام يجب أن
يفهمه بسهولة حفيد يوسف باشا منصور الرجل الذى يعتبر
السيف هو حسبه ونسبه .. كان لهذه الكلمات الأخيرة وقعا
غريبا فى نفس يوسف ، رأى فى خياله السيوف المعلقة على
الجدران ، ورأى نفسه صغيرا فى حجرة جده يتشب على قدميه

محاو لا الامساك بسيف ، وشعر في نفس الوقت بانقباض ،
كانت لهجة ميرزا قاسية ساخرة ، ربما كان فيها تشفى
أو تحد ، كأن الرجل يتلاعب به ، أو يدبر له أمرا في الخفاء ،
وبلغ الشعور بأنه محاصر ذروته حتى لم يعد يطيق ما يشعر
به ، فأمض عيذه وضرب كرتة السوداء بالمطرقة وفتح عيذه
ليراها تمرق من الهدف وميرزا يصيح :

— عظيم .. عظيم .. عظيم ..
ولكن يوسف لم يعد قادرا على تحمل المزيد ، لا اطراء ،
ولا تعليمات ولا ذكريات .. أصابه فزع من نفسه فتوقف
مكانه وقال لميرزا :

— يكفى هذا .. لابد أن أنصرف الآن ..
قال ميرزا بلهجة ريبة كلها تحد :
— ماذا يا ابن منصور سالم .. هل أنت عنيد مثل والدك ؟
همس يوسف :
— لابد أن أذهب ..
فاقترب منه ميرزا والمطرقة تتأرجح في يده . وأمسك بكتفه
وهزه في غضب قائلا :
— لا تكن مغفلا مثل أبيك ..
ارتاع يوسف لهذا الهجوم المفاجيء .. وقال محتدا :
— لا أسمع لك ..
فقاطعه ميرزا :

— لا تسمح لى بأن أقول رأيى فى أبىك .. ان ما بينى وبينه
من صداقة يسمح لى أن أسبه وأشتمه .. لقد سمع منى أكثر
من هذا ..

قال يوسف منفملا :

— ولكنه أبى ..

فهتف ميرزا بلهجة قاسية :

— ليقه لم يكن .. هو السبب فى نكبتك .. هو الذى شجع
فاطمة هاتم شريف على أن تفقد حياءها .. وتسعى وراء
الرجال .. لولاه لما فكرت فى لطيف صبرى .. الذى رفضها
فانتقمت منه واستخدمتك لاثارة الفضيحة فكتبت لك خطاب
العصاية السوداء ..

استمع اليه يوسف ذاهلا .. كانت الكلمات تتطاير من
حوله خفافيش فى كابوس .. كان أشد ما يفرعه هذه القسوة
التي تخرج مع كلمات ميرزا .. شعر بالحرمان من الحنان
.. الدنيا ليس فيها حنان ولا عطف ولا حب .. أو ذلك الشيء
الذى قد لا يكون حنانا ولا عطفًا .. ولا حبا .. ولكنه فى
حاجة ملحة اليه .. لو يجد هذا الشيء فى نظرة أو كلمة ..
أو يجده عند أى انسان .. أى انسان .. أى انسان ..
يلعطف معه .. حتى لو كذبا .. انسان يقدم له انسانيته
لا أنانيته .. حتى لو كان تصنعا .. أين هذا الشيء .. لماذا
لم تجده يا مغفل .. لماذا لم تعثر عليه فى لحظة ؟ .. كانت
تساوى كل ما مر بك يا كلب ..

كان ميرزا يقول له :
- يجب أن تواجه الحقيقة .. المشاكل التي عانيت منها ،
ورثتها لأنها كانت موجودة من قبل أن تسمع بكلمة مشاكل ..

قال يوسف بصوت ضعيف متعب :

- لماذا قلت لي .. ؟

صاح ميرزا مقاطعا :

- حتى تفسق من أوهامك .. حتى تعرف أن كوثر هانم
تحملت الكثير من أجل المحافظة على بيتكم ..
قال يوسف محاولا التخلص من هذا الكابوس الذي
يخنقه :

- على أية حال .. لابد أن أنصرف ..

قال ميرزا في الحاح مقتحم :

- مازلت بعد كل هذا مصرا على أن تدعى لنفسك القدرة
على تحقيق العدالة .. لست أنت الذي يستطيع أن يصنع
شيئا .. ما ستفعله هو أن تقحم نفسك فيما أنت عاجز عنه .

نظر إليه يوسف نظرة طويلة سكب فيها شعورا بالكراهية
للرجل وكلماته وقال :

- لماذا تكوهني .. لماذا تكره أبي .. ؟

قال ميرزا ساخرا وابتسامة تشق وجهه :

- هذا كلام فارغ يا عزيزي .. أنت لا تريد أن تفهم ..

تماما مثل أبك .. هو وأمثاله كانوا السبب في ضياعنا ..
تعاملوا مع الحياة بخفة .. يذروا في سبفه .. لم يراعوا
حرمة ولا تقاليد .. اكتفوا بالمظاهر .. ونحن لم نكرهمم ..
بالعكس حاولنا مساعدتهم .. تحملنا أوزارهم .. نكبنا
بسببهم .. وفقدنا أملاكنا ثم فقدنا هيبتنا وسلطاننا .. لأنهم
وضعونا معكم ومع فاروق في مركب غارقة واحدة ..

قال يوسف غاضبا :

- لا أريد أن أسمع المزيد .. ولا يهمني أن أفهمك ..
يكفيني أن الحوت ينتظر .. وهو فرح بعودتنا .. يستعد
للمواجهة وللاتصال بالمحامين والصحف .. وأعضاء
البرلمان ..

صاح ميرزا بكل قسوة :

- وهل ستتصل بأولاد الدكتور أبو الفضل وزوجته ..
لقد فقدوا رجلهم بسبب خناجر نفذت في صدره كان أحدها
خنجرا من يد ابنك .. أنت أبو القاتل .. وهم أبناء القاتل ..
كلاكما يتفرج على المأساة .. ولا تدركون شيئا عن أبعادها .

صاح يوسف :

- كفى .. لن أسمح لأحد أن يظلمني ..

وسمع يوسف صوتا يقول له بالفرنسية :

- أنت أيضا مظلوم ..

التفت فرأى كوستا يقترب .. معلنا سروره بأن يراه يلعب
الكروكيه ..

وقال ميرزا :

- ولكنه يريد أن يتركنا يا كوستا ؟ ..

قال كوستا .. ساخرا :

- آه .. ما زلت تحلم ..

قال ميرزا بسخرية أشد :

- يريد أن يعود لينقذ ابنه من ظلم وقع عليه ..

قال كوستا :

- كلكم هنا تتحدثون عن الظلم الذي وقع عليكم .. لم
أسمع أحدا يقول انه ظلم الآخرين .. الحوت مظلوم ..
وآدم ريشفسكى البليونير مظلوم .. وأنت يا ميرزا مظلوم ..
وها هو صديقنا يوسف منصور مظلوم .. هذا مدهش ..
كلكم مظلومون .. ولا أحد منكم ظلم ..

قال ميرزا مقهقها :

- أنا لا أشكو الآن ..

فالتفت كوستا الى يوسف وسأله ..

أسمح لي بأن أسألك بصراحة ؟ ..

قال يوسف :

- تفضل ..

قال كوستا :

- أرجو ألا تضايقك صراحتي ؟ ..

قال يوسف :

- الصراحة لا تضايق أحد ..

قال كوستا :

- هذا ما أرجوه .. لذلك أسألك ألم ترتكب ذنبا في
حياتك .. ؟

قال يوسف في دهشة ..

- ماذا تعنى .. ؟

قال كوستا في عصبية :

- أنت لا تفهمنى .. أم لا تريد أن تفهمنى ؟ ..

قاطعه يوسف :

- بل أفهمك ..

فسأله كوستا :

- أعنى ألم تسرق .. ؟

ثم أردف قائلا :

- أنا سرقت ..

وعاد يسأله ..

- ألم تزن .. ؟

وأردف قائلا :

- أنا زنيت ..

قال يوسف مرتبكا :

— لماذا تسألني ؟

قال كوستا :

— ولماذا لا تجيب على أسئلتى ؟ أنا أعرف الآن على الأقل أنك كذاب ..

هتف يوسف منفعلا :

— ماذا تقول ؟

قال كوستا بعصبية :

— أقول لك .. أنت كذاب .. لأنك قلت أنك مسستعد لأن تجيب على أسئلتى بصراحة .. ثم تهربت من الاجابة ..

قال يوسف مرتبكا :

— أريد أن أفهم غرضك ؟

قال كوستا :

— أجب على أسئلتى .. هذا كل ما اعنيه .. ألم تهتك عرضا .. ألم تمارس شذوذا جنسيا .. أنا فعلت في الحرب .. عندما انتقلنا من صقلية .. الى انزيو .. ثم دخلنا روما .. هناك في قصر في « فيا آبيا » كنت راقدا على اريكة .. وشعرت بيد تتحسسنى في الظلام ..

وضحك كوستا وقال ليوسف :

— لماذا يحمر وجهك .. لماذا يخجل الانسان من افعاله .. لماذا ترتبك .. هذا شيء فظيع ..

قال يوسف :

— لأنه فعلا شيء فظيع ..

فقال كوستا :

— لا أمل لك في الخلاص من هنا .. أو في الخلاص من أى شيء إذا لم تواجه نفسك .. وتعترف بجرائمك .. الحياة ليست قناعا نتستر به ..

قال يوسف بحدّة :

— لن أضيع وقتا أكثر من هذا .. أنا عائد الى بلدى ..

قال كوستا باستخفاف :

— وأنا ذاهب الى صاحبك .. آن الألوان لتصوير الفيلم .. ولسوف أختار أجمل وضع في أجمل لقطة .. ثم أطلب منها .. أن تخفينى في مكان بالصحراء .. يقولون ان لها بيتا مخصوصا .. أو استراحة خاصة .. ساعيش هناك أقصى وقتى أتفرج على أعظم انجاز بشرى قام به انسان .. ما رأيك في أن تنضم الينا في هذا المكان الذى اكتشفته ؟

وجم يوسف .. فسأله كوستا فجأة :

— ما الظلم الذى وقع على ابنك ..

قال يوسف :

— حكم عليه بالسجن ..

فسأله ..

— كم ولدا لديك ؟

أجاب يوسف :

— انه الوحيد •

قال كوستا في دهشة :

— هذا ريب •• نادرا ما يحدث في بلادكم ••

وبدا عليه استغراق في التفكير قبل أن يسأل •

— وكيف كنت تمنع الحمل ؟ •

سأل يوسف في ضيق ••

— ماذا تعنى •• ؟

فهتف كوستا ••

— حتى هذا لا تريد الإجابة عليه •• انى أعنى الوسيلة

التي لجأتها اليها لمنع الحمل ••

صمت يوسف •• فواصل كوستا أسئلته ••

— أعنى من الذى اتخذ الاحتياطات •• أنت •• أم

زوجتك ••

قال يوسف وكأن قوى القاهرة أجبرته على النطق :

— أنا ••

فسأله كوستا ••

— وكان هذا يضايك •• ؟

اجاب يوسف ••

أحيانا ••

فعاود كوستا سؤاله ••

— ولماذا لم ترفض •• ؟

أجاب يوسف :

— لأنها كانت تخشى استخدام وسائل منع الحمل •• تخشى
مخاطر الحبوب •• الأمراض الخبيثة •• أعنى السرطان ••

فصاح كوستا :

— وأنت •• ألا تخشى أن تهدر مئات الآلاف من الحيوانات
تتسابق ليأخذ أقواها حظه من الحياة ••

قال يوسف في عصبية :

— وماذا تفعل بالحياة ••

قال كوستا باهتمام :

— تكبر •• تتحول الى ذكور واثاث •• تتدفق منها
الحيوانات •• وهكذا •• وهكذا ••

فقهقه ميرزا •• وضحك يوسف بالرغم منه •• واستدار
فجأة منصرفا •• ولم يلتفت وراءه وهو يسمع ميرزا يخاطبه

أو يخاطب كوستا قائلا :

— كلاكما مجنون أحمق •• والشئ الوحيد الذى افتقده

•• هو وجودكما هنا كلاعبى كروكيه ••

الافتتاحية

اسئلة كوسسقا ، وكلماته عن ارتكاب الشر والظلم ، وألا أمل في الخلاص الا بالاعتراف بالجريمة .
 أياكون خلاص الانسان في ارتكاب الشر ؟ أهذا هو الطريق الوحيد لراحة الانسان ؟ يرتكب ما يرتكبه .
 يأثم ويفسق ويفجر ويتورط ليحصل بعد هذا على راحة العفو والمغفرة والتوبة ؟ أياكون الاعتراف بالعجز والذل والمهانة .
 هو المسلك الوعر الدامي الذي يهتدى به الانسان ؟
 لقد ارتكب الشر . انه لن ينكر هذا الآن وهو في طريقه الى قاعة الدومينو حيث ينتظره اللواء الحوت ، ارتكب الشر بكل المقاييس التي لا تقبلها أحكام ولا أخلاق المجتمع ولا نصوص قوانين الدولة . ارتكب الشر بالفعل وارتكبه بعقله وخياله .
 لم يصل ولم يصم ولم يحج ولم يزك . ولكنه وجد السماحة في عيني الشيخ عبد السلام ، حتى قضت على هذه السماحة نظرات ابنه الشرسة . كم امرأة تشهد انه ارتكب معها ما ارتكبه ؟ بعضهن يشهدن باكيات لأنهن طمعن في الزواج ، وبعضهن حانقات لأنه تخلص منهن قبل أن يتخلصن منه .
 دفع الرشاوى ليضمن وصول أعماله الى استديو التصوير . سرق مصلحة الضرائب وهنا نفسه بقدرته على خداعها .

سرق كتباً من مكتبة الشيخ ، سرق أربطة عنق وجوارب من لطيف صبرى . اختلس نقوداً من أمه . حقد على أمه .
 شعر في لحظة وهو ثمل مع مراد حسنين انه قد يكون بينهما متعة شاذة . أحلامه وخیالاته طرقت كل أبواب الفسق والدعارة والفجور . أهذا هو ما يجب عليه أن ينبش فيه ويواجهه . لقد حرمة القيود التي تربى عليها أن ينبش هذه الافعال .

قرضت عليه أن يسترها . ان يتجاهلها . انها تقاليد الأب المحافظ الذي فرض عليه الأدب والكبرياء . هذا الأب الذي يقول ميرزا انه كان بلا أدب ولا حياء . لماذا حبسوه وهو صغير داخل الحصن الغبي ذى الجدران السمكية ، حصن التظاهر بالأدب والوقار .

زينب هي أول من واجهته . أحبته وكرهته . ثم نسيت وأسسقطته من حياتها . أرادت يوماً ما أن يكون كل شيء في حياتها . كانت ترى فيه عالمها الوحيد . ليس لها عالم غيره . أرهقته . لأن من يختار عالمه يسعى دائماً الى تغييره . كانت

تريد أن تعيش حياة البيت والاولاد وظهر الطعام . وكانت تريد اكثر من هذا . كانت تريده هو . تريد أن يعطيها مثلما تعطيه . ولكنه ظل سرا مغلقا عليها !



عندما تقدم مع مراد حسنين للزواج منها • سألوه عن أهله • سأله أبو زينب معاون مستشفى الرمد بشبرا • لماذا لم يحضر أهله معه • قال له : ان مراد حسنين هو أهلى • ورفض فى عناد أن يخبره بشيء عن أبيه أو جده • وكان لا يهتم فى ذلك الوقت أن يرفضه الأب • لولا أن حسنين أخبر الرجل بحقيقة عائلة يوسف ، فانبهر ، ولكن زينب كانت تخفى قلقها من تجاهل عائلة زوجها لها • وعندما علمت من يوسف أنه حر وليس فى حاجة الى موافقة أحد ، لم ترحبها كلماته • ربما خفت من قلقها ، ولكن التحدى والتحفظ لازما • وظهر منذ البداية عندما قال لها وهو يثرثر بغير احتياط : انه يتمنى لو أن تكون له حجرة نوم مستقلة • قالها ببساطة ، لتثور وتبدى دهشتها التى تحولت الى غضب جامح ، حجرة نوم وحدك ، لماذا تزوجتك • الغريب انها فى تلك الأيام كانت لا تهتم بالجنس ، كانت لا تمتحنه • لا تتحداه ، كانت ترضى ، وكان جسدها حنونا ، يتقبله بترحاب ، ولكن الأيام تمر ، وهو يبتعد ويبعد عن الحب كما تفهمه زينب وكما تريد له أن يفهمه • ولم يدرك أنه يعانى من الشعور بالعزلة ، ولم يدرك أنها اكتشفت غريته عنها قبل أن يكتشف هو غريته ، ولم يدرك أنها سوف تتأمل حياتها • ثم تتأمل الحياة كلها • فرى فيها غيره • ترى الذين يبحثون عن المال ، والذين يبحثون عن الجاه ، والذين يتمسكون بالمنصب ، والذين يسعون الى السلطة • والذين يتباهون بثقافتهم • ولم يدرك أنها تعيش

معه بذلك التحدى والتحفظ لعائلته • لأمه التى لم ترها • لزوج أمه • لشيخ الأزهر شقيق زوج أمه • لجده يوسف باشا • كانت الأسماء والسلطة والنقوذ فى عائلته يدفعونها دفعا الى الحذر والترقب ثم الى الاتهام • كم تملك ؟ لماذا لم تكمل تعليمك ؟ لماذا لا يساعدونك ؟ لم يعد هناك شيء تستطيع أن تقبله أو تفتنح به • رفضت الواقع الذى يربطها به • كان حياته الماضية التى تجهلها زينب أو سمعت بها ولم تتعرف عليها ، تلوث هذا الواقع وتدينه • ثم هى ترفض الواقع • لأنها لو قبلته فستتورط فيه ، وستقبله الى نهاية حياتها • ستقبل هذه الغربة التى فرضها بينه وبين أهله • ثم فرضها عليها •

انها ترفض الواقع لتحفظ ببقايا يوسف كما توهمته فى أيامها الأولى • ترفض لتصون ذكرى علاقة قديمة • ذكرى وهم قديم ظننت يوما أنه حب حقيقى وزواج حقيقى •

انه يفهم الان ما كانت تعنيه • • ومع ذلك فهو لا يريد أن يواجهها ويصارحها حتى لا تلومه أو تعاقبه أو تنصحه • لا يريد أن يضطر الى الاعتراف بما فى أعماقه • ماذا يقول لها • أيقول أنه من نسل أب خدعه بتقاليد لا صلة لها بالحياة • خدعه بتاريخ انقضى ؟ أيقول لها أنه من أم تخلت عن حياة أبيه وهربت منها ، واكتشفت الخدعة • فصنعت لها حياة جديدة • فى كنف لطيف صبرى • وتبرأت منه ومن أبيه

ومن كل ما يمثله من تاريخ وتقاليد وأسلوب في الحياة ؟

انه يدرك الآن أن هزيمته قد تمت وعجزه قد تحقق منذ ذلك اليوم الذي قرأ فيه قصاصة عصاية اليد السوداء . ولقد جاءت الضربة من عالم أبيه . عالم فاطمة هانم شريف التي كانت على علاقة بأبيه . تلك المرأة التي لوحت له بعصا أهداها لها أبوه ، وطلبت منه أن يتصرف كوالده ، مظاهر ، شـكليات ، وكانت أمه تعلم بالعلاقة . وتخفيها وترضى بالمظاهر والشكليات . كل ما قالته له أن أباه هو الذي أعطى العصا الابنوس التي تشبه عصاه لفاطمة هانم . كأنها لا تحمل في نفسها ضغينة ولا ألماً ، كان ذلك الرجل الذي يتظاهر بالوقار ، زوجها وأبوه . . . وقور فعلاً ، لا يرضى بفتح النوافذ ، ولا يرضى بسماع الجيران لهمسة في البيت ، بيتنا اللؤلؤة ، لقد أعطى أبوه عصاته لفاطمة هانم كما لو كان يعطيها رجواته . . . يستطيع أن يسخر الآن من كريم شاكر لأنه يثبت غليونه منتصباً في فمه . . . ويروي للنزلاء أنه قرأ عن فرويد أن هذا مظهر لادعاء الفحولة يلجأ إليه الرجل الذي يشعر بعجزه ؟

ان عصا والده التي أهداها لفاطمة هانم ، لأنها طلبتها منه كما قالت له أمه ، ينطبق عليها نفس الشيء . الأجدر به أن يسخر من والده . أو يسخر من نفسه . لا مبرر له لأن يضيق بمحاولات كريم شاكر لإظهار نفسه بمظهر المسيطر صاحب

الكلمة . كان يسخر منه ويرى في تصرفه سذاجة أو حماقة من رجل مدع .

ولكن ها هو أبوه أكثر ادعاء وحماقة وسذاجة . هو الذي أفسد الحي . هو الذي أطلق الشر من عقاله في شخص فاطمة هانم . فسعت الى تدمير لطيف صبرى وتدمير أمه ، عالم يحارب بعضه بعضاً ، يأكل بعضه بعضاً ، قضوا على أنفسهم ، زينب لا تعرف شيئاً عن هذا العالم . وهو لن يروى لها عن هزائمه وفضائحه . لن يعترف أمامها . انها الملجأ الذي هرب اليه من الهزيمة . لجأ اليها محتفظاً بالسر . بالخفية . حصن نفسه وراء الكلمات كل ما يعنيه أن يرد عليها بكلمة . تتدفق عواطفها . فتتدفق كلماته . كل همه أن يكسب العلاقة بالكلام . أن يتفوق بما يقوله ، هذا أهم عنده من أن يتورط في العلاقة فيعري أعماقه ويفضح نفسه ، فترى الهزيمة ، والرغبة في الانتقام ، والتحدى العاجز ، ترى الفشل وكيف ينتشى به لأنه يفجع أمه ويكيها . . . ومع ذلك كان يملك العواطف ، وكان يحب زينب ، ولكن عواطفه كانت لا تجرؤ على الظهور الا وهو بعيد عنها ، أو يوشك أن يسافر مبتعداً عنها . أنه يذكر رحلته في قارب بخارى في بحيرة « بايكال » بين الصين وسيبيريا ، كان مع وفد للكتاب ، عندما جاءت لحظة لم يتوقعها وهو يشاهد واحدة من أجمل بحيرات العالم وأكبرها . اختفت من أمامه المياه ، وقمم الجبال ومروجها وهضابها الخضراء ، واختفت الأشجار

العالية ، والسماء الصافية • اختفى الوفد والمرافقون والقارب
الذى يجلس فيه ، ولم يعد يرى بين دموع رقيقة في عينيه غير
زينب وهى تضحك تقول له : أريدك •• أريد أن أمتلكك ••
كانت عواطفها جارفة تغمره بدفء وبهجة ، وكانت مرحلة
جادة ، وكان مرحا جادا ، قال لها : أظنني أنى قطعة أرض
أو بضاعة •• هتفت فى حماس : بل عبد أملكه أفعل به
ما أشاء ، قال لها : أمن حقا أن تقتليني • قالت : أقتلك
وأشرب من دمك •• وهجمت عليه تقبله •• كم يحبها • كيف
ترك تلك اللحظات تفلت منه • جبال العالم ووديانه وبحاره
لا تساوى أن يغمض عينيه فيعود الى أحضانها فى هذه
اللحظة •• ذهب الى حجرته فى الفندق وكتب لها خطاب
غرام •• أحبك •• أحبك بجنون •• أحبك بطفولة ، أحبك
بحماقة وهبالة •• أحبك بكل ما فى أعماقى من عجز وضعف
لا خلاص لى منه بغيرك •• أنت كل نساء الأرض ••
وأنا عبدك المطيع •• عندما عاد اتهمته زينب سساخرة أن
عواطفه لا تظهر الا اذا غاب عنها •

قالت له : أن عواطفه رشوة • نوع من اطالة عذابها ، حتى
لا يترك لها فرصة لتقطع الشك الذى يعذبها باليقين الأليم •
قالت تقحدها : انه لا يعرف كيف يحب ، وعليه أن يعترف أنه
لا يحبها • صرخت • الشك يعذبني وأنا لا أعرف ما الذى تريد
أن تفعله بى • اتريد أن تطيل حبل الأمل ليلتف ويخنقنى بخيبة
الأمل • قال لها مدافعا عن نفسه : أقسم لك انى صادق فى كل

حرف كتبه فى الخطاب • هتفت سساخرة : كلمات تكتبها •
فطلب منها الخطاب • أراد أن يعيد قراءته، فرفضت • سألها
خائفا اذا كانت قد مزقته • فصمتت واجمة • ثم قالت وهى
تقاوم انفعالها غير راضية باعترافها ، انها تحتفظ به ، ولكنها
لن تسمح له بأن يقرأه •

كان يدرك أنه لا يستطيع أن يعبر عن عواطفه تعبيراً مقنعا •
انه يحاول ، ولكن المحاولة تبدو كما لو كان يقدم مشهدا يؤلفه
فى سيناريو •• كيف يعبر هذه الهوة التى تفصل بين روح
وروح •• تقف حاجزا بين أعماق نفسه وأعماق نفسها • كيف
يحطم الحواجز التى تحيط به • كيف يعيد الاتصال بالحبل
السرى الذى يربطه عاطفيا بحبيته أو أمه • انه محاصر
بالفراغ الذى تعود عليه • فراغ لم يدخله صديق ولا حبيب •
حتى صداقته بمراد حسنين قد توطدت ، أو استمرت لأن مراد
سافر وابتعد ولأنه أصبح شخصا آخر يعيش فى عالم آخر ،
ولا يلقاه الا فى فترات متباعدة • لولا مراد لما كان الزواج ،
هو الذى اكتشف له زينب نوع مريم • هو الذى شجعه على أن
يتقدم للزواج • نصيحتى لك يا يوسف ان تفعل مثلى • انا
وانت وزينب ومريم • فنضمن صداقتنا طوال العمر •
الزوجات يفرقن بين الاصدقاء •• ستكون قريبا لى ، وأكون
قريبا منك • كان يوسف فى حاجة الى الصداقة ، وكان فى حاجة
الى قرابة جديدة • عندما وقع حادث السيارة ، ونهبت مريم
بكى كما لم يبك أباه أو جده • وتشبث بزينب لانها كل ما بقى

له •• كل أمله في الصداقة والأهل • في التعرف على الحياة •
وكان مراد يقول له : هذا الزواج هو بداية الطريق •

أنت وزينب معا ستتغلبان على كل أحزائك ، ستتخطرك أن
تكمل تعليمك • ستدفعك الى جمع ثروة فوق ثروة أعمامك •
كانت كلمات مراد تستحثه ، وتملأه بالحماس والطموح •
ولكن مجرد التفكير في خطوة عملية ليشروع في اتمام تعليمه ،
كتسجيل اسمه في الكلية كانت تفجر في عماقه كل نوازع
الغضب والحقد والشعور بالمهانة • مراد حسنين هو الذي لم
يأس • ظل يبحث عن مخرج لصديقه ، فلما وجده مهتما
بقراءة ملفات التحقيقات ، يأخذ بعضها خلصة الى البيت
ليقرأها • شجعه على أن يصنع منها قصصا • كانت تحقيقات
مدارس البنات هي المفضلة لديه لأنها مليئة بقصص مثيرة يتهلف
على قراءتها • بنات هربن من الداخلية مع شبان صغار •
شكاوى صحيحة أو كيدية ضد مدرسات متهمات بسلوك مريب
مع رجال • مشاكل وشجار بين مشرفات الداخلية والبنات ••

كان يقول لمراد : أنه يقرأ ليتسلى وليتفرج على أسوأ
الناس ، فقال له : لماذا لا تصنع منها شيئا مفيدا ؟ تذكر كلمات
مراد بعد أن تركه وسافر • فسقط في فراغ مخيف لم يخلص
منه حتى وهو يحتضن زينب • كان ما بينه وبين زينب من
همسات ولهات وضحكات حادة ، أو دعاية جارحة أو مرح
شديد • ينتهي الى مخاوف تتناوب تطل عليه من أعماقه • تهدده

أنه يوشك أن يخرج من حصنه الذي يحتوى به ، فيفضح
نفسه ، ويكشف تلك الاغوار المظلمة داخله ، بما فيها من
احساس بالغربة وعدم الاطمئنان الى الآخرين • انه لا يجد
الراحة في غريته ووحده ، ويتمنى أن يخلص من هذه الوحدة ،
بأية وسيلة ، بأي ثمن •• ولكن كيف •• كيف ؟! لقد أصبح
شعوره بالوحدة مرضا مزنا عليه ان يتقبله ويتلاءم معه •
والويل لمن يريد أن يشفيه من هذا المرض لأنه في الحقيقة يريد
أن يفضحه ، يريد أن يقضى عليه •

كان يدافع عن نفسه أحيانا بالصمت ، يتألم في صمت ،
ويكبت ردود أفعاله في مواجهة الاحداث من حوله في صمت ،
ويتعامل مع همس لحوح في أعماقه أن أحدا لن يفهمه • وأن
التعامل مع الناس يحتاج الى بعض المظاهر التي يصنعها
بسهولة وخبرة اكتسبها من بيئته منذ طفولته • انه واثق من
قدرته على كسب ثقة مدير التليفزيون •
قادر على أن يغري مخرجا بالتعامل معه •
الكل يطمئن الى دماثته • يستريح الى حديثه اللبق • انسان
مجامل • لا تتوقع منه الشر ، ولا يخطر بباله أنه وهو يتحدث
عن قصصه التي اشتهرت بتناولها لموضوعات عن بنات
المدارس وبنات الداخلية والمراهقات وتجارب الحب الأولى •
لا يحترم القضايا التي يتحدث عنها باحترام ، لا يثق في الحلول
التي يطرحها في ثقة لعلاج المشاكل • لا يحترم في قرارة نفسه
صديقه المخرج • أو صديقه الممثل • أو صديقه الممثلة •

أو صديقه مساعد المخرج أو صديقه سكرتير التحرير •
أو صديقه عامل المطبعة • الكل أصدقاؤه • الكل يشعرون
باحترامه العميق لهم • الكل أوغاد وحنالة البشر كما يراهم
في سره •

قالت له زينب ذات يوم : انه لولاها لما كان له نفع • وقالت
له مرة أخرى : ماذا تفعل لو عرفت أحدا غيرك ؟
وكان دفاعه ضد مثل هذه الهجمات التي تسعى الى
استفزازه واخراجه قسرا من حصن وحدته ، هو الصمت ، وقد
يقول لنفسه ، وكأنه يرد على زينب وهي تهدده بأن تبحث لها
عن رجل آخر ، أنا لم أفعل شيئا عندما بحثت أمي عن رجل
آخر بعد أبي • سككت ورضخت ، أنا عاجز لا حول بي
ولا قوة ، ارتكبي الخيانة اذا شئت ، ولسوف تندeshين عندما
تكتشفين عجزى • عندما ترين اني مشلول غير قادر على
التصرف ، ولكنه ما يكاد يخلص من هذا الحديث الذي يريده
بينه وبين نفسه • حتى يثور ، ويرى في خياله أعمالا من العنف
يذتقم فيها من زينب • التي تخونه • يمزقها بسكين • يفتق
عينيها • يقطع لحمها بموس للحلاقة • فتظهر عليه علامات
العنف • بخروجه من البيت ، واختفائه في بار أو في بيت أحد
الفنانين • فيشرب وهو لا يدري كيف تكون نهاية سهرته •

أحيانا تنتهي سهرة كهذه بشجار وصياح وشتائم ثم بكاء
وهلوسة تثير العطف أو الرثاء ، أو ينقلب الى انسان مرح

مجنون يقف على حافة شرفة في الطابق الخامس أو السادس ،
ويتشقلب ، ويتقبل أى شيء من السخرية الى الإهانة الى
الصفعات الى الشتائم البذيئة التي تنهال عليه ، ولكنه يفيق
ويعود الى هدوئه ووقاره وكأنه شخصان منفصلان تماما
لا يعرف أحدهما الآخر • ويصعب على أحد أن يتعامل مع
أحدهما تعامل صديق أو أى تعامل حميم •

كانت زينب لفترة طويلة ، هي صلاته الحقيقية بالناس ،
لولاها لسقط يوسف في بئر يوسف فلم يخرج منه ، واحتملته
زينب • تسأله في ادق الأمور الشخصية • أتحبني ؟ ما رأيك
في بنت مع الولد ؟ ساعدني في مذاكرة حسن • • أى سؤال
شخصي ، يجيب عليه اجابات عامة • العواطف تتحول الى
منطق • والمشاعر تصبح مواقف شكلية •

كان يجيب على أسئلتها ، وهو يدرك بعقله أنه لابد أن
يحاول أن يدخلها في أعماقه على نحو ما أن يشترك معها في
مشاعر واحدة ، ولكنه لا يجد غير المجاملة ، والتظاهر بالأدب ،
واللباقة • • ليعبر عن نفسه في اللحظات التي تقاوم فيها
العلاقة بينهما • نفس اللحظات تحتاج فيها زينب الى احساس
بدفع العاطفة ، وحرارة الاهتمام • فتتعقد الأمور • لأنها
تتبين بسرعة أنه لا يدعوها الى نفسه ، ولا يمنحها حقها في
دفع العاطفة • • بل يصنع عامدا دروعا شائكة مخيفة يحمي
بها نفسه من الأزمة • كانت تتهمة في هذه اللحظات بأنه يتعمد

اذلالها . كيف نتصور أن هذا هو يوسف كما يعرفه الجميع ؟!

وكان يخطر لها ، أنه يتعالى عليها ، وأنه يعاملها كما لو كان من طبقة أعلى من طبقتها ، فتثور ، وتسبه وتشتمه هو وأهله وآبائه وأجداده ، النصابين الأدعياء ، الذين لم تر لديهم ثراء . أو جاها يذكره الناس ، فيستمع إليها غاضبا .

يتمنى لو استطاع أن ينقض عليها ويفتك بها ، أو يطلقها ويسـتريح ، ولكنه عاجز عن أن ينقض أو يفتك أو يطلق . يتساءل في قرارة نفسه ، هل هذه الإهانات أبشع أو أقبح مما لحقه من إهانات يوم تزوجت أمه لطيف صبرى . هل هذه الإهانات أبشع أو أقبح من إهانة أعمامه له ولشقيقته وأمه ؟

كان مراد حسنين هو أقرب الناس الى فهمه ، أو على الأقل أكثر الناس قدرة على التعامل معه . وكان من رأى مراد أن يتصرف عمليا لمواجهة أزماته مع زينب .

قال له مراد أنه إذا لم يستطع أن يكسب زينب بالمشاعر ، فلا أقل من أن يلجأ الى وسائل أخرى .

فسأل يوسف :

— أية وسائل ؟

قال مراد :

— تهوّر يا أخى .

فسأله :

— كيف ؟

زَعَق مراد . .

— أى شيء أصرف . انفق نقودك فى بذخ . . تصرف بحماقة . . اشتر بكل ما معك ملابس أو عطورا لها . . على العموم لابد أن تتهور فى شيء ما .

حاول هذا البذخ المصدود . الذى يقيد دخل محدود . وحاول أن يتهور فى علاقته الجنسية ، فتظاهر بالعنف . وبالرغبة المفرطة الجامحة . ولكنه زاد الموقف تعقيدا . فرغم هذه المحاولات . بل بسببها اكتشفت زينب بسرعة هذا الفراغ الذى يتعامل به . شعرت بغريزتها أنه يتظاهر . أنه يفتعل ، ورفضت أن تصدق أنه يعذب نفسه ويتورط فى هذا التظاهر المرهق . لأنه يريد أن يتقرب منها ، وفقت زينب طعم الجنس ، وقاومته لأنها لا تريد منه التظاهر السمج ، ونفرت منه ، وكان ذكيا ، فأدرك فشله ، وأدرك أنه جرح مشاعر زينب ، وأن لديها العواطف التى تعبر عنها بحرية ، على عكس عواطفه الخرساء . وأدرك أن تصنعه ومحاولته قاذية بوره كممثل بارع ، لا صلة لها بالعواطف . قد تكون محاولة لشرح العواطف . ولكنه شرح منفر . ولم يعد قادرا على مواجهة لقاء مع زينب قد ترضى به . إلا بعد أن يشرب حتى يخمد كل قدراته على التصنع والتظاهر . ولكنه كان يفقد فى نفس الوقت قدراته الكاملة كرجل .

وكان لابد أن يأتى اليوم الذى تدرك فيه زينب كل شيء . .

ولم ترجمه .. قصصك وسيناريوهاتك منقولة من ملفات التحقيقات .. باردة لا حياة فيها ، فيتألم ، ويشعر أنه لا يستطيع أن يجد من يمنحه حرارة الاصاله .. أو جنون العبقريه .. ليصبح فنانا حقيقيا .. ويلوم زينب لأنها تخلت عنه فصرمته من موهبة كان واثقا أنه سيمتلكها لو صبرت عليه ، ووقفت معه حتى النهاية .

وجاءت سنوات الدل .. زينب تكمل تعليمها الجامعي .. زينب تلتحق بوظيفة ساعدها في الحصول عليها مراد حسنين .. زينب تشتري عربتها الخاصة .. وتعتمد على مرتبها الكبير في فندق برستيج .. ما عادت تهتم به ، وما عاد يشعر نحوها ، الا بأنها مصدر اهانة وتحد .

وأفقا ذات يوم على كارثة الولد ، ولكنها لم تكن البداية .. كانت خاتمة ما حدث في العلاقة من انهيارات .. ولم تبق له الا وحيدته ، وقد تخلى عنه الجميع .. بعد ان تخلت عنه زينب .. زينب التي لن تتكرر في حياته ، وتخلى عنه ابنه .. ابنه الذي لن يتكرر في حياته .

حاول أخيرا أن يخلص من أزمته .. بكتابة سيناريو حلقات تتناول مشاهد من حياة والده وجده والشيخ عبد السلام .. قال له المخرج محمد صفوت :

— هذا سخف .. الناس لا تهتم الآن بمثل هذه الشخصيات .. لقد اختفت من المسرح منذ أيام على الكسار .

ثم أردف قائلا :

— أما أن تصور حلقات تظهر فيها شخصية لشيخ الأزهر فهذا محال .. لا داعي لأن نورط أنفسنا في أمور اذا غضب أصحابها .. نسفونا في لحظات .

كانت آخر المحاولات لكتابة السيناريو ، عندما طالبوه بأن يبدأ من جريمة ابنه فيكتب حلقات يدين فيها الارهاب باسم الدين .. معتمدا على وقائع القبض ومحاكمة جماعة « التقوى والتقوى » واعداد زياد الأسمر ، والحكم بالاشغال الشاقة المؤبدة على ابنه حسن .

ورضخ أول الأمر للطلب .. وحاول الكتابة .. ولكن احساسا دنيئا انتابه .. انه يستثمر كارثة ابنه .. انه يتصرف بنذالة لينقذ نفسه من الاتهامات التي يتسلى الناس باطلاقها للتلذذ برؤية الفريسة التي وقعت تتلقى الاهانات والركلات والطعنات .

كان يتلفت حوله مذعورا ، لا يدري من أين المخرج من هذه الكارثة .. وكان يطوف به خاطر غامض لا يكاد يتبينه .. أنه لو كان قد عرف الحب .. لاستطاع على نحو ما أن يحلق فوق هذه المصائب التي تلاحقه .

لو كان عرف الحب .. وانتفض ، وهو يرى أمامه باب قاعة الدومينو .

تجسس

أن تمتد يده ليدفع باب قاعة الدومينو ، سمع صوتا خشنا حادا آمرا يناديه :

- يوسف .. يوسف ..
التفت وراءه ، فرأى عجوزا مقوسسة الظهر تستند في انحنائها على عصا الأبنوس التي يعرفها جيدا .. عصا والده أو عصا فاطمة هانم شريف . لم يتردد لحظة في معرفة العصا ، لم يخالجه أدنى شك أن هذه العصا هي نفس العصا . تسمر مكانه متصليا متشنجا يكاد يتهشم لو بدرت منه حركة .

صاحت العجوز :

- يوسف .. تعال هنا ..
أهذه هي فاطمة هانم الشريف . أهو يحلم . أهى حقا فاطمة هانم أهذا كابوس . أأكون هذه المرأة هي فاطمة هانم ؟ رفعت العجوز العصا الأبنوسية بنشاط لا يتوقعه . وأصدرت أمرها .

- قلت لك تعال هنا .. ألا تسمعنى ؟

لا بد أنه مشى إليها . خطوات مشاها في الكابوس . ها هو وجهها المستدير المكرمش . عيناها الزرقاوتان في فجوتين

غائرتين ، عيناان جافتان ، شـعرها الابيض تغطيه عمامة بيضاء . شففاها خيطان حادان في وجه من الجبس . فستانها أحمر منقوش بورود كبيرة صفراء .

سمعها تقول :

- لماذا لم تنتظرنى ؟

لم ينبس بكلمة ، كان مشغولا بالبحث عن شيء يفقده ، شيء ما له أهمية القصوى ، ولكنه عاجز أن يحدده أو يدرك كنهه . أو عثر على هذا الشيء الذى أفلت منه ، لاستطاع أن يواجه ، يجيب على الأسئلة ، ويلقى الأسئلة . لاستطاع أن يفعل أشياء أخرى ، يقدم على تصرفات يعلم عن يقين أنه قادر على القيام بها . لولا أنه لا يستطيع الا أن يحدد هذه التصرفات قبل أن يعثر على هذا الشيء الذى ضاع منه .

سمع المرأة تقول :

- أنت لا تشبه منصور .

فهمس :

- أنا .

وضاعت منه بقية الكلمات .
قالت المرأة بلهجتها الآمرة :

- لن تقف هكذا .. تعال

نجلس .



وأشارت الى أريكة بجوار أحد الأعمدة الرخامية في البهو • كان الرجل الأصلع واقفا عند الاستقبال أوراقا بين يديه ، وكان بعض الخلاء يجلسون في جانب بعيد مشغولين بحديث •

تقدمته العجوز • تتوكأ على العصا الأبنوس ، عيناه تلاحقان العصا • وصوت ملح يدوي في رأسه ، في صدره ، اهذه هي فاطمة هانم شريف •

قالت له :

— اجلس •

جلس بجوارها • ثقبان زرقتهما كالحة ، حصوتان مصوبتان الى عينيه •

قالت :

— ميرزا أخبرني بوجودك معنا • • طلبت منه ان اقابلك لأطمئن عليك •

وجد نفسه يهمس :

— حضرتك فاطمة هانم شريف ؟

قالت بصوت خشن ويدها تتشبث بالعصا الأبنوس :

— نعم • • أنسيقتني ؟

همس حائرا ، يفزعه الفراغ الذي يسقط فيه • يفزعه أنه لا يستطيع أن يجد ذلك الشيء الذي يبحث عنه •

آسف • •

قالت وقد رفعت صوتها :

— أبوك كان لا يعرف كلمة آسف • • ولكنك لم تعرفه • • لقد ربك كوثر •

همس :

— أنت • •

ولم يكمل • • كان يريد أن يقولها أنت عصا اليد السوداء • قالت :

— نعم • • انا جارتكم •

همس وهو يتشبث بنظراته بالعصا الأبنوس :

— هذه العصا • • لأبي •

افتقر خطأ شفقتها عن شق يعلن أنها تنقسم • وقالت :

— نعم • • أعطاها لأنى كسرت عصا وأنا أضربه •

نظر اليها في غباء ، فانتسع الشق في فمها ، ومدت يدها وقبضت بأناملها على أصابع يده ، شعر بلمس خشن بارد ، واهتز رأسها ، وارتفع صوتها كأنها تخاطب كل من في البهو •

— عندما نتشاجر لا ندرى ماذا نفعل • • ولا المجانين • •

شيء لا يتصوره العقل • • كان راقدا أمامى على السرير

متظاهرا بالنوم • • لا يريد أن يسمعى • • أحضرت عصا

كنت أحتفظ بها في الدولاب • • لا أدري لماذا ؟ ربما كنت

أقول لنفسي لعلى أحتاج اليها لو هاجمنى اللصوص • • عصا

جميلة من الجوز التركي .. كانت لزوجي الأول .
ووقفت على رأسه .. وقلت له : قم يا منصور ..
فتظاهر بأنه لا يسمعني .. فرفعت العصا وهبطت بها بكل
قواي وعزمت على ظهره . فانتكسرت . خفت ، قلت منصور
راح ، فلما رأيته سليماً هجمت عليه أخريشه وأعضه بأسناني
وقد تملكني الغيظ .

وتصالحنا وجاء لي بهذه العصا ، لأن قلت له اني حزينة
على العصا التي كسرتها على ظهره ، كنا كالمجانين . جاءني
بهذه العصا ، تماماً مثل عصاه ، وقال لي انها لن تنكسر .
وهزت العصا في يدها قائلة :
- هذه هي كل ما بقي من منصور .

أينتزع العصا الأبنوس منها، أصرخ فيها أنه الوحيد الذي
بقي من منصور .. انفجر في رأسه ، يريد أن يلم أشبثاته
المبعثرة ، يريد أن يتوحد في أعماقه الشاعر .

وهو الآن يدرك تماماً أن عليه أن يواجه هذه المرأة ، وكأنه
منصور الذي عاد في شخص ابنه ، ليخلص من هذه الشمطاء
ويلفظها الى الأبد . ولسوف يحسم هذا الأمر الآن وفي
الحال قبل أن يتجه الى قاعة الدومينو ، سيقول لهذه المرأة
انها مجرمة شريرة ، سيقول لها أنا ابن منصور سالم
أحتقرك ، وإذا كان أبي قد قضى معك بعض الوقت في علاقة
منحطة محرمة ، فأنا ابنه استنكر وأشجب هذه العلاقة . انها

جريمة ، ولن أسمح لها بأن تمد آثارها ، الجريمة لا تعم ،
انها تحاصر بالمقاومة والصمود ، بالقدرة على التصدي ،
انها تعم بالسكوت والاذعان كما فعلت أمي .

رفع صوته :

- أنا الذي بقيت بعد أبي .. لا هذه العصا
قاطعتها ساخرة مستنكرة :

- أنت .. أنت لا صلة لك بمنصور .

قال غير مصدق ما يسمعه :

- انه أبي .

قالت بسخرية أشد :

- أنا لا أحدثك عن رجل تقول انه أبوك .. أنا أحدثك عن

حبيبي .

فقاطعتها قائلاً في تحد :

- لا يعني الحديث عن نزوة ارتكبتها أبي .. ما يعني هو

جريمة ارتكبتها عصابة اليد السوداء .

هتفت بسرعة ، وقد تحول الشق في وجهها الى فجوة

تكشف عن أسنانها الصناعية :

- أنت غبي .. لا تفهم شيئاً على الإطلاق .

ورفعت العصا فجأة ، وضربت على ساقه قائلة بلهجتها

الأمرة :

- أنقم السبب في تعاسة منصور .. أنت وامك كوثر ..

وأختك كريمة .. وجدتك وأعمامك ومحمود البواب وزوجته نور .. وإبراهيم السائق .. كلكم .. كلكم .. لم ترحموه لحظة واحدة .

وعادت تضربه مرة أخرى على ساقه ، قائلة :
- أنتم أعداؤه .. وأنا وحدي حبيبته .

جلجل صوتها في البهو ، لا يعنىها أن يسمعها أحد ، بل بدا وكأنها فخورة بالحديث عن فضائلها ، وكان لضربة العصا وقع غريب في نفس يوسف ، فمع الألم الخفيف الذي شعر به ، انتابه احساس مفاجيء بالألفة ، كأنه يتذكر أباه ، كأنه يتسلسل الى عالم بعيد الأغوار يختبئ فيه أبوه ، عالم فيه دفء ولذة لها مذاق خاص .

وبهذا الاحساس الذي اختلط به فضول لمعرفة المزيد عن أبيه ، أو عن نفسه ، استسلم لفاطمة هانم تروى له ذكرياتها مع أبيه ، ترويها كما لو كانت بطلاة تحكى عن أمجادها لصحفى أو مذيع تليفزيون .

منصور هو الرجل الوحيد الذى أحببته ، وأنا المرأة الوحيدة التى حبها . أنتم لا تعرفون الحب كما نعرفه . الحب الذى عشنا به سعادة ، هى النعيم وأتعسنا وحرقنا بجحيم لم يحترق به أحد غيرنا .

منصور هو أسعد أيامى وأتعسها . هو رجلى وأنا امراته . كان يهيننى ويذلنى ويجعل منى ، من جسدى وروحى ، جارية

بلا كرامة ولا كبرياء ، وهو الذى كنت أدله وأهينه وأخضعه كعبد بلا كرامة ولا كبرياء . ولكن ما بيننا كان فوق هذا الكلام الفارغ . الكرامة والشرف والاحترام .

وهذه المظاهر التى كانت تبيعها له كوثر فى بيتكم . كان لا يستريح الا بين ذراعى ، يتعذب فى بيتكم . مسئوليات وواجبات ، يتشاجر مع كوثر فيأتى الى ليستريح ، تمرض أنت فيحضر لك الطبيب ويقلق وتقلق كوثر فيطفش من بيتكم ويأتى الى ليستريح .

الدنيا كلها بما فيها لا تساوى عنده غير تلك اللحظات التى كنا نلتقى فيها .. أدله، أرقص، أغنى له ، أنت لم تر منصور يضحك كما رأيته أنا ، ولم تره يبكى كما رأيته أنا ، أنت لا تعرف عنه الا أنه أبوك ، أما منصور سالم الحقيقى ، منصور بلحمه وعظمه ودمه ، فهو أنا .

لم أنجب غيره ، فهو ابنى وأبى وأخى .. روحى وحياتى . أنا التى ضاع منها منصور . لا كنت أريده زوجا ولا رجلا يتحمل مسئوليات ولا متاعب ولا مشاغل ، ولا أى شيء . أريده هو لذاته ، لا لشيء سواه . أما أنتم فقد صنعت له مصيدة ، بيتكم كان مصيدة لأضطهاد منصور .. مسكين ، كان لا يحتمل البهدة ، منصور الحلو الرقيق .

ورفعت فاطمة هانم يدها المعروقة بالخشنة الى وجهها ، وتحسست الاخاديد فى بشرتها المكرمشة ، وقالت :

لست مثل الاخريات ينظرون الى المرأة ويتحسرن .. هذه
الكرمشة في وجهي ليست بفعل الزمن .. انها بفعل منصور
.. زمني هو منصور *

وهتفت بحدة وشراسة :

— اتفهم هذا .. يا من تدعى أنك ابن منصور سالم *
قبل أن يجيب ، كانت تهتف :

— أنت تذكرني بكوثر ، يوم جاءت الى تتوسل وتبكي لأترك
لها منصور .. قلت لها : أنا أحبه وهو يحبني .. ولكنها قبلت
أن تعيش معه . كان لا يعنيني أمرها .. ما عداى وما عداه
لا قيمة له .. أشياء تمر .. حياة يومية .. زواج وبيت
وأولاد وعلاقات اجتماعية وناس تقابلهم .. كل هذا يمر ..
تفاهه *

المهم هو ان منصور لى وأنا له .. لا يعنينى ولا يعنيه أن
تقول كوثر أن ما بيننا عشق أو فسق أو أى كلام تقوله ..
لأنها لا تفهم الحب .. انها تفهم الخداع ، والعجز والكنب
والجبن والخوف .. انا التى ضاع منها منصور ، أما هى فلم
تخسر شيئاً *

قال يوسف هامسا وهو يقاوم دوارا يهاجمه بقسوة *

— تحقدين على أمى الى هذا الحد !؟

قال فى قحة وشراسة :

— انا امرأة وهى امرأة .. ونحن نفهم بعضنا جيدا ..

انها لا تستطيع أن تدعى أمامى أنها حزينه على فقد منصور
.. هى التى جاءت الى بيتى على استعداد لأن تقبل حداثى
.. وقد ظننت انى أريد أن أتزوج منصور .. لم أشعر فى يوم
ما انى فى حاجة الى أن أتزوجه .. ولو ردت لفعل .. ولكنى
لم أطلب منه شيئا على الإطلاق .. ما كنت فى حاجة الى أن
أطلب منه لأنه لى .. أنا وهو كيان واحد .. وأنتم الغرباء
عنا ..

قال يوسف وهو يقاوم السقوط فى حلقات الدوار :
— اذا كان هذا صحيحا فلماذا أرسلت لى ذلك التهديد
باسم عصاة اليد السوداء *
قالت بسرعة :

— كان منصور قد ضاع منى .. ومرت بى لحظات خيل
الى أن منصور قد تقمصنى .. روحه تلبستنى .. أردت أن
أجعلك تنصرف كأبيك .. أنبهك الى خداع
كوثر *

قال يوسف بصعوبة باذلا جهدا يفوق
طاقته لمقاومة الدوار :

— أنت التى سمعت للزواج من لطيف

صبرى *

فاهتزت ضاحكة .. ضحكاتها خشنه
عالية وقحة .. وقالت :



- إذا كانت هناك من هي في حاجة الى المواساة فهي أنا
 .. أتزوج لطيف كما تزوج منصور كوثر .. ولكنها هي التي
 تزوجته .. تغور به *

همس يوسف وهو يتنفس بصعوبة *

- ولكنك أفسدت حياتي *

صاحت ساخرة :

- هل تفهم أنت معنى الحياة .. لتقول لي .. أفسدت
 حياتك .. على أية حال لست المسئولة .. أبوك هو الذى عاش
 حياته وحياتك .. وحياة الناس كلها .. لم يكن على استعداد
 لأن يترك لأحد لحظة واحدة من حياته *
 همس يوسف يبذل محاولة مضنية للتخلص من ارهاق

الدوار *

- إن أكرر الخطأ .. سأعطى من الآن كل حياتي لابنى *

هتفت :

- حدثنى ميرزا عنه .. الجميع هنا يعرفون الحكاية ..
 يرويها محام اسمه رأفت الحلوانى *

وأمسكت بذراعه قائلة بصوت خفيض :

- انه يقول انك اتفقت مع التليفزيون فى مصر على كتابة
 حلقات تتبرأ فيها من جريمة ابنك .. وانك قبضت الثمن *

همس :

- لم استطع كتابتها *

قالت بسرعة :

- وإن تستطيع أن تفعل أى شىء على الإطلاق ..
 قال وهو لا يدري كيف حصل على القدرة على النطق ..
 - معى الدليل الذى يثبت براءته ويخرجه من السجن ..
 صاحت مستنكرة *

- تخرجه ليقتل من جديد *

همس :

- ليعيش حراً *

صاحت :

- معك ..

ارتجف .. وسمعها تقول :

- لو كان بقى لديك شىء من منصور لعلمت أننا نعيش
 لحظات نهائية .. ليس فيها تردد ، ولا عودة ، هذا هو ما كان
 بينى وبين منصور .. كل لقاء هو أول وآخر لقاء .. ولذلك
 كان لقاء مسـتـمرا متجددا .. ولكن هأنت بعد أن اتهمتنى
 بأنى أفسدت حياتك بقصاصة ورق أرسلتها اليك .. تريد أن
 تصنع نفس الشىء .. تريد أن تنقض على ابنك ، لتخرجه من
 السجن الذى اراده لنفسه ، وتقول له انفض الظلم ، واخرج
 الى الحرية التى اتمتع بها *

رأى حسن وهو يسمعها .. كان حسن يقول له السجن أحب
 الى مما تدعونى اليه ، وتجمعت فى صدره صرخة ، يريد أن

يطلقها ، سبابا وشتائم .. يا أولاد الكلب .. كلكم كلاب ..
صرخة مدوية في فضاء حياته بكل ما فيها من وعى ونكريات ،
أهذا هو الجنون الذي يتحدثون عنه ، لابد أن يحطم شيئاً .

سمعها تقول :

— عندما أرسلت لك تلك الورقة .. كنت مازلت أتوهم أنك
ابن أبيك .. ولكن منصور ليس له أبناء .. ولسوف تفهم هذا
— عندما أرسلت لك تلك الورقة .. كنت مازلت أتوهم أنك
تريد أن تشعر ببعض المهانة .. لتدرك حقيقة الأمر .

صرخ :

— أنت كاذبة .. لقد جئت تسعين ورائي لأنى ابن منصور
سالم وقلت أنك تريدين الاطمئنان على ..

قالت هازئة :

— لماذا تتمسك بكلمات مجاملة .. لقد جئت لأطمئن على
نفسى .. لارى كما تبينت الآن أنى على حق .. أن منصور
بأكمله لى .. لم يترك شيئاً لأحد غيرى .. حتى أنت الذى
يحمل اسمه .

— لماذا تتمسك بكلمات مجاملة .. لقد جئت لأطمئن على

خلف عمود الرخام .

— مدام فاطمة تجلس مع الأستاذ ..

والفتت الى يوسف قائلة :

— ظننت أنك سافرت ؟

قال وهو يلم شتاته :

— سأفعل الآن ..

قالت ليلى وهى تقترب منه تمد يدها لتحصس جبينه :

— أنت مرهق يا أستاذ .. لقد تركتك آخر مرة رأيك فيها

وأنت أحسن حالا .. ما الذى حدث لك .

تمتم هاربا من التفكير :

— لا شيء .

فقالت فاطمة هانم بصوتها الخشن مخاطبة ليلى :

— لماذا لا تتولين علاجه ؟!

قالت ليلى وهى تجلس على مقعد قبالتها :

— هذا ما حاولته يا فاطمة هانم .. ولقد جاء ومعه كتاب

رجوع الشيخ .. وقلت له انى سأقرأه معه ..

قاطعتها فاطمة هانم وهى تردد كأنها تتذكر شيئاً .

— رجوع الشيخ .. رجوع الشيخ .

ثم هتفت بأعلى صوتها فى حماس :

— آه .. نعم .. رجوع الشيخ الى صباه .. وامسكت

بالعصا الأبنوسية ، وضربت ركبة يوسف بانفعال وسالته :

— من أين جئت بهذا الكتاب ؟

همس يوسف :

— من مكتبة أبى .

صاحت فاطمة هانم :

- هذا الكتاب .. سرقة أبوك من مكتبة الشيخ عبدالسلام ..
 .. لقد قرأته معه ..
 وأردفت متلهلة :
 - لقد أضفنا الى هذا الكتاب فصولا لا تخطر ببال أحد ..
 ولا في الخيال ..
 والتفتت الى ليلي تسألها في فضول شديد ..
 - وهل قرأتها معا ؟
 قالت ليلي بصوت بارد :
 - للأسف .. وجدت أنه مشغول بأشياء أخرى .. تجعله
 غير مستعد للتجاوب مع العلاج .. وكما تعلمين لابد أن يطلب
 المريض العلاج بنفسه .. ويثق فيه ..
 قالت فاطمة هانم ساخرة :
 - بيني وبينك .. أنا لا أفهم ما تفعلينه .. انها مسألة مزاج
 ورغبة وممتعة .. وأنتم تحولونها الى وظيفة .. انه قد يقرأ
 معك كتاب رجوع الشيخ .. وقد تدرسين له كل مواقف الكتاب
 .. ولكن هذا يختلف تماما عما عرفناه أنا ومنصور ..
 قالت ليلي باهتمام :
 - لعلك تساعديني ؟
 صاحت المرأة بلهجة انتصار :
 - كيف ؟
 - تشرحين لي ..

فالتفتت فاطمة هانم الى يوسف قائلة فجأة :
 - أريد أن أرى الكتاب ؟
 همس يوسف :
 - انه في حقائبى ..
 قالت :
 - اذا سافرت .. فاتركه لي ..
 فنظر اليها واجما .. بينما قالت في ثقة وبلهجتها الآمرة ..
 - لن تنسى ..
 التفت يوسف الى ليلي وسألها ..
 - كنت أظن أنك مشغولة الآن مع كوستا ..
 سألته في دهشة :
 - لماذا ؟
 قال يوسف :
 - يقول انك ستذهبين به الى مكان في الصحراء يختفى
 فيه .. فتنهدت ليلي قائلة :
 - لا أدري من الذى أطلق هذه الإشاعة ؟
 ثم قالت في حيرة :
 - أحيانا أكاد أصدقك .. حتى أننى سأحاول أن أبحث معه
 عن ذلك المكان الذى يقول انه موجود في الصحراء ..
 صاحت فاطمة هانم :

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

ما لم يتوقعه أحد ، ولا يوسف نفسه ،
ما كاد يدفع باب قاعة الدومينو حتى وجد نفسه وجها لوجه
أمام كريم شاكر . غليونه منتصب في فمه ، وبلا تردد وكان
قوى خفية تدفع يوسف ، اذا به يهجم على كريم شاكر ويعانقه
ويقبله في خديه بحرارة كأنه صديق حميم افترق عنه منذ
سنوات ، لم تبد الدهشة على كريم شاكر ، وتقبل حرارة
العناق وكأنها أمر عادي ، واندفع يوسف فيما اندفع اليه
يشوق وحنين بلا تفكير فيما يفعل ، الذي أدهشه هو نظرات
اللواء الحوت اليه ، وكان جالسا الى متضدة خلف كريم شاكر
يلعب الدومينو مع فؤاد برعى والدكتور المنجي وآدم
ريشفسكي . وكان الحوت قد توقف عن اللعب بربق يوسف
وكريم شاكر ، والدكتور المنجي يحتج لأنه لا يحتمل توقف
اللعب والتلكو فيه ، والتفت الى يوسف قائلا له في عصبية :

— أنا لا أفهم لماذا يربك أمثالك لعبنا . . ما الذي جاء بك
. . أرجوك لا تعطلنا ؟

قال يوسف ضاحكا :
— لا شأن لي بك يا دكتور .

— كلام فارغ . . لا يوجد مكان آخر في هذه الصحراء .
ونهضت تنوكة على عصاها الأبنوس . . قائلة ليوسف :
— ساصعد الآن الى حجرتي . . ولا تنس اذا سافرت ان
تترك لي الكتاب .

أحنى يوسف رأسه بالتحية . . وأحنى رأسه بالتحية
لليلي . . وأسرع هاربا من نفسه وأفكاره الى قاعة الدومينو .

فصاح المنجى •

— كيف وقد عطلت اللعب •• غور يا أخى وخلصنا من وجهك العكر •

فهتف كريم شاكر فى مرح :

— آه منك يا قليل الأدب ••

بينما دوى صوت خليل فى القاعة وهو يلعب فى الركن البعيد •

— ها هو قد جاء •• مسكين حظه من الخلف •

صاح المنجى :

— حظه من الخلف •• من قدام •• لا يهمنا •

قال خليل هاتفا :

— هل نسيت يا دكتور أن الولادة من قدام •• يا أهبل من عليها ترلم ترلم ••

كان الحوت قد انتهز الفرصة • ليهمس فى أذن يوسف وصوته لا يخلو من الدهشة

والعتاب •

— ماذا حدث يا أستاذ ••

هل غيرت رأيك ؟

قال يوسف :

— لا •• ولكنى انشغلت

بعض الوقت •



فصاح المنجى فى الحوت •

— هذه سخافة ما بعدها سخافة •• كيف تنهض وتترك اللعب •

همس الحوت فى أذن يوسف متجاهلا صياح المنجى :

— على أية حال خذ وقتك •• لسنا فى عجلة •• لا فرق اذا

سافرنا اليوم أو غدا •

ونهض آدم ريشفسكى •

وصاح المنجى :

— أنت أيضا •• ماذا حدث لكم •• ما سر هذا الهياج •

وصاح خليل فى آخر القاعة •

— هياج يا أهبل من عليها ترلم ترلم •• قلت لك انه حظه

من الخلف •• افهموها بأه •

همس آدم ريشفسكى قائلا لكريم شاكر بلهجة جادة :

— خذ مكسائى يا كريم •• أريد أن أتحدث مع الأستاذ

يوسف •

همس الحوت فى أذن يوسف محذرا :

— أنا لم أقل لهم شيئا بعد •• ولكنهم يتوقعون سفرنا ••

صحب آدم ريشفسكى يوسف الى الحجرة المجاورة ، وهو

يقول بلهجة جادة حزينة :

— عندما رأيته هنا لأول مرة •• أصابنى تعب •• وأنا

أحاول أن أتذكر أشياء هامة حدثت فى حياتى •• لها صلة

بك •

جلسا متجاورين ، وعينا آدم ترمقانه بتلك النظرات
الحزينة ، قبل أن يقول :

— لقد مضى وقت طويل نسيت فيه كل شيء .. ولم أعد في
حاجة الى أن أتذكر .. أنت تعرف أن أيامنا هنا تمضي في
اللعب .. لا نعرف لليوم اسما ولا للشهر اسما ولا ننكر
السنة .. ولا نهتم بالمواعيت .. أو الفصول .. هذا هو
الوضع الذي يريحنا .. فعندما يحدث أن تأتي مناسبة مثل
حضورك ، تتحرك الذكريات .. ولكن ببطء وصعوبة ، وهذا
يرهقنا .. لم نعد نتحمل نبش الماضي .. ولكني بمجرد أن
رأيتك خيل الى أنك تعرف العبرية .. وسألتك فقلت لي أنك
لا تعرفها .. وسألت نفسي ما الذي جعلني أعتقد أنك تعرف
العبرية ولكني الآن أعرف كل شيء .. لأنني تذكرته على مهل ،
أعرف أنك لم تفهم كلمات بسيطة من العبرية ، كلمات عاطفية
مثل « أنى أو هيفيت أو تخا » .

وابتسم آدم محتفظا بعينه الحزنتين ولهجته الجادة .
وسأل يوسف :

— أتعرف معناها ؟

تمتم يوسف في دهشة .

— لا ..

قال آدم باسم بصوت هام :

— كانت جابى اسكنازى تقولها لك .. يوما ما .. قبل أن

تضحيا بحبكما من أجل قيام اسرائيل .

انتفض يوسف مذعورا هاتفا بصوت يكتمه الانفعال :

— أنا .. ما صلتى باسرائيل ؟!

أطرق آدم برأسه لحظة ، وأغمض عينيه ثم فتحهما ،
وصوتهما الى يوسف ، أضاف الى الحزن فى عينيه لمعة
باردة . وقال :

— ضحيتما بحبكما ..

همس يوسف فى دهشة :

— أنا لم أضح ؟

قال آدم فى هدوء مريب :

— هى ضحت وهى تعلم .. وأنت ضحيت وأنت لا تعلم .

همس يوسف :

— لا أعلم ماذا ؟!

قال آدم فى هدوء :

— أنك تضحى بحبك .. تضحى بمن أحببتك ..

قدفقت مع كلمات آدم ريشفسكى فترة من حياة يوسف كان
يظن حتى تلك اللحظة ، انها فترة عابرة ، فترة انتقالية بين
الطفولة والرجولة ، فترة كتب عنها قصة قصيرة ظن أنها تافهة
.. فترة السنوات الأولى لدراسته فى كلية الحقوق ، أوائل
الأربعينيات الحرب ، وجابى اسكنازى ، وحفلات الماتينه فى
سينما رويال والمكروبول ، والرقص فى جروبي سليمان باشا ،

وأغاني باهيا ، وكوكا راتشا ، وسامفوني ، وجوزيف جوزيف .

الأيام التي سمع فيها لأول مرة عن الكاشير والطريف .
الحاخام الذي يذبح الدجاجة بأن يسحب السكين على رقبتها
مرة ونصف مرة . اللبن الذي يشربه اليهود واللبن الذي
لا يشربونه . القلنسوة على الرأس ، والبكاء والكتب الصفراء
التي كانت الملاذ يوم هبت تلك العاصفة التي قلبت نهار القاهرة
ليلا . . . كان يحب جابي بكل مراهقته ، بكل شبابه ، بكل حريته
أمام المستقبل .

ولكنه كان يتفرج على حياتها ، وأهلها ، ويدهش أو يتعلم ،
لأنه لابد أن يعلم شيئا عن حياة الفتاة التي أحبها ، ويتوقع أن
يأتي اليوم الذي يطلبها فيه للزواج . كان شقيقها كلود يكثر من
القراءة ، هو أول من حدثه عن الشيوعية والفاشية أن الفارق
بينهما كبير ، كان لا يعنيه كثيرا أن يعرف الفارق ، ولكن كلود
كان لحوحا ، جاءه ذات يوم بكتاب رواية لكاتب روسي اسمه
« أوستروفسكي » .

قال له يوسف أنه لا يجيد الفرنسية ، وأن عنوان الرواية
نفسه لا يستطيع أن يترجمه . حدثه كلود عن الحديد الذي
أصبح صليبا . قال له أنه سيعلمه الفرنسية ، وسيترجم معه
الرواية ليتعلم هو أيضا العربية . ضحك يوسف وقال ما الذي
يشغلني برواية عن الحديد الذي أصبح صليبا ؟

حول تلك الأيام ظهر دافيد . فوجيء به . عندما ذهب إلى
شاطئ النيل حيث تنتظرهم المركب البخارية التي أجروها في
رحلة تحت ضوء القمر إلى القناطر . كان قد انشغل مع طلعت
طوال اليوم في تجهيز السندويتشات وصناديق الكوكا . .
وزجاجات البيرة ، والجرامفون والاسطوانات لأربعين ولدا
وينتا . عشرين كوبل ، في رحلة العمر . وجدها جالسة عند
الحاجز على سطح المركب على الأرض بجوارها الولد الأشقر
ذو العينين الزرقاوين في ملابس عسكري الجيش الانجليزي .
ما كادت تراه حتى هلت . تعال يا يوسف أقدم لك دافيد .
كانت العصبية في صوتها أخطر من جلستها على الأرض بجوار
هذا العسكري الغريب .

ها هو آدم ريشفسكي يقول له : ان دافيد كان مع دفعة من
الجنود البولنديين اليهود . وأنه كان عليه أن يعد لهم برنامجا
للترفيه ، ولتعريف اليهود في مصر بأن هناك من يحارب من
أجلهم لاقامة وطن لهم في فلسطين . . لابد أن يعرف يهود مصر
صغارهم قبل كبارهم أن هناك عدوا خبيثا يحرق من يقع منهم
تحت برائته في الأفران . وأن هذا العدو قد وصل إلى العلمين .
لابد من قتاله . . لابد أن يدافع كل يهودي عن نفسه . . أنها
حياة أو موت للجميع . . ليست حياة أو موت فرد واحد ،
أو جماعة معينة . أن شعبا بأكمله مهدد بالفناء . ثقافته
وتاريخه وديانته . . لقد طردوا اليهود من الأرض فبقيت لهم
الأجساد ، والآن يحرقون هذه الأجساد ، حتى لا تكون هناك

أرض تحفظهم ، ولا تكون هناك أجساد تحفظ أفكارهم ومشاعرهم .. وكان على جابى أن تتولى مسئولية ضيافة دافيد . لتتعلم مسئولياتها ، لتعلم واجباتها ، لتدرك أبعاد حياتها ، ومن أين جاءت وإلى أين هي ذاهبة ، ولتقدر المصير الذى سوف تتعرض له كيهودية إذا أهملت وتجاهلت الواقع الذى تعيش فيه .

احتجت « جابى » بأنها لا تستطيع أن تتخلى عن يوسف حبيبها فى ليلة كذلك ، انتظراها منذ أسابيع ، ليلة يغزوان فيها أفاقاً جديدة فى حبهما . قال لها آدم وهو يراجع قائمة أسماء الجنود قبل أن يترك بيت ليفى اسكنازى ليتم جولته فى البيوت اليهودية الأخرى :

— ليس لدينا وقت ليوسف ولا وقت لجابى اسكنازى .. لكل شيء وقت .. وهذا هو وقت اسرائيل .

رفضت جابى . ولكنه تحدث معها . ظل يتحدث حتى قال لها : ان دافيد الذى سيحضر الليلة ليس لديه أمل فى الحياة أكثر من واحد فى الألف .. قال لها آدم ريشفسكى : ولماذا لا يذهب يوسف ليدافع عن بلده ضد غزو الهمج ؟ قالت له : انها ليست حرب يوسف انها حرب الانجليز ، فقال لها : انها حرب الانسانية ضد الهمجية . لا أحد يقف متفرجاً فى هذه الحرب . من يتخلى عن الدفاع عن الانسانية يفقد انسانيته .

نفذت جابى ما طلبناه ولكنها كانت تحبك يا يوسف . سألت

دافيد عن معنى كلمة أحبك بالعبرية ؟ تعلمتها منه لتقولها لك ، ولكنك عاملتها بقسوة وجفاء ، لم تتشاجر معها ، لم تصرخ فى وجهها أنك تحبها ، تجاهلت ما حدث منها ، ورفضت أن تفهمه ، أو تبدى أى اهتمام به ، تعمدت أن تظهر احتقارك لما أقدمت عليه .. كانت تحبك وكانت تتألم ، وعندما يزداد ألمها تقول لك بالعبرية « أنى أوهيفيت أو تخا » حتى لا تفهمها .

إذا أردت أن تفهمها فعليك أن تتعلم ما تقول ، لتفهم وتقدر ما أقدمت عليه ؟ كانت تقولها لك همسا ، أو قولها فى سرها

أو قولها بصوت مرتفع بسرعة حتى لا تسألها ماذا تقول ، أو تقولها ببطء ، متعمدة اغاظتك فتسألها ، ماذا تقولين فتقول لك ؟ . أقول أى كلام . لو عرفت العبرية ، لدافعت عن حبك ، وعن نفسك . لقد روت لى جابى حكايتها فى بيونس ايريس . كنت أحتفل بعيد ميلادى ، وكان زوجها شارل مسافراً فى سانت لويس ، وقضينا ليلة نتذكر فيها أيامنا فى مصر . بعدها سافرت الى



اسرائيل ..

وتوقف آدم فجأة عن الحديث ونظر الى يوسف وقد لعت
عيناه بصلاية ومكر ، وقال بلهجته الحزينة :
- لا أستطيع أن أراك أمامي .. وأكتم عنك هذه المعلومات ؟
همس يوسف :

لقد نسيت كل شيء ..

فنهض آدم متثاقلا وهو يقول :

- لعل هذا هو أفضل شيء .. وأحيانا عندما تكتمل
المعلومات .. يصبح نسيانها أسهل ..

وابتسم ينفض عنه لهجته الحزينة وقال في مرح مفاجيء :

- متى تتعلم الدومينو .. تعال وحاول ..

قال يوسف وهو مازال جالسا مكانه :

- ربما أجرب حظي معكم ..

صاح آدم :

- اذن هيا ..

همس يوسف :

- دعني .. أستريح بعض الوقت ..

قال آدم بصوته المرح :

- لا ترهق نفسك بالتفكير .. فلم يعد هناك شيء يستحق ..

قال يوسف :

- ربما ..

ورأى آدم يختفى خارجا من القاعة . خارجا ومعه جابى
اسكنازى ويوسف منصور الذى أحبها يوما ما ، يوسف
منصور الذى كان مشغولا بأبيه وأمه . مشغولا بجده وسيوفه
مشغولا بشيخ الأزهر وشقيقه ، يوسف منصور الذى ضاع
منه الحب . سواء الحب الذى عرفه أبوه . حب العشق
الملتهب الفاجر الذى يشتري به العاشق .. الدنيا وما فيها ..
أو الحب كمعنى أو عاطفة أو مسئولية .. ضاع منه الحب .
وضاع منه الزواج . ضاع كل شيء .. ربما لأنه
لم يحارب لقضية لم يحارب لأى شيء يستحق
الحرب .. لعل ابنه حسن أفضل منه ألف مرة
وقد أمسك بالسلاح يقتل به ، حتى ولو كانت قضيته فاسدة
أو ظالمة . أو خاسرة .. المهم أنه يعرف أن الانسحاب لا بد أن
يحارب من أجل شيء حتى ولو كان يحارب نفسه .. حتى
جابى اسكنازى حاربت عواطفها وضحت بها . لعلها تفخر
الآن بما فعلته .. أو لعلها تجد بعض العزاء عندما تمشى في
شوارع اسرائيل وتقول لنفسها دفعت بعض الثمن . الشيء
المخيف حقا . أنه هو أيضا دفع الثمن ، وهو لا يدري لتقوم
اسرائيل . فقد الحب ، وضاع معناه وتاه في الحياة ضالا
مشردا . لتقوم اسرائيل . أهذا نوع من الغباء أو البلاهة
أو السخف . أو هو كل هذا ؟! جابى اسكنازى ضحت بحبها ،
وهي تشعر بنفس المشاعر التى تمتع بها أعظم أبطال الدراما
وهم يصارعون العواطف المتناقضة المتضاربة . الحب ضد

الواجب • الأسرة ضد الوطن أما هو فقد دفع الثمن بلا صراع
ولا بطولة • • وقاه في مشاعر غامضة من الأناثية والكرامة
والعزة بالنفس • •

أيعود لحسن ليخرجه من السجن ؟!

وبعد أن يخرج حسن « ماذا يقدم له » • • ؟

أيقدم له الأب • يقدم له يوسف منصور كما عرف نفسه ،
انه مصيبة سوف يقدمها لابنه في صورة يوسف منصور الأب •
أيقدم له جده • • منصور سالم • ومعه جدته كوثر هانم
وعشيقة جده فاطمة هانم شريف ، وزوج جدته لطيف صبرى •
ما تنب الولد الصغير في كل هذا ؟!

أيقدم له مدرسته • • أيقدم له السلطة برجال الشرطة • •
والمنافقين والشامتين والنهازين ؟!

صدقت فاطمة هانم وهي تقول له : ان عودته لانتقاد حسن ،
سوف تكون أسوأ من قصاصة عصاة اليد السوداء التي
أرسلتها له •

انه لا يستطيع أن يقدم له أفكارا جديدة تبهره أو معاني
جديدة تضيء طريقه •

أيتراجع • أيترك حسن في السجن ولكن هذا مستحيل لايد
ان يبحث ويفتش من جديد ليجد منفذا للخلاص في هذا الجدار
الذي صنعه الذكريات والأيام من اليأس • لايد أن يصل الى
شيء ولا بأس من الانتظار والتروى • ولا بأس من أن يتسلى
بلعب الدومينو ، ينضم اليهم في القاعة • • ويفرض على نفسه

راحة اجبارية لبعض الوقت ، حتى تهدأ مشاعره وتنظم أفكاره
وتتسلسل • • وتسقيم الأمور •

لا أحد يستطيع أن يقدر الوقت الذي انقضى بعد ذلك ، في
مكان يتجاهل رواده قياس الزمان بالساعات والأيام والشهور
والسنوات •

ولكن مضى وقت كاف ليتعلم أثناءه يوسف منصور •
اللعب ، وما كان يخطر بباله أنه سيكتشف في نفسه قدرات
مذهلة ، وسوف تتفتح أمامه أساليب في اللعب ، كأنها
المعجزات •

انه يجلس بين الصحوة والنوم ، يزفر الهواء من صدره
بصعوبة • • ولكنه متحفز للانقضاض على خصومه • كل
خصم يجلس أمامه على منضدة الدومينو ، هو صيد يفترسه ،
يفتك به ، يهتك عرضه • يقضى عليه بقسوة لا حدود لها • يداه
ترتجفان • • عيناه ملهوفتان ، وهو يتابع النقط السوداء على
الحجارة البيضاء •

يبحث عن مكسب ، ويتحاشى خسارة ، ويتعامل مع تلك
الطاقات التي حصل عليها • طاقات غريبة من سيطرة النفس
أو العقل على المادة • فهو يمد يده الى الحجرة ، ليأخذ
واحدة • وكل درة في جسده تفرض الرقم الذي يسحبه كل
أنفاسه مركزة على الحجر المعين الذي يريده • كل ما عرفه
طوال حياته من عجز واحباط ومرارة وفشل يطرده طردا

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

على لقب أستاذ في اللعب •

ولابد أن وقتا ما • لا يستطيع أحد أن يحدده قد انقضى قبل
أن يصل يوسف منصور إلى مرتبة اللعب مع خليل • فيجلس
واثقا من قدراته يتعامل بالحجارة بين أصابعه وكأنه عازف
ماهر يعزف أروع الألحان •

ويتبادل مع خليل ، انشاد • يا أهبل من عليها ترلم ترلم ••
وأحيانا يصيح يوسف ، في القاعة :
- انا فعلا •• حظي من الخلف •

كأشباح غامضة لم يعد يتبين ملامحها في وضوح • ويمد يده
يزيح الأشباح ، وتمسك أصابعه بالحجر الذي ينقذ حياته •
ويقضى على عدوه •• ويسحب الحجر الذي تمناه • وترتفع
الصيحات •

- بركاتك يا شيخ يوسف ••

- حظ عوالم يا عم يوسف ••

وهو لا يكاد يسمع ما يقولون ، أنفاسه تتلاحق ، يكاد يصدر
شخيرا مسموعا تقردد أصداؤه في القاعة •• ولكن أحيانا
أخرى تمر به لحظات سوداء •• أسود من كل ما مر به في
حياته • يخسر ويخسر • ويشتمونه ويسبونه ، ويتأخر في
اللعب ، ويتلأأ في انتظار أن تعود له قدراته التي يفتقدها
لبعض الوقت ، والتي يثق في أنها لا بد أن تعود له •

وترتفع الصيحات •

- يوسف محطة البلدية ••

- العبي يا قطة ••

فاذا ما استمر في الخسارة •• تتلاحق أنفاسه التي يجدها
بصعوبة بالغة ، وقد يسقط فيحملونه إلى الحجرة المجاورة ،
ويأتى المازنى ليفحصه ، ثم يعود ، وهو يهز كتفه ، قائلا كلمته
التقليدية • ماذا يحدث له • أسوأ مما حدث • أتركوه سيفيق
بعد قليل ويعود لكم •

ويصدق كلام المازنى • ينهض يوسف • ويعود ليواصل

لعمرك بحمد الله ...